

البحر اللغوي عند العرب

مع دراسة لقضية التأثير والتأثر

تأليف

الدكتور أحمد مختار عمر

أستاذ علم اللغة - كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

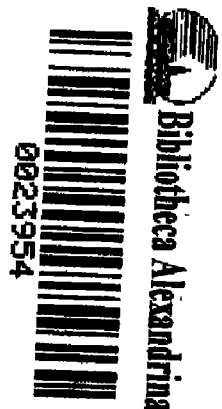
الطبعة السادسة

١٩٨٨ م

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الحالى لوروت - القاهرة



الحكماء الخوفاً عن عبد الله بن عباس

مع دراسة لقضية التائيد والتأثر

تأليف

الدكتور أحمد مختار عمر

أستاذ علم اللغة — كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة السادسة

١٩٨٨

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٧١

الطبعة الثانية ١٩٧٦

الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ، ١٩٨٠

الطبعة الرابعة ١٩٨٢

الطبعة الخامسة ١٩٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

الصفحة

١١	المقدمة
١٥ — ٧٥	الباب الأول — دراسات تمهيدية
١٧	الفصل الأول : مصادر اللغويين العرب
	القرآن الكريم ١٧ — القراءات القرآنية ١٩ . —
	الحديث النبوي ٣٤ — الشعر ٤٢ — الشواهد
	النثرية ٥٠ — مأخذ ٥٤ .
٥٧	الفصل الثاني — الدراسات اللغوية عند غير العرب
	تمهيد ٥٧ — الهنود ٥٧ — اليونانيون ٦١ —
	المصريون القدماء ٦٣ — السريان ٦٥ — العبرانيون
	٦٧ — الصينيون ٧٤ .
٣٣٧ — ٧٦	الباب الثاني — الدراسات اللغوية عند العرب
٧٩	الفصل الأول : مرحلة النشأة
	تأخر البحث اللغوي ٧٩ — غريب ابن عباس ٧٩ —
	محاولة أبي الأسود لضبط المصحف ٧٩ — علامة
	التشديد عند أهل المدينة ٨٠ — البدء بجمع
	المادة ٨٠ — تأخر البحث النحوي عن جمع المادة
	اللغوية ٨١ — النحو كفن نشأ قبله كعلم ٨٢ —
	أول من ألفوا في النحو ٨٣ — سبب وضع النحو ٨٦ —
	أمثلة لأوليات اللحن ٨٦ — الاقواء ٨٨ — عيسى بن
	ممر ٨٩ — أبو عمرو بن العلاء ٩٠ — عبد الله بن
	أبي اسحاق ٩٠ .
٩٣	الفصل الثاني : الأصوات
	عرض تاريخي ٩٣ — جهود النحاة ٩٣ — جهود
	المعجميين ٩٣ — علماء التجويد ٩٥ — المؤلفون في
	امجاز القرآن وعلوم البلاغة ٩٦ — أصحاب

الصفحة

الموسوعات الأدبية ٩٨ — ابن جنى ١٠٠ — ابن
سينا ١٠١ — بعض النتائج الصوتية التى ترصل اليها
العرب ١١٤ — تعقيب ١١٩ .

١٢٣ الفصل الثالث : النحو والصرف

عرض تاريخى ١٢٣ — سيويه ١٢٣ — الرد على
سيويه للمبرد ١٢٤ — الانتصار لسيويه من المبرد
لابن ولاد ١٢٥ — أبو جعفر الرؤاسى ومعاذ الهراء
١٢٦ — التنافس بين البصريين والكوفيين ١٢٦ —
هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ١٢٨ — أهم
الفروق بين مدرستى البصرة والكوفة ١٣٦ . —
ملاحظات ١٣٨ — دعوات التجديد والاصلاح للنحو
العربى ١٤٦ — أسباب الشكوى من النحو ١٤٦ . —
الشعوبيون والهجوم على النحو ١٥٢ — الكتب
الميسرة ١٥٤ — مقترحات اصلاح النحو : ابن ولاد
١٥٦ — أبو العلاء المعرى ١٥٧ — ابن حزم ١٥٨ —
ابن مضاء ١٥٩ — قيمة الدراسات النحوية عند
العرب ١٥٩ .

١٦١ الفصل الرابع : المعجم

١٦١ ١ — مقدمات للموضوع

صعوبة العمل المعجمى ١٦١ — تعريف المعجم
١٦٢ — المعجم اللغوى والموسوعة ١٦٢ — انواع
المعجم ١٦٣ — معنى كلمة معجم واشتقاقها ١٦٣ —
جمعها ١٦٤ — شروط المعجم ١٦٥ — وظيفة المعجم
١٦٥ . — الخطوات الاجرائية لاعداد المعجم ١٦٧ —
اول من استخدم لفظ معجم ١٧٣ — معجم وقاموس
١٧٣ .

الصفحة

٢ — الترتيب المعجمى عند العرب ١٧٥

القسم الأول : معاجم الالفاظ : مدرسة الترتيب
المخرجى : العين للخليل ١٧٨ — الاحصاء الرياضى
١٧٩ — الشكوك حول العين ١٨٣ — ترتيب العين
١٨٩ تهذيب اللغة للأزهري ١٩٣ — البارع للقالى
١٩٦ — مختصر العين للزبيدي ١٩٨ — المحيط
للساحب بن عباد ١٩٩ — المحكم لابن سيده ٢٠٠ —
مثالان تطبيقيان على معاجم الترتيب الصوتى ٢٠١ —
مدرسة الترتيب الالفبائى : وضع الكلمة تحت اسبق
حروفها : الجهرة لابن دريد ٢٠٣ — مثالان تطبيقيان
على معجم الجهرة ٢٠٨ — وضع الكلمة تحت حروفها
الاول بعد تجريدتها : الجيم لابی عمرو الشيبانى
٢٠٩ — المقاييس لابن فارس ٢١٢ — مجهل اللغة
لابن فارس — مثالان تطبيقيان على معجمى المقاييس
والمجمل ٢١٥ — أساسى البلاغة للزمخشري ٢١٧ —
المصباح المنير للفيومى ٢١٩ — وضع الكلمة تحت
حرفها الاول دون تجريد : المقصور والمدود لابن
ولاد ٢٢٠ — غريب القرآن للسجستانى ٢٢٠ —
غريب القرآن وغريب الحديث ٢٢٠ — المعرب
للجوالقى ٢٢١ — السر فى عدم شيوع هذا النظام بين
المعجميين ٢٢١ — وضع الكلمة تحت حروفها الآخر
دون تجريد : التقفية فى اللغة للبندنجى ٢٢١ — وضع
الكلمة تحت حروفها الاصلى الآخر : لمن الريادة ؟
٢٢٣ — الصحاح للجوهري ٢٢٤ — بين الصحاح
وديوان الأدب ٢٢٥ — الأعمال التى دارت حول
الصحاح : التنبيه والايضاح ٢٤١ — نفوذ السهم
٢٥١ — الوشاح ٢٥١ — التكملة والذيل والصلة
للفغانى ٢٥٢ — المختصرات ٢٥٢ — العباب

المسـفحة

للصفائى ٢٥٣ — لسان العرب لابن منظور ٢٥٥ —
 القاموس المحيط للفيروز ابادى ٢٥٧ — نظامه ٢٥٧ —
 بين الفيروز ابادى والجوهري ٢٥٩ — اضاءة
 الراموس لابن الطيب الفاسى ٢٦٤ — تاج العروس
 للزبيدى ٢٦٦ — التكملة للزبيدى ٢٦٨ — مدرسة
 الترتيب بحسب الابنية : مدخل ٢٦٩ — مرحلة التمهيد
 ٢٧٠ — مرحلة المعجم الكامل : ديوان الادب للفارابى
 ٢٧٣ — المقدمة ٢٧٤ — المادة اللغوية ٢٧٥ —
 التذييلات ٢٧٨ — فائدة هذا النوع من المعاجم
 ٢٧٩ — تقدير القدماء لديوان الادب ٢٨٠ — عيوبه
 ٢٨١ — شمس العلوم لنشوان ٢٨٢ — نظامه ٢٨٣ —
 بين ديوان الادب وشمس العلوم ٢٨٤ — مقدمة الادب
 للزمخشري ٢٨٦ .

القسم الثانى : معاجم المعانى : الكتيبات والرسائل
 اللغوية ٢٨٨ — كتب الصفات والغريب المصنف
 ٢٨٨ — المخصص لابن سيده ٢٨٩ — كفاية المتحفظ
 لابن الاجدابى ٢٩١ — المؤلفات على كفاية المتحفظ
 ٢٩٣ .

٣ — المآخذ على المعاجم العربية ٢٩٥

اهمال الترتيب الداخلى ٢٩٥ — الخروج على المنهج
 المرسوم ٢٩٦ — اخطاء الشرح ٢٩٦ — الشرح المعيب
 ٢٩٨ — اهمال ضبط الكلمة ٢٩٨ — التقليد الاعمى
 ٢٩٨ — تقيد فترة التسجيل ٣٠٠ — تجاوز وظيفة
 المعجم ٣٠٠ — جمود المعجم العربى فى العصر الحديث
 ٣٠١ .

الصفحة

٤ — أهم المحاولات لوضع معجم حديث ٣٠٤

محاولات الأفراد : وضع منهجية جديدة وجهود أحمد
فارس الشدياق ٣٠٤ — تأليف المعاجم المبسرة :
محيط المحيط ٣١٠ — قطر المحيط ٣١٠ — أقرب
الموارد ٣١٠ — المنجد ٣١٠ — البستان وفلكه
البستان ٣١١ — متن اللغة ٣١١ — الرائد ٣١١ —
المساعد ٣١١ — إعادة ترتيب المعاجم القديمة :
ترتيب القاموس المحيط ٣١٣ — مختار القاموس
٣١٣ — المختار من صحاح اللغة ٣١٤ — الامصاح في
فقه اللغة ٣١٤ — معاجم المستشرقين : محاولة فيشر
٣١٦ — معجم لين ٣١٩ — معجم دوزى ٣٢١ .
محاولات الجابع اللغوية : مجمع اللغة العربية
بالقاهرة : ٣٢٢ — المعجم الوسيط ٣٢٣ — المعجم
الكبير ٣٢٤ — معجم الفاظ القرآن الكريم ٣٢٥ —
مصطلحات العلوم والفنون ٣٢٥ — المعجم الوجيز
٣٢٥ — المكتب الدائم لتنسيق التعريب ٣٢٦ —
المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٢٨ .

٥ — قائمة بكلمات يصعب معرفة أصلها ٢٢٩

الفصل الخامس : الدراسة المقارنة ٣٣٣

الزعم أن الدراسة المقارنة لم توجد إلا في العصر
الحديث ٣٣٣ — قدم الدراسة المقارنة عند العرب
٣٣٣ — ابن بارون ٣٣٣ — جودة بن قريش ٣٣٦ .

الباب الثالث — قضية التأثير والتأثر ٣٣٩ — ٣٦٥

تمهيد ٣٤١

الصفحة

الفصل الأول : احتمالات التأثير الأجنبي ٣٤٣

الهنود ٣٤٣ — اليونان ٣٥٠ — السريان ٣٥٢ —
العبرانيون ٣٥٥ .

الفصل الثاني : احتمالات التأثير العربي ٣٥٧

النحو السرياني ٣٥٧ — النحو القبطي ٣٥٨ —
النحو العبري ٣٥٨ — المعجم : الهنود ٣٥٩ — الترك
٣٥٩ — ديوان لغات الترك للكاشغري ٣٦٠ —
قاموس الأروام لملا صالح ٣٦٣ — الفرس ٣٦٣ —
استعارة الحروف العربية ٣٦٤ — العروض العربي
٣٦٤ .

مراجع الكتاب : ٣٦٧ — ٣٨٢

١ — المراجع العربية ٣٦٩

٢ — المراجع الأجنبية ٣٨١

كتب أخرى للمؤلف ٣٨٢

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالتأريخ الدراسات اللغوية عند العرب ، منذ نشأتها المبكرة الى أن وصلت الى مرحلة النضج والكمال ، ولا يتجاوز ذلك القرن الخامس الهجرى بأى حال من الأحوال • ففى هذا القرن اكتملت الاتجاهات المعجمية ، وفى القرن الذى قبله وصل الدرس النحوى والصرفى والأصواتى الى قمته • ولم يعد ما تلا ذلك من الدراسات أن يكون ترديدا أو شرحا أو تلخيصا أو نظما لأعمال سابقة •

ولم أتجاوز القرن الخامس الا فى حالة واحدة ، هى أن أبدأ بالحديث عن اتجاه ما ، ثم لا أجده ينتهى بانتهاء هذا القرن ، فلم يكن هناك بد من السير بالاتجاه الى نهايته • وقد حدث هذا — مثلا — حين تتبعى للمدارس المعجمية ، وحدث كذلك حين الكلام عن دعوات التجديد والاصلاح للنحو العربى •

ولما كان الحكم على العقلية العربية ، وتقييم ما قدمته فى ميدان الدراسات اللغوية من أبحاث ونظريات لا يكتمل الا بمعرفة جهود السابقين والمعاصرين فى نفس الميدان ، رأيت أن أخصص فصلا فى الباب الأول لعلاج هذا الموضوع واخترت له عنوان « الدراسات اللغوية عند غير العرب » • وتسلم هذه الدراسة للأعمال اللغوية الأجنبية — الى جانب الأعمال اللغوية العربية — الى تساؤل يتعلق بمدى الصلة بين الجاهدين ، ومقدار ما قدمه كل طرف للآخر أو أخذه عنه • وقد أفردت لعلاج هذا الموضوع بابا خاصا هو الباب الثالث الذى عالج قضية التأثير من جانبها ولكن فى ايجاز وتركيز •

ولست أزعم أن كل ما جاء فى هذا الكتاب جديد ، فبعضه — وهو قليل — لا جديد فيه على الاطلاق ، وبعضه قديم وضع فى ثوب جديد ، وبعضه — وهو كثير — جديد بالنسبة للقارئ العربى •

وأرجو أن يبنى هذا الكتاب طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا العربية عن الرجوع الى المظان المختلفة وبعضها نادر الوجود وبعضها الآخر مصور أو مخطوط . كما أرجو أن يكون نافذة تفتح عيونهم على كثير من القضايا التي ماتزال معلقة حتى الآن ، أو ماتزال في حاجة الى تحليل وتمحيص .

وأحمد الله أن لاقى هذا الكتاب راجا كبيرا لم أكن أتوقعه حتى صدرت له خمس طبعات في خمس عشرة سنة . وقد اقتضاني هذا إعادة النظر فيه عند كل مرة أدفعه الى المطبعة . وكنت في كل مرة أتجنب ما قد أجده من هفوات أو مواطن نقص وأزيد ما بدا لي ضروريا .

وتختلف هذه الطبعة عن الطبعات السابقة اختلافا ملموسا وتتميز بما يأتي :

- ١ — تحرير القول في موقف اللغويين والنحاة من القراءات القرآنية .
- ٢ — تدقيق النظر في موقف اللغويين من الحديث النبوي الشريف .
- ٣ — إعطاء آراء ابن سينا الصوتية اهتماما خاصا بعد أن نشر كتابه « أسباب حدوث الحروف » نشرة علمية محققة .

٤ — توسيع الفصل الخاص بالمعاجم ليلبي حاجات الطلاب والدارسين ، وبخاصة بعد أن أصبح علم المعاجم مقرا مستقلا في كثير من الجامعات العربية ، وبعد أن تطورت صناعة المعجم على المستوى العالمي .

وقد أضفت في هذا الفصل عناوين كثيرة مثل :

المعجم اللغوي والموسوعة — الخطوات الاجرائية لاعداد المعجم —
مجلد اللغة لابن فارس — دراسة تحليلية لكتاب ابن بري « التنبيه
والايضاح » — التكملة والذيل والصلة للزبيدي — حاضرمعجم العربى —

وضع منهجية جديدة للمعجم العربى وجهود أحمد فارس الشدياق —
معجم المساعد للكرملى •

كما أضفت بعض الأمثلة التطبيقية على معاجم الترتيب المصرتى
والجمهرة والمقاييس نظرا لصعوبة الكشف فيها ، وحاجة مستعملها الى
تدريب خاص •

وهناك اضافات أخرى وتعديلات موزعة فى ثنايا الكتاب يصعب
حصرها •

والله الموفق •

المؤلف

سبتمبر ١٩٨٧

الباب الأول

دراسات تمهيدية

الفصل الأول

مصادر اللغويين العرب

من الممكن حصر المصادر التي استقى منها اللغويون العرب مادتهم فيما يأتي :

- ١ — القرآن الكريم •
- ٢ — المقرئات القرآنية •
- ٣ — الحديث النبوي •
- ٤ — الشعر •
- ٥ — الشواهد النثرية •

وان وجد بينهم خلاف حول بعضها • واليكم بيان ذلك :

١ — القرآن الكريم

وقد اعتبروه في أعلى درجات الفصاحة وخير ممثل للغة الأدبية المشتركة ، ولذا وقفوا منه موقفًا موحدًا فاستشهدوا به ، وقبلوا كل ما جاء فيه • ولا يعرف أحد من اللغويين قد تعرض لشيء مما أثبت في المصحف بالنقد والتخطئة ^(١) • ويقول الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات مبينا قيمة اللفظ القرآني : « ألفاظ القرآن الكريم هي لب كلام العرب

(١) بل كانوا يدافعون عن النص القرآني ضد ما يوجه اليه من شبهات كما فعل ابن هشام في شذور الذهب حين نقل ما يروى عن عثمان أنه قال : « ان في المصحف لحناً وستقيمه العرب بالسنتها » • وما يروى عن عائشة أنها قالت : « هذا خطأ من الكاتب » (في قوله تعالى : « والمقيمون » و « الصابئون » و « ان هذان ») فقد ذكر أن الخبر باطل لوجوه منها :

١ — ان الصحابة كانوا يتسارعون الى افكار أدنى المنكرات فكيف يقرءون اللحن في القرآن ؟

- ب — أن العرب كانت تستبج اللحن فكيف لا تستبجه في القرآن ؟
- ج — أن المصحف يطلع عليه العربي وغيره •

=

(م ٢ — البحث اللغوي)

وزبدته ، وواسطته ، وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء .. واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء .. وما عداها .. كالقشور والنوى بالاضافة الى أطايب الثمرة » .

والمراد بالقرآن النص القرآني المدون في المصحف ، وهو غير المقراءات . يقول الزركشى في البرهان : « القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان . فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والاعجاز . والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيب وغيرهما .. » (١) . ويقول الآمدي في الاحكام : « أما حقيقة الكتاب فقد قيل فيه هو ما نقل اليينا بين دفتي المصحف بالأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا » (٢) .

ومن الحقائق المسلمة أن القرآن نزل أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغتهم . ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته الى لغة أخرى للمشفة (٣) ، وكانت الاياحة بعد أن كثر دخول العرب في الاسلام وذلك بعد الهجرة (٤) . فلما جاء عثمان وأراد جمع القرآن في المصاحف ونسخها « اقتصر من سائر اللغات على لغة قريش » (٥) ، ولذلك « جعل مع زيد النضر القرشيين لئلا يكون شيء من القرآن مرسوما على غير لغتهم » (٦) ، وقال عثمان للقرشيين :

د — ان زيد بن ثابت أراد أن يكتب « التابوه » باللهاء فأمره عثمان ان يكتبها بالقاء على لغة قريش .

ه — ان عمر بلغه قراءة ابن مسعود « عتي » فأمره أن يدعها ويقرأ الناس بلغة قريش فان الله انما أنزله بلغتهم (شرح شذور

الذهب بحاشية الأمير ، ص ١٨) .

(١) البرهان ١/٣١٨ .

(٢) الاحكام ١/٢٢٨ .

(٣) القراءات واللهجات ، ص ٨ .

(٤) النووي على مسلم ١/١٠٣ .

(٥) الاتقان ١/٦٣ .

(٦) المتنوع ص ١٠٩ .

« إن اختلفتم في شيء أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه على لسان قريش فانما نزل بلسان قريش » (١) .

٢ — القراءات القرآنية

وهي الوجوه المختلفة التي سمح النبي بقراءة نص المصحف بها قصدا للتيسير ، والتي جاءت وفقا للهجة من اللهجات العربية . يقول ابن الجزري في كتابه النشر (٢) :

« فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها .. حيث أتاه جبريل فقال له : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف ، فقال صلى الله عليه وسلم أسأل الله معافاته ومعونته إن أمتى لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد : أسأله حتى بلغ سبعة أحرف » .

ويقول : « إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها عربيها وعجميها ، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة ، ومن لم يقرأ كتابا .. فلو كلفوا المعدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلف وتأبى الطباع » .

ثم ينقل ابن الجزري عن ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » قوله :

« فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرء كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم : فلهذا يقرأ (عتى حين

(١) المرجع ص ٥ .

(٢) النشر ٢٢/١ .

يريد (حتى) °° والقرشى لا يهمز ، والآخر يقرأ (قيل لهم وغيض الماء)
بالاشمام °° وهذا يقرأ (عليهم ومنهم) °° والآخر يقرأ (عليهم ومنهم)
بالصلة °° الى غير ذلك ° ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته
وما جرى عليه اعتياده طفلا ونائسا وكهلا لاشتد ذلك عليه ، وعظمت
المحنة فيه » •

شروط قبول اللغويين للقراءة :

يحتاج موقف اللغويين من القراءات القرآنية وشروط قبولهم لها
الى توضيح ، لأن هناك خلطا كثيرا وقع في هذه القضية • وأحب بادئ
ذى بدء أن أميز بين منهجين مختلفين وموقفين متباينين من القراءات
القرآنية :

أولهما : موقف القراء وعلماء الأصول •

والآخر : موقف اللغويين والنحاة •

الفريق الأول حكمته النظرة الى القراءة باعتبارها وسيلة تعبد وتقرب
الى الله ، وشروطا لصحة الصلاة ، ومصدرا للتشريع •

أما الفريق الثانى فنقد حكمته النظرة الى القراءة باعتبارها أحد
المصادر اللغوية المعتمدة ، وشاهدا لا يصح النظر إليه بمعزل عن سائر
الشواهد اللغوية •

الفريق الأول — حين غلب المقياس الدينى — وضع لقبول القراءة
شروطا ثلاثة هى :

١ — موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا •

٢ — موافقة العربية ولو بوجه •

٣ — صحة سندها واتصال روايتها (١) •

(١) النشر لابن الجزرى ص ١ — ٩ •

أما الفريق الثانى — وهو الذى يهمنا — فقد وضع لصحة القراءة شرطا واحدا هو صحة الرواية عن القارئ العدل حتى لو كان فردا ، وسواء رويت القراءة بطريق التواتر أو الآحاد ، وسواء كانت سبعية أو عشرية أو شاذة • بل ان ابن جنى فى كتابه « المحتسب » كان عريضا على وضع القراءة الشاذة على قدم المساواة مع القراءة السبعية ، وذلك فى قوله : « إنه نازع بالثقة الى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه • ولعله أو كثيرا منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه » • واذا كان اللغويون لم يشترطوا النقل المتواتر فى أى نص لغوى فلماذا يشترطونه فى القراءة القرآنية • واذا كانوا قد صرحوا بقبول نقل الواحد اذا كان الناقل عدلا رجلا كان أو امرأة ، حرا كان أو عبدا (١) فلماذا يرفع قيد على قبول القراءة دون غيرها ؟ بل أكثر من هذا يصرح السيوطى بأن العدالة وان كانت شرطا فى الراوى فهى ليست شرطا فى العربى الذى يحتج بقوله •

والى جانب عدم اشتراط اللغوى للتواتر لم يشترط اتصال السند ورفعته الى الرسول صلى الله عليه وسلم • واللغويون بهذا يتعاملين مع القراءة على أنها نص عربى رواه أو قرأ به من يوثق فى عربيته على فرض التشكك فى نسبة القراءة الى الرسول • وبهذا يدخل فى باب الاحتجاج اللغوى كثير مما عده القراء من باب التفسير أو الشرح اللغوى •

أما شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية فلا يفتقد به اللغوى كذلك • بل هو يرى فى هذا الشرط حدا من فائدة تعدد القراءات واضاعة للحكمة من تشريعه ، وهى التخفيف على هذه الأمة وارادة اليسر بها كما سبق أن ذكرنا •

ان العادات النطقية والقدرة على التلفظ ببعض الأصوات دون بعض إنما ترتبط بالجانب الصوتى لا الكتابى • وإلا فأى صعوبة نطقية تتحقق

في أن يقرأ القارئ الكلمة كما قرئت : « فتبينوا » أو « فتثبتوا » ؟ وأى صعوبة في أن ينطق كلمة « عباد » في قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » كما قرأها ابن كثير وابن عامر ونافع وغيرهم : « عِنْدَ الرحمن » ، أو كما قرأها أبى وسعيد بن جبير : « عِبْدَ الرحمن » ، (بفتح العين وسكون الباء) أو كما قرأها ابن عباس : « عِبَادَ الرحمن » (بضم العين وتشديد الباء) ؟ وهل تظهر الحكمة من تعدد القراءات في مثل قوله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه » ، حينما قرئت « منه » تارة : « مِنْهُ » (بكسر الميم وتشديد النون والنصب) وتارة : « مِنْهُ » (بفتح الميم وضم النون المشددة والاضافه) ، وتارة : « مِنْهُ » (بكسر الميم وتشديد النون والرفع) ؟

فإذا كان مثل هذه القراءات يدخل في باب المقبول مع غياب حكمة التخفيف فيها ، فلماذا نستبعد قراءات أخرى تبدو حكمة التخفيف واضحة منها لمجرد مخالفتها لرسم المصحف ؟ والأمثلة كثيرة على القراءات التي تدخل في باب العادة الكلامية أو الخاصة اللهجية — مما يقبله اللغوي دون تردد — ويستبعده القارئ لمخالفته رسم المصحف ، مثل :

- ١ — (وما هو على الغيب « بضنين ») ، التي قرئت : « بظنين » .
وكلنا يلاحظ التداخل بين صوتي الضاد والظاء حتى في لغة المعاصرين .
ورسم المصحف لا يسمح بالتبادل بين الضاد والظاء .

- ٢ — قوله تعالى : (وإذا السماء « كُشِطَتْ ») ، وقوله (فأما اليتيم فلا « تقهر ») فقد قرأهما ابن مسعود على خلاف سائر القراء حين أبدل الكاف قافا في الأولى فصارت : « كُشِطَتْ » ، وأبدل القاف كافا في الثانية فصارت « تكهر » . والصلة الصوتية بين القاف والكاف أوضح من أن تحتاج إلى تعليق ، ورسم المصحف لا يسمح بالتبادل بين القاف والكاف .

٣ — قراءة ابن مسعود : « عتى حين » في : « حتى حين » ، وهى خاصة لهجية معروفة منقولة عن هذيل .

٤ — ومثل هذا يقال عن قراءة : « إنا أنطيناك الكوثر » بدلا من : « أعطيناك الكوثر » ، وقد قرأ بها كل من الحسن وطلحة وابن محيصن وأم سلمة .

بل إننى أرى أن شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية قد فتح بابا دخل منه بعض القراء واللغويين الذين غلبوا جانب الرسم على جانب الرواية ، فسمحوا بالقراءة بما يوافق الرسم دون التحقق من صحة الرواية . وهذا باب خطير دخل منه كثير من الطاعنين في القراءات حين ردوا كثيرا مما روى منها الى الاجتهاد في النطق بما هو مرسوم . ولهذا كان حمزة بن حسن الأصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » حريصا على أن يوضح ان احتمال الهجاء لا يكفى بل لابد أن يقرأ بهما لتصيرا قراءتين . أما إذا احتمل الهجاء لفظين ولم يقرأ بهما فلا تصيران قراءتين . وضرب الأصفهاني أمثلة لقراءات وافقت رسم المصحف ولم تصح الرواية فيها فعدت من التصحيف ، منها القراءات المنسوبة الى حماد الراوية ، قال الأصفهاني : « وكان حماد الراوية يقرأ القرآن دون رواية فكان يقع في التصحيف » ، ومما صحفه ، « بل الذين كفروا في غرة (بكسر الغين) وشقاق » ، بدلا من « في غرة وشقاق » : وكذلك : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ، بدلا من « شأن يغنيه » .. وغير ذلك .

أما شرط « موافقة العربية ولو بوجه » فلا يرى اللغوى ضرورة له ، لأنه أمر متحقق لا محالة حين يتحقق شرط الرواية ، ولهذا يقول ابن الجزرى : « وقولنا في الضابط : (ولو بوجه) نريد به وجهها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً ، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة

بالاسناد الصحيح ... » . وحين أراد ابن الجزرى أن يمثل لما نقله الثقة ولا وجه له في المربية لم يجد ما يمثل به الا ما كان من قبيل السهو والخطأ ، ومع ذلك عقب بقوله : وهو قليل جدا بل لا يكاد يوجد » (١) .

ومن الغريب أن نجد من بين المشتغلين بالقراءات من المعاصرين من يحاول اسقاط ماعدا القراءات السبع من الكتب ، ويرفض اثباتها أو الاشارة اليها لأى غرض من الأغراض . فأقصى ما يمكن أن يقوله قائل : انه لا تصح الصلاة بغير المتواتر ، لأنه ليس بقرآن . ولكن اذا لم يكن قرآنا ، أليس من وجهة النظر اللغوية البحتة كلاما عربيا فصيحاً ؟ واذا كان يحظر التعبد به أو قراءته في الصلاة ، أليس هناك مجالات أخرى لروايته والاستشهاد به ؟ يقول القسطلانى (٢) : « ان من قرأ بالشواذ غير معتقد أنها قرآن ولا يوهم أحدا ذلك ، بل لما فيها من الأحكام الشرعية عند من يحتج بها ، أو الأحكام الأنبية فلا كلام في جواز قراءتها » . وبهذا ينبغي أن تدخل القراءات بجميع درجاتها ومستوياتها في الدرس الأدبى واللغوى دون حرج .

نظرة اللغويين الى القراءة :

تختلف نظرة اللغويين الى القراءة باختلاف الغاية من الاستشهاد بها . فان كانت الغاية اثبات وجود اللفظ في اللغة ، أو ضبط نطقه ، أو ذكر معناه ، أو غير ذلك من النتائج الجزئية التى لا تعمم حكما ، ولا تبني قاعدة — اذا كانت الغاية كذلك فلا يهم كثرة النماذج اللغوية الموافقة لهذه القراءة أو قلتها ، كما لا يهم أن تكون القراءة هى النموذج الوحيد المنقول اليها . وقد قبل اللغويون روايات الآحاد بالنسبة لجميع الشواهد اللغوية فى مثل هذه الحالة .

(١) النشر ١٠/١ ، ١٦ .

(٢) لطائف الاشارات ص ٧٣ .

أما إذا كانت الغاية من الاستشهاد وضع قاعدة ، أو استنباط حكم أن تقنين نمط فإن اللغوى حينئذ يضع القراءة الى جانب غيرها من النصوص ، ويوازن بينها ، ويبينى القاعدة على الكثير الشائع ، سواء كان مقروءا به ، أو غير مقروء ، وسواء كانت القراءة متواترة أو غير متواترة . والقراءة حينئذ لا تتميز بوضع خاص ، ولا تنفرد بنظرة معينة بالنسبة لسائر المصادر اللغوية . وكيف تتميز والنص القرآنى نفسه لم يعط أى ميزة فى مجال التقعيد على غيره من النصوص ؟

ألم يتوقف اللغويون عند بعض الآيات القرآنية فحفظوها ولم يقيسوا عليها لأنها لم تأت طبقا للنمرذج الشائع فى لغة العرب ؟

أيضا يسمح بأن يقيس المتعلم على الآية القرآنية « إن » (بنون مشددة) هذان لساحران « فيرفع الطرفين بعد « إن » ؟ (الآية ٦٣ طه) وهى قراءة نافع وابن عامر وحمزة وعاصم والكسائى من القراء السبعة . ومثل هذا يقال عن قراءة معظم السبعة « بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة » (النساء ١٦٢) .

فالقراءة اذن فى مجال التقنين والتقعيد لا تعزل عن بقية المصادر اللغوية وهى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر الجاهلى والاسلامى ومأثور النثر من حكم وأمثال وخطب ... وهى توضع مع غيرها فى سلة واحدة ويصنف الجميع ويحل ثم توضع القاعدة على ما تثبت كثرته ويتضح شيعه واطراده ، لأنه هو الذى يمثل اللغة المشتركة أو القاعدة التى يجب محاكاتها والالتزام بها .

ومعنى هذا أن معيار اللغوى ومنهجه يختلف عن معيار التارىء ومنهجه ، وأن أى محاولة لفرض منهج القراءة على اللغويين سيعنى فرض منهج علم على علم آخر ، كما سيظهر اللغوى بمظهر المضطرب أو المتناقض فى أقواله وأفعاله .

وعلى هذا فحين يقول اللغويون عن القراءات :

١ — « والقراء لم يطالبوا بأن يحملوا القراءة على ما يجوز في كلام العرب بل ان قراءتهم مردودة الى الرواية » (رسالة الملائكة للمعري) •

٢ — « الرواية تصلها الى رسول الله ، والله تعالى يقول : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) وهذا حكم عام في المعاني والألفاظ » (المحتسب لابن جنى) •

٣ — « والسلامة عند أهل الدين اذا صحت القراءتان عن الجماعة ألا يقال احدهما أجود من الأخرى لأنهما جميعا عن النبي ﷺ فيأثم من قال ذلك » (إعراب القرآن للنحاس) •

فليس معنى هذا أنهم لابد أن يتعدوا عليها بصورة مطلقة ، وأن يخالفوا أمثلتهم الكثيرة ليعينوا على ما كان منها قليلا • كما أنه ليس معنى رفضهم التقعيد على بعض القراءات أنهم يرفضون قبول القراءات ككل •

وبهذا يمكننا أن نفهم وجهة نظر اللغويين القدماء الذين استبعدوا من مجال الاستشهاد قراءات سبعية مثل :

١ — قراءة ابن عامر : وكذلك زين (بضم الزاي) لكثير من المشركين قتل (بضم اللام) أولادهم (بفتح الدال) شركائهم » بالفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول •

٢ — قراءة حمزة : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرصاد » بالجر على عطف الظاهر على الضمير المتصل دون اعادة حرف الجر • وقد وضع أبو على الفارسي ذلك قائلًا : « وهذا ضعيف في القياس وقليل في الاستعمال ، وما كان كذلك فترك الأخذ به أحسن » •

٣ — قراءة نافع : « وجعلنا لكم فيها معائن » بابدال ياء مفعلة همزة في الجمع وهى ليست زائدة * وقد قال المازنى تعليقا على هذه القراءة : « أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدري ما العربية » ، وقال الزجاج : « ولا أعلم لها وجها الا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغى التعويل على هذه القراءة » .

وفى نفس الوقت قبلوا فى الاستشهاد قراءات غير سبعة مثل :

- (أ) قراءة الحسن : ابطوا مصر (بمنع مصر من الصرف) .
- (ب) قراءة الحسن : ولا خوف (بفتحة واحدة) عليهم ولا هم يحزنون .
- (ح) قراءة الأعمش : وإن منها لما يهبط (بضم الباء) من خشية الله .

فالنوع الأول وإن حقق شروط القراء لم يحقق شروط اللغويين ، والنوع الثانى وإن لم يحقق شروط القراء فقد حقق شروط اللغويين .

مناقشة اللغويين المعاصرين :

أدى عدم تفرقة كثير من اللغويين المعاصرين بين الاستشهاد بالقراءة فى مجال اللغة والاستشهاد بها فى مجال النحو ، وعدم التزام كثير من النحاة بالاستشهاد بالقراءة فى مجال النحو رغم تصريحاتهم الكثيرة بأن القراءة سنة ، وأن الرواية تصلها الى الرسول — أدى هذا وذاك الى التلبس على كثير من الباحثين وإيقاعهم فى الحيرة والاضطراب حين أرادوا التوفيق بين تصريحات اللغويين ومواقف النحاة :

(أ) فالدكتور عبد الفتاح شلبى ^(١) يرى أن موقف قدامى النحاة من القراءات كان موقف مهادنة لأن مدرسة الإقراء ومدرسة النحوى

(١) رسالته للدكتوراه المعنونة « أبو على الفارسي » — غير مرقمة الصفحات .

عشأتا متصلتين ، ثم حينما أخذتا في الانفصال تميزتا حتى بلغ من انفراج الشقة بينهما أن عرض النحاة المتأخرون بهشايخ القراء وضعفهم في العربية .

ونحن لا نستطيع أن نسلم بهذا الرأي بعد أن وجدنا من النحاة الأول من كان يلحن القراء ويتعرض لهم بالنقد والتخطئة .

١ — فقد حكى البغدادى في خزانته أن النحاة في عصر أبى عمرو ابن العلاء أنكروا على القراء قراءتهم « وما أنتم بمصرخى » بكسر الياء ، ففزع أحدهم الى أبى عمرو بن العلاء قائلاً له : ان أصحاب النص يلحنوننا فيها ، فقال له : هي جائزة أيضاً لا تنال (١) .

ومن طعن في هذه القراءة من قدامى النحاة الفراء الذى وصفها بأنها من وهم القراء اذ ظنوا أن الباء في « بمصرخى » خافضة للفظ كله ، مع أن الياء للمتكلم (٢) . كذلك طعن فيها أبو عبيدة وقال : « نراهم قد غلطوا ظناً أن الباء تكسر لما بعدها » . وطعن فيها أيضاً أبو حاتم والأخفش والزجاج وغيرهم (٣) .

٢ — قرأ نافع وابن عامر : « أتحتاجونى » بنون خفيفة ، كما قرأ نافع : « فبم تبشرون » . وقد خطأ أبو عمرو بن العلاء القراءتين محتجاً بأنه لا يقال : « أنتم تقوموا » بحذف نون الاعراب (٤) كما خطأها

(١) خزانة الأدب ٢٥٩/٢ .

(٢) معانى القرآن للقراء ، ورقة ٨٩ ، والبحر المحيط ٤١٩/٥ .

(٣) البحر المحيط ٤١٩/٥ .

(٤) اعراب القرآن للنحاس ، ورقة ٦٠ ، ٩٧ . وجمهور النحاة على جواز الجمع بين النونين بدون ادغام وبادغام وجواز الاكتفاء بنون واحدة . وقد اختلف النحاة في المحذوف منهما .

(انظر اعراب القرآن للنحاس ورقة ٩٧ ، ووضح المسالك ٧٩/١)

الهامش رقم ١) .

أبو حاتم وقال : « هذا يكون في الشعر اضطرارا » (١) .

٣ — قرأ الحسن وزيد بن علي وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير ومحمد بن مروان السدي : « هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » (٢) بنصب أطهر . وقد قال أبو عمرو بن العلاء في شأن هذه القراءة : « من قرأ : هن أطهر لكم فقد تربح في لحنه » (٣) . وقال الخليل : هذا لا يجوز . وقال سيبويه : احتبى ابن جؤية في اللحن في قوله : « هن أطهر لكم » (٤) .

٤ — قرأ حمزة : « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا » ، وقد قال النحاس عن هذه القراءة : وما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا إلا وهو يمنع أن تقرأ هذه القراءة (٥) .

٥ — قرأ الحسن وأبو جعفر : « أن نتخذ من دونك من أولياء » بضم نون نتخذ ، وقد قال عن هذه القراءة أبو عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر : لا يجوز نتخذ ، إذ لو كانت كذلك لحذفت « من » الثانية فقلت : أن نتخذ من دونك أولياء (٦) .

٦ — قرأ بعضهم : وكذلك زمين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم « لفصل بالمفعول بين المضاف والمضاف إليه » . وقد قال أبو حيان عن هذه القراءة : « جمهور البصريين يمنعونها متقدموهم ومتأخروهم » (٧) .

-
- (١) البحر المحيط ٤٥٨/٥ . (٢) البحر المحيط ٢٤٧/٥ .
 (٣) البديع لابن خالويه ص ٦٠ ، ومجالس ثعلب ٢٤٧/٢ ، والبحر المحيط ٢٤٧/٥ .
 (٤) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٨٧ ، ومجالس ثعلب ٤٢٧/٢ .
 ووجهة نظر المنكرين أن « هن » في الآية لا تصلح أن تكون ضمير فصل لأن ما بعدها فضلة .
 (٥) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٢ ، ومعاني القرآن للفراء ورقة ١٢٩ .
 (٦) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٣ .
 (٧) البحر المحيط ٢٢٩/٤ .

(ب) والدكتور مهدي المخزومي يقسم النحاة الى فريقين :
فالبصريين يلجئون الى التأويل عند مواجهتهم قراءة من القراءات السبع
لا سبيل الى انكارها ، ويغلطون ما عداها • أما الكوفيون فلهم موقف آخر
يغايير البصريين كل المغايرة • فقد قبلوا القراءات واحتجوا بها وعقدوا
على ما جاء فيها كثيرا من أصولهم وأحكامهم • وهم اذا رجحوا القراءات
التي يجتمع القراء عليها فلا يرفضون غيرها ، ولا يغلطونها ، لأنها
صواب عندهم أيضا • كذلك يعد الدكتور المخزومي القراءات المختلفة
— حتى الشاذ منها — من مصادر دراسات الفراء ، ويقول انه لاينى
يستشهد بها ويصوبها ويحتج بها (١) •

(ج) والأستاذ ابراهيم مصطفى يقول : « كان في حلب ٥٥٥ مدرسة
نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (سنة
٣٧٥) وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ • ولهذه المدرسة
أسلوب في البحث يتميز بعنايتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ما سمى
منها شاذًا » (٢) وقريب منه ما يقرله الدكتور عبد الفتاح شلبي عن
ابن جنى من « أنه كان أسلم موقفا من شيخه الفارسي ومن المبرد
بتأليفه كتاب المحتسب » (٣) •

ولا يسعنا كذلك أن نسلم بأى من هذه الآراء ، فقد اتضح لنا
بعد طول البحث والاستقصاء أن موقف النحويين من القراءات مرقف
مبوح لا يختلف فيه كوفي عن بصرى ، ولا يشذ فيه ابن خالويه أو ابن
جنى أو غيرهما عنهم • فهم جميعا كانوا ينقدون القراءة ومقاييسونها
بمقاييسهم النحوية وهم جميعا كانوا لا يتورعون عن تخطئة القراءة سواء
كانت سبعية أو عشرية أو شاذة أو غيرها ، وهم جميعا كانوا لا يقبلون
القراءة الا اذا وجدوا لها من كلام العرب نظيرا ، وهم جميعا كانوا

(١) مدرسة الكوفة صفحات ١٦٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ •

(٢) المهرجان الالئى لأبى العلاء ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ •

(٣) أبو على الفارسي •

لا يتخرجون عن تخطئة القراءة أو تلحينها اذا عجزوا عن فهمها أو توجيهها ، لا فرق في ذلك بين من اشتغل بالقراءة الى جانب النصوص أو تخصص للدرس النحوى .

ونعرض من بين القراءات التى خطأها ابن خالويه وابن جنى الأمثلة الآتية :

١ — قرأ بعضهم : « ولكل جعلنا موال » وقد قال ابن خالويه عن هذه القراءة : وإنما يجوز مثل هذا في الشعر كقول الشاعر :

فلو أن واثى باليمامة (١) .

٢ — ويقول ابن خالويه في قراءة : « ساحران تظاهرا » بالتشديد : تشديده لحن لأنه فعل ماضٍ وإنما تشدد في المضارع (٢) .

٣ — ويقول كذلك ابن خالويه في قراءة : « وله أخ » بالتشديد : قال ابن دريد : التشديد لغة وقال ابن خالويه : وأهل العربية يرونه لحنًا .

وغير ذلك (٣) .

٤ — قرأ الحسن : « رها تنزلت به الشياطين » ، وقد قال عنها ابن جنى « الشياطين غلط » (٤) ، على الرغم مما هو ثابت أنها قد سمعت من بعض العرب فقد حكى أبو العلاء المعرى في كتابه (عبث الوليد) عن بعض العلماء أنه سمع أعرابيا يقول : « هذه بساتون بنى فلان » (٥) .

(١) البديع ص ٢٥ .

(٢) المرجع ص ١١٣ .

(٣) المرجع ص ٢٥ وانظر كذلك الحجة لابن خالويه ورقة ٤٦ والبديع

له ص ٣٥ .

(٤) المحتسب ورقة ١١٨ .

(٥) عبث الوليد ص ٢٢٦ .

٥ — قرأ يحيى بن عامر : « وان أدري لعله » ، « وان أدري »
أقريب » ، وقد قال ابن جنى : « أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين ،
وظاهر الأمر لعمري كذلك » (١) .

٦ — قرأ ابن محيصن : « ثم اطّره » وقد قال ابن جنى : « هذه
لغة مرذولة » (٢) .

أما القراءات التى خطأها الكوفيون فقد سبقت نماذج منها ونضيف
ما يأتى الى ما سبق :

١ — قرأ بعضهم : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » وقد
قال عنها الفراء : « وفيه قبح » (٣) .

٢ — قال الفراء فى قراءة الحسن : « وما تنزلت به الشياطين » :
« غلط الشيخ » (٤) .

٣ — استقبح الكسائى قراءة : « بيت طائفة » بادغام التاء فى
الطاء ، مع أنها قراءة أبى عمرو والكوفيين (٥) .

نعم ان الكوفيين كانوا أقل تخطئة للقراءات ، وأكثر قبولا لها من
البصريين ، ولكن ذلك لا يرجع — فى نظرنا — الى احتراهم للقراءات
وحسن تقبلهم لها ، وانما يرجع الى ما عرفوا به من توسع فى أصول اللغة ،
وقياس على القليل ، واعتداد بالمثال الواحد (٦) ، فأمكنهم بذلك توجيه
كثير من القراءات وتخريجها على مقتضى أصولهم . ومن هنا قلت تخطئتهم
لها . واذا كان الدكتور مهدى المخزومى قد ساق أمثلة قبل فيها الكوفيون

(١) المحتسب ورقة ١٠٣ .

(٢) المرجع ورقة ٢٢ .

(٣) معانى القرآن للفراء ورقة ٣٦ .

(٤) البحر المحيط ٤٦/٧ .

(٥) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٤٣ . وانظر امثلة أخرى فى معانى

القرآن للفراء ورقة ١١٠ ، ١٧٧ ، ومعانى القرآن للنحاس ورقة ١٧٨ .

(٦) انظر : من أسرار اللغة ص ١١ .

بعض القراءات وصححوها ^(١) ، فإن هذا لا يكفي لاثبات دعواه • وقد ذكرنا أمثلة مضادة تكفي لهدم تلك الفكرة ، ولا نزعم أنها كل ما أنكره الكوفيون من قراءات •

وإذا كان الكوفيون — كما يقول الدكتور مهدي المخزومي — يستشهدون بالقراءات فلماذا يحاولون الاستدلال على صحتها بالتماس وجه لها في العربية تخرج عليه ؟ ولماذا يخطئون ما يعجزون عن تخريجه ؟ وأنت ترى ذلك واضحا في قول امام من أئمتهم وهو الفراء : « وقرأ الحسن : (إلا من هو صال الجحيم) فإن كان أراد واحدا فليس بجائر ، لأنك لا تقول هذا قاص ولا رام » (بالضم) ، وان يكن عرف فيها لغة مقلوبة مثل عاث وعثا فهو صواب » ^(٢) فعلام هذا المترديد ؟ ولماذا يتوقف تصحيح القراءة على سماع نظير لها من لغة العرب ؟ لقد اشتهر الكوفيون بأنهم يقيسون على المثال الواحد ، فلماذا لا يقيسون على القراءة ولو لم يكن لها نظير فيما نقلوه من لغة العرب ، ويعتبرونها هي المثال الواحد ؟ ان ترك هذا يعني — في نظرنا — أن القراءة عندهم لا ترقى الى مرتبة الشاهد في الاستدلال ، ويعنى كذلك أن القراءة لا يوثق فيها بمفردها ، ولا يصح الاستشهاد بها الا مع سند من كلام العرب وهذا ينفي فكرة استشهادهم بالقراءات واحترامهم لها • وليس معنى هذا أنهم كانوا يرفضون كل لفظ يرد في القراءات وانما معناه أنهم كانوا لا يكتفون بالقراءات حين يرد فيها لفظ من الألفاظ بل يدعمونها بنص آخر شعري أو نثري حتى يمكن أن يؤخذ بها •

ونحن لا نعيب على النحاة عدم استشهادهم المطلق بالقراءات ورفضهم بناء اللغة الأدبية المشتركة عليها الا ما وافق منها الأصول العامة وجرى على النمط العربي الفصيح ، فذلك عين الصواب كما سبق

(١) مدرسة الكوفة ص ٢٨٤ — ٣٩٥ •

(٢) معاني القرآن للفراء ورقة ١٦٠ •

أن بينا ، وانما نعيب عليهم وصفهم بعض القراءات بأنه قبيح أو ردىء أو وهم أو غلط (١) . وقد كان في امكانهم أن يصفوها بأنها جاءت على لهجة محلية أو أقل فصاحة فلا تبني عليها قاعدة ، دون أن يطعنوا على القارئ أو يشككوا في صحة القراءة . ونحن لا ندعى — ولا غيرنا — أن القراءات كلها على مستوى واحد من الفصاحة (٢) ، فما هي في معظم حالاتها إلا تمثيل لللهجات ، واللهجات تتفاوت فيما بينها في درجات الفصاحة . ولهذا يقول أبو نصر القشيري : « فإننا لا ندعى أن كل القراءات على أرفع الدرجات في الفصاحة » (٣) .

وقد كان الطبرى أكثر توفيقا في تعليقه على بعض القراءات حين كان يقول : « وأعجب القراءتين الىّ كذا » ، وكذلك كان الفراء في تعليقات له مثل : « وانه لأحب الوجهين الىّ » ، ومثل : « ولست أستهي ذلك » .

٣ — الحديث النبوى

المشهور بين الباحثين أن قدامى اللغويين والنحاة كانوا يرفضون الاستشهاد بالحديث في اللغة ، فلا يستندون اليه في إثبات ألفاظها أو

(١) من سوء تعبيرهم قول المبرد عن قراءة لأبى عمرو : « هي لحن لا يجوز في كلام ولا شعر » ، وقوله عن قراءة أخرى : « لو صليت خلف امام يقرأ بها لأخذت نعلى ومضيت » ، وقول الزمخشري عن قراءة لابن عامر انها « شيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن » .

(٢) لم أجد أحدا من الباحثين قد وضع القرآن وقراءاته في مستوى واحد من الفصاحة الا الأستاذ عباس حسن الذى قال : « بعض القراء قرا ما ودعك ، أفىكون هذا شفوذا في الاستعمال مع قراءة القرآن به ، وكيف يتفق القول أن يكون القرآن اسمى لغة عربية بيانية مع اشتماله على الشاذ ؟ » (مجلة رسالة الاسلام العدد ٣ السنة ١٠ ص ٢٨٤) . وهو هنا يخلط بين حقيقتين متفايرتين ويثبت لاحدهما ما هو للآخرى .

(٣) القراءات واللهجات ص ١٣١ .

وضع قواعدها ، يقول الشيخ أحمد الاسكندري ، « مضت ثمانية قرون والعلماء من أول أبي الأسود الدؤلى الى ابن مالك لا يحتجون بلفظ الحديث فى اللغة الا الأحاديث المتواترة » ^(١) . ويقول أبو حيان معترضا على ابن مالك لاستشهاده بالحديث : « على أن الواضعين الأولين لعلم النحو والمستقرئين للأحكام من لسان العرب ، والمستنبطين المقاييس كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، وكمعاذ والكسائى والفراء وعلى بن المبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك » ^(٢) .

وقد حاول المتأخرون أن يعطلوا هذا الرفض المزعوم وانتصهوا الى أنه يرجع لسببين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى والثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ^(٣) .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أن هؤلاء القدماء الذين نسب إليهم رفضهم الاستشهاد بالحديث لم يثيروا هذه المسألة ، ولم يناقشوا مبدأ الاحتجاج بالحديث ، وبالتالي لم يصرحوا برفض الاستشهاد به . وإنما هو استنتاج من المتأخرين الذين لاحظوا — خطأ — أن القدماء لم يستشهدوا بالحديث ، فبنوا عليه أنهم يرفضون الاستشهاد به ، ثم حاولوا تعليل ذلك .

وهناك أسباب كثيرة تحمل على الشك فى صحة ما نسب الى الأقدمين من رفضهم الاستشهاد بالحديث ، بل هناك من الدلائل ما يكاد يقطع — إن لم يكن يقطع فعلا — أنهم كانوا يستشهدون به ويبينون عليه قواعدهم ، سواء منهم من اشتغل باللغة أو النحو أو بهما معا .

(١) مجلة الجمع ٢٩٩/١ .

(٢) التذييل والتكميل ١٦٨/٥ .

(٣) خزنة الأدب ١/٥ ، ٦ ، والتذييل والتكميل ١٦٨/٥ ، ١٦٩ .

ولهذا لا يسع الباحث المدقق أن يسلم بما ادعاه المتأخرون وسنده في ذلك ما يأتي :

١ — أن الأحاديث أصح سنداً من كثير مما ينقل من أشعار العرب .
ولهذا قال صاحب المصباح المنير بعد أن استشهد بحديث « فأثنوا عليه سرا » — على صحة اطلاق الثناء على الذكر بشر — قال : « قد نقل هذا العدل الضابط عن العدل الضابط عن العرب الفصحاء عن أفصح العرب ، فكان أوثق من نقل أهل اللغة ، فإنهم يكتفون بالنقل عن واحد ولا يعرف حاله » (١) .

٢ — أن من المحدثين من ذهب الى « أنه لا تجوز الرواية بالمعنى إلا لمن أحاط بجميع دقائق اللغة ، وكانت جميع المصنعات الفائقة بأقسامها على ذكر منه فيراعيها في نظم كلامه » . وإلا فلا يجوز له روايته بالمعنى » (٢) . على أن المجوزين للرواية بالمعنى معترفون بأن الرواية باللفظ هي الأولى ، ولم يجيزوا النقل بالمعنى إلا فيما لم يدون في الكتب ، وفي حالة الضرورة فقط (٣) . وقد ثبت أن كثيراً من الرواة في الصدر الأول كانت لهم كتب يرجعون إليها عند الرواية . ولا شك أن كتابة الحديث تساعد على روايته بلفظه وحفظه عن ظهر قلب مما يبعده عن أن يدخله غلط أو تصحيف (٤) .

٣ — أن كثيراً من الأحاديث دون في الصدر الأول قبل فساد اللغة على أيدي رجال يحتج بأقوالهم في العربية . فالتبديل على فرض ثبوته إنما كان ممن يسوغ الاحتجاج بكلامه . فغاياته تبديل لفظ يصح الاحتجاج به بلفظ كذلك (٥) .

(١) المصباح المنير مادة « ثنى » . وانظر مجلة المجمع ٢٠١/٣ .

(٢) ابن علان في « شرح الاقتراح » ص ٩٤ .

(٣) مجلة المجمع اللغوي ٢٠٤/٣ .

(٤) تعليق الفرائد للدماميني — باب الفاعل (غير مرقم الصفحات) .

(٥) ابن علان ص ٩٤ ، تعليق الفرائد — باب الفاعل .

٤ — أن هناك أحاديث عرف اعتناء ناقلها بلفظها لمقصود خاص ،
كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته ﷺ ككتابه لهمدان ، وكتابه لوائل
ابن حجر ، والأمثال النبوية (١) .

٥ — وإذا كان قد وقع في رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف
فإن هذا لا يقتضى ترك الاحتجاج به جملة ، وإنما غايته ترك الاحتجاج
بهذه الأحاديث فقط ، وحمله على قلة ضبط أحد الرواة في هذه الألفاظ
خاصة (٢) ، وقد وقع في الأتسعار غلط وتصحيف ، ومع ذلك فهي حجة
من غير خلاف . وإذا كان العسكري قد ألف كتاباً في تصحيف رواية
الحديث ، فقد ألف كتاباً فيما وقع من أصحاب اللغة والشعر من
التصحيف (٣) .

٦ — لو صح أن القدماء لم يستشهدوا بالحديث فليس معناه أنهم
كانوا لا يجيزون الاستشهاد به ، إذ لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث
عدم صحة الاستدلال به (٤) ، فقد تكون العلة إتركه « عدم تعاطيهم
إياه » . وقد ثبت فعلاً أن أوائل النحاة من شيوخ سيبويه حتى زمن
تدوين صحيح البخارى لم يكثرُوا من الاستشهاد بالحديث لأنه لم يكن
مدوناً في زمانهم (٥) .

٧ — على أنى وجدت من قدامى اللغويين من استشهد بالحديث في
مسائل اللغة كأبى عمرو بن العلاء (٦) والخليل (٧) والاكسائى (٨)

(١) خزانة الأدب ٦/١ عن الشاطبى .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ٢٠٧/٣ .

(٣) المرجع والصفحة .

(٤) خزانة الأدب ٥/١ .

(٥) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٦ ، وانظر خديجة الحديثى ص ٤١٢ .

(٦) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٨ .

(٧) العين ٧٠/١ - ٧٢ . وغير ذلك كثير .

(٨) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٧٢ .

والفراء (١) والأصمعي (٢) وأبى عبيد (٣) وابن الأعرابي (٤) وابن السكيت (٥) وأبى حاتم (٦) وابن قتيبة (٧) والمبرد (٨) وابن دريد (٩) وأبى جعفر النحاس (١٠) وابن خالويه (١١) والأزهري (١٢) والفارابي (١٣) والصاحب بن عباد (١٤) وابن فارس (١٥) والجوهري (١٦) وابن سيده (١٧) وابن منظور والفيروز أبادي وغيرهم . ولا يخلف موقف النحاة عن هذا ، إذ لا يعقل أن يستشهد الخليل مثلاً بالحديث في اللغة ، ثم لا يستشهد به

-
- (١) معاني القرآن للفراء ورقة ٨٥ ، ٤٠ .
 (٢) الأضداد للأصمعي ص ١٢ ، ٢٣ ، ٢٧ .
 (٣) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٧٣ ، والغريب المصنف لأبى عبيد ص ١١٨ ، ٤٧٨ .
 (٤) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٦٧ .
 (٥) الأضداد لابن السكيت ص ١٦٧ ، ١٧٢ ، والقلب والابدال له ٣١ .
 (٦) الأضداد لأبى حاتم ص ٣٦ ، ١٣٥ ، والمخصص لابن سيده ص ٤٠ .
 (٧) المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص ٨ .
 (٨) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٢٠٠ .
 (٩) الجمهرة ١/١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ... الخ .
 (١٠) شرح المعلقات للنحاس ورقة ٧٢ ، ومعاني القرآن له ورقة ٤٤ .
 (١١) كتاب ليس لابن خالويه ص ٥ ، ٦ ، ١١ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ... الخ .
 (١٢) ٣٠/١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ... الخ .
 (١٣) انظر ديوان الأدب ٧٣/١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ٢٠١ ، ٢١١ .
 (١٤) المحيط للصاحب بن عباد ٩/٣ ، ١٧ ، ٢١ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ... الخ .
 (١٥) مقاييس اللغة ١/١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ... الخ .
 (١٦) الصحاح ٣٥/١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ... الخ .
 (١٧) المخصص ١/١٨ ، ٢٢ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ١٠٨ ، ١٦٠ ، ... الخ .

في النحو ، وهما صنوان يخرجان من أصل واحد ، وممن استشهد بالحديث من النحاة : أبو عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه (١) والفراء (٢) والكوفيون (٣) والمبرد (٤) والزجاجي والزمخشري (٥) وابن خروف (٦) وابن الخباز (٧) وابن مالك (٨) وابن عقيل (٩) وابن الدماميني (١٠) والأشمونى (١١) والسيوطى وغيرهم وغيرهم (١٢) * وفاقهم في ذلك كل ابن مالك وبلغ الذروة في كتابه « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » حيث عقده للأحاديث التي يشكل إعرابها ، وذكر لها وجوها يستبين بها أنها من قبيل العربى الصحيح * بل ان ابن الضائع (١٣) وأبا حيان (١٤) وهما على رأس من رفض الاستشهاد بالحديث لم تخل كتبهما من

-
- (١) وقد استشهد بثلاثة عشر حديثا في الكتاب (انظرها في موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث لخديجة الحديثى ص ٥٣ وما بعدها وص ٦٧) .
وانظر خديجة الحديثى ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ .
- (٢) شرح الفصل لابن يعيش ١٠٣/٤ ، والانصاف ٣٠٠/٢ .
- (٣) الانصاف ٣٠٠/٢ ، ٣٠٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .
- (٤) احتج المبرد في المقتضب بالحديث في ثلاثة عشر موضعا (انظر خديجة الحديثى ص ٩٧) .
- (٥) شرح الجمل لابن عصفور ورقة ٦٥ ، وشرح الفصل لابن يعيش ٧/٣ ، ٣١ ، ٦/٤ ، ١٥٣ ، وخديجة الحديثى ص ١١١ .
- (٦) تنقيح الالباب في شرح غوامض الكتاب لابن خروف ص ٣٨ .
- (٧) شرح الفية ابن معطى لابن الخباز ورقة ٣٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ١٠٠ .
- (٨) انظر كتابه شواهد التوضيح ، في أماكن كثيرة .
- (٩) شرحه على الالفية ٥٨/١ ، ٢٩٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ .
- (١٠) حاشية على المغنى ورقة ٢٢ ، ٢٣ .
- (١١) شرح الأشمونى ٨٢/١ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٤٠٠ .
- (١٢) مع الهوامع ٤٠/١ ، ١٧١ ، ٢٢٣ ، ٢٥/٢ . وانظر استشهادات الزجاج وابن السراج وابن الأنبارى وابن النحاس وابن درستويه وابن خالويه وأبى على الفارسي والرماني وابن جنى ٠٠٠ في خديجة الحديثى ص ٩٨ وما بعدها .
- (١٣) شرح الجمل لابن الضائع (غير برقم الصفحات) باب الاستثناء ، باب الاختصاص ، باب لولا .
- (١٤) التذييل والتكميل في تفرج التسهيل لأبى حيان ٤/١ ، ١٣٩ .

بعض الحديث . وقد فطن الى هذا ابن الطيب الفاسى فقال : « بل رأيت الاستشهاد بالحديث فى كلام أبى حيان نفسه مرات ولا سيما فى مسائل الصرف » (١) . ولكن إحقاقا للحق أقول إن شواهد النحاة من الحديث ليست فى غزارة شواهد اللغويين وكثرتها . فهى قليلة بالنسبة إليها وبخاصة عند قدامى النحاة . وقد رأينا كيف أن سيبويه لم يستشهد إلا بثلاثة عشر حديثا فقط .

٨ — وقد وجدت فى المزمهر للسيوطى نصا يؤيد ما ذهبت إليه ، فهو يقول : « قال أبو الحسن الثسارى : ومذهبي ومذهب شيخى أبى ذر الخشنى وأبى الحسن بن خروف أن المزيدي أدخل بكتاب العين كثيرا لحذفه شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب منه ولما علم بذلك الامام ابن التيانى عمل كتابه (فتح العين) وأتى فيه بما فى العين من صحيح اللغة . . . دون اخلال بشيء من شواهد القرآن والحديث . . » (٢) .

فهذا صريح فى أن الخليل كان يستشهد بالحديث فى كتابه « العين » . ولم يكن الخليل بدعا من اللغويين ، فلما صنعه الخليل صنعه غيره من أئمة اللغة .

٩ — وقد انتهى ابن الطيب الفاسى الى نفس النتيجة التى انتهت إليها إذ قال : « ذهب الى الاحتجاج بالحديث الشريف جمع من أئمة اللغة منهم ابن مالك وابن هشام والجوهري وصاحب البديع والحريري وابن سيده وابن فارس وابن خروف وابن جنى وابن برى والمسهلى . . »

(١) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٦ . وقد حصرت الدكتور خديجة الحديثى لأبى حيان فى كتابيه ارتشاف الضرب ، ومنهج السالك ثمانية وعشرين حديثا انفرد فى الاحتجاج بها ، وبنى عليها حكما جديدا أو معنى جديدا أو استعمالا جديدا (ص ٣٣٩ ، ٣٦٣) .

(٢) المزمهر ١/ ٨٨ .

وغيرهم ممن يطول ذكره • وهو الذى ينبغى التعويل عليه والمصير إليه •
على أنا لا نعلم أحدا من علماء العربية خالف فى هذه المسألة إلا ما أبداه
الشيخ أبو حيان فى شرح التسهيل ، وأبو الحسن بن الضائع فى شرح
الجمال وتابعهما ••• السيرطى » (١) •

١٠ — كذلك انتهت الدكتوراة خديجة الحديثى الى ما انتهت إليه
وأرخت بداية الاحتجاج بالحديث النبوى بأبى عمرو بن العلاء والخليل
وسيبويه (٢) •

واذن فقد كان المتأخرون مخطئين فيما ادعوه من رفض القدماء
الاستشهاد بالحديث ، وكانوا واهمين حينما ظنوا أنهم هم أيضا برفضهم
الاستشهاد بالحديث إنما يتأثرون خطاهم وينهجون نهجهم • ونحن نحمل
ابن الضائع وأبا حيان تبعة شيوع هذه القضية الخاطئة ، فهما أول
من روج لها ونادى بها (٣) ، وعنهما أخذها العلماء دون تمحيص
أو تحقيق ، ثقة فى حكمهما أو تخففا من البحث وركونا الى الراحة
والتماسا لأيسر السبل •

ولعل منشأ تلك الفكرة الخاطئة ما يأتى :

١ — أن القدماء لم ينصوا على الاستشهاد بالحديث واكتفوا بدخوله
تحت المعنى العام لكلمة « النصوص الأدبية القديمة » ، ثم حين جاء من
تلوهم ودونوا هذه الفكرة كانوا يفهمون ذلك فلم يخصصوا الحديث
بنص مستقل • فلما جاء ابن الضائع وأبو حيان وغيرهما ، ولم يجدوا
نصا مستقلا يبعد الحديث من مصادر اللغة ظنوا أن القدماء لم يكونوا

(١) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٥ .

(٢) موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ص ٧٨ • وقد جمعت المؤلفات
لن يسمون بنحاة ما قبل الاحتجاج سبعة وثمانين حديثا نبويا ، وتسعة وعشرين
حديثا مرويا عن آل البيت والصحابة (ص ١٨٩) •

(٣) المرجع والصفحة ، والتذييل والتكميل ١٦٨/٥ ، ١٦٩ ، وخزانة

الأنبى ٥/١ •

يستشهدون به وسجلوا هذا الظن على أنه حقيقة واقعة • وجاء من بعدهم فنقلوا عنهم دون تمحيص وتابعوهم من غير بحث •

ويؤيد هذا الافتراض أن السيوطي ^(١) استنبط من قول بعضهم : « النحو علم يستنبط بالقياس والاستقراء من كتاب الله تعالى وكلام فصحاء العرب » أن اللغويين لم يكونوا يستشهدون بالحديث ، فعقب على ذلك بقوله : « فقصره عليهما ولم يذكر الحديث » •

٢ — أن سيبويه في احتجازه بالحديث لم يكن يقدم له بما يوضح أنه من الحديث ، فالتبس الحديث بغيره على الباحثين حتى نسب إليه أبو حيان وغيره عدم الاحتجاج بالحديث • وربما كان السبب في إغفال سيبويه للنسبة أنه كان يحتج بالحديث كما يحتج بأى عبارة منثورة من كلام العرب الفصحاء •• ولم يكن إغفاله النسبة الى النبي خارجا عما فعله مع معظم الشواهد الشعرية والنثرية التى لم يهتم بنسبتها الى شخص معين ^(٢) •

٤ — الشعر

لاقى الشعر اهتماما كبيرا من اللغويين واعتبروه الدعامة الأولى لهم حتى لقد تخصصت كلمة الشاهد فيما بعد وأصبحت مقصورة على الشعر فقط • ولذلك نجد كتب الشواهد لا تحوى غير الشعر ولا تهتم بمآعده •

وقد كان اللغويون يستشهدون بالشعر المجهول قائله إن صدر عن ثقة يعتمد عليه • ولذا اعتبروا الأبيات التى وردت فى كتاب سيبويه أصح شواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أن فيها أبياتا عديدة جهل

(١) الاقتراح ص ١٨ •

(٢) خديجة الحديثى ص ٧٨ ، ٤١٢ •

قائلوها ^(١) . وقد كان سيبويه يحرص على إطلاق البيت من النسبة فكان إذا استشهد ببيت لم يذكر ناظمه . وإنما امتنع سيبويه عن تسمية الشعراء « لأنه كره أن يذكر الشاعر وبعض الشعر يروى لشاعرين ، وبعضه مجهول لا يعرف قائله لأنه قدم العهد به » . وأما الأبيات المنسوبة في الكتاب إلى قائلها « فالنسبة حادثة بعده ، اعتنى بنسبتها الجرمي . قال الجرمي : نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا . فأما الألف فعرفت أسماء قائلها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائلها » ^(٢) .

بل إن اللغويين والنحاة قد صرحوا بأن تعدد الروايات في البيت الواحد لا يسقط حجيتها ، وأن كل رواية — مادامت قد نقلت عن ثقة — يصح الاستشهاد بها . يقول ابن ولاد : « الرواة عن الفرزدق وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها . ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد ... ولغة الرواة من العرب شاهد ، كما أن قول الشاعر شاهد » ، ويقول : « مجيء الروايات في البيت الواحد يجعل كل رواية حجة إذا رواها فصح ، لأنه يغير البيت إلى ما في لغته ، فيجعل ذلك أهل العربية حجة » ^(٣) .

وحديثنا عن الشاهد الشعري يجزنا إلى الحديث عن قضية « الضرورة الشعرية » أو ما يسمى « بضرورة الشعر » حينما يحاول اللغوي أو النحوي أن يستبعد البيت من مجال الاستشهاد . فما حد هذه الضرورة ومتى يكون الشاعر مضطرا اضطرارا يسقط حجية الاستشهاد ببيته ؟ لقد اختلف النحاة في ذلك إلى فريقين : فريق يرى — وهو جمهورهم —

(١) خزانة الأدب ٨/١ ، ١٧٨ .

(٢) خزانة الأدب ٨/١ ، ٧٨ . وانظر مقال الدكتور رمضان عبد التواب :

« أسطورة الأبيات الخمسين » .

(٣) الانتصار لابن ولاد ص ١٩ ، ١٩٣ .

أن الضرورة هي « ما وقع في الشعر مما لم يقع في النثر سواء أكان للشاعر عنه مندوحة أم لا » (١) .

ومذهب ابن مالك — وهو الصحيح عن سيبويه — أنها « ما ليس للشاعر مندوحة عنه » (٢) . ويبين أثر هذا الخلاف فيما جاء في الشعر ووجدت فيه المندوحة ، فالجمهور يقصره على السماع ، وابن مالك يقيس عليه . « ولذلك أجاز وصل ال بالمضارع قلبا ، ولم يجعله ضرورة استدلالاته بقوله :

✽ ما أنت بالحكم الترضى حكومته ✽

لتمكنه من أن يقول : « المرضى حكومته » (٣) . وحيث لم يقل ذلك مع الاستطاعة ، ففي ذلك ، اشعار بالاختيار وعدم الاضطرار » (٤) . وكأني بأصحاب المذهب الأول قد وسعوا في مدلول الضرورة ، وأطلقوها دون قيد لتكون سيفنا مصلتا ، وسلاحا يشهرونه في وجه كل بيت يخالف قواعدهم ويعجزون عن تخريجه فيجدون المخلص في هذا الوصف السهل يلقونه دون نظر أو تفكير . وكأن ذلك لم يكفهم فرموا بعض الأدبيات بالضرورة ، لا فرارا من الاخلال بالوزن أو القافية ، بل فرارا من الزحاف ، وهو ما تأباه النظرة الفاحصة المتأنية .

ولهذا نجد أبا العلاء المعري في كثير من كتبه — وقد كان ذا نظرة تحريرية — يهاجم رأى الجمهور وينصر مذهب الأقلية ، ولا يترك فرصة للذود عنه والانتصار له إلا انتهزها فهو يرى أن الزحاف لا يحمل الشاعر على ارتكاب ضرورة ، فهو كثير في الشعر ، وبخاصة في بعض الأوزان .

(١) موطئة الفصيح لابن الطيب الفاسي ، ورقة ١٩ ، ٢٠ ، والضرائر

للأوسى ص ٦ .

(٢) موطئة الفصيح ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) موطئة الفصيح ورقة ٢٠ .

(٤) خزائن الأدب ١/١٥ .

وهو يرى أن من الأبيات الشعرية ما يختل وزنها ان غيرت ، فهذه هي محل الضرورة ، ومنها مالا يكون تغييرها مخلا بالنظم ، فهي كالنثر لا يصح أن يقال عنها انها ضرورة ولهذا فهو يقول في رسالة الملائكة :
« ينشد قول أبى ذؤيب الهذلى :

تركوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولو أنشد هوى لم يكن بالوزن بأس • والاستشهاد بالشعر على نوعين : أحدهما لا مزية فيه للمنظوم على المنثور ، والآخر يكون حكم الموزون فيه غير حكم النثر • فالضرب الأول كبيت أبى ذؤيب الذى مر ، وكقول الآخر •

أنا ابن النارك البكرى بشر عليه الطير ترقبه وقوعا
مخفض « بشر » ونصبه لا فضيلة فيه للوزن ، وكذلك خفض « البكرى » ونصبه ، لأنه قوييم فى الحالين • والضرب الآخر هو الذى يكون الوزن إن غير عما استشهد به عليه لحقه إخلال كقوله :

ألا من مبلغ الحرين عنى مغلفة وخص بها أبيسا
يطوّف بى عكب فى معد ويطعن بالصملة فى قفيا
فهذا لا يمكن إلا على لغة من قال قفى » (١) •

ويقول فى موضوع آخر : « وأنشد الفراء قول زهير :
عليهن فرسان كرام لباسهم سوابيغ زغف لاتخرقها نيل
فهذه زيادة بغير ضرورة ، لأنه لو حذف لم يضر البيت » (٢) •
ويقول فى بيت الهذلى :

أبيت على معارى فاخرات بهن ملوب كدم العباط
الذى يدعى النحاة أنه ضرورة — يقول أبو العلاء : « ولو قال معار

(١) رسالة الملائكة ص ١٨١ — ١٨٣ •

(٢) رسالة الملائكة ص ٢٠٥ ، ٢١٠ •

فاخترات لم يخل بالبيت «^(١) فلن يكون فيه سوى تسكين لام « مفاعلتن »
فأين هي الضرورة ؟ وكأنما شعر النحاة بانتهاء دعواهم أمام تلك الحجة
القوية ، فحاولوا أن يلتمسوا مخلصا لهم ، فادعوا أن الشاعر ارتكب
هذه الضرورة كراهة الزحاف ، فقال أبو العلاء مفندا تلك الحجة :
« وهذا قول ينتقض ، لأن في هذه الطائفة أبياتا كثيرة لا تخلو من زحاف .
وكك قصيدة للعرب وغيرها على هذا القري كقوله :

عرفت بأحدث فنعار عرق علامات كتعبير النمط

فيه زحافان من هذا الجنس ، ثم يجيء في كل الأبيات إلا أن ينذر
شيء «^(٢) .

وكانما حاول بعضهم أن يتعلل بأن هذا الزحاف — مع كثرته في
شعرهم — قد يخل بموسيقى البيت ، فرد عليه أبو العلاء بأن حركة
الزحاف هذه لا تنفر منها الأذن « ولا يشعر بها في الغريزة »^(٣) .

وأيا ما كان الأمر فقد قسم اللغويون الشعراء الى طبقات أربع هي :

- ١ — الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الاسلام .
- ٢ — الشعراء المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام .
- ٣ — الشعراء الاسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الاسلام
كجبريل والفرزدق ، وآخرهم ابن هرمة . قال : الأصمعي : « ختم الشعر
بابن هرمة »^(٤) ، وقال أبو عبيدة : « افتتح الشعر بامرئ القيس ،
وختم بابن هرمة »^(٥) .

(١) رسالة الملائكة ص ٢٠٥ ، ٢١٠ .

(٢) رسالة الفران ص ٢٩٢ .

(٣) رسالة الملائكة ص ٢١٠ .

(٤) الاقتراح ص ٢٦ .

(٥) العمدة ص ٥٦ .

٤ — المولدون ، وهم من بعدهم الى زماننا هذا كبشار وأبي نواس (١) .

فالتبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما اجماعا ، وان كان من بينهم بعض شعراء طعن فيهم ، كعدى بن زيد ، وأبي دؤاد الايادى . قال الأصمعى : « عدى بن زيد وأبو دؤاد الايادى لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست نجدية » (٢) . وقال المرزبانى : « كان عدى بن زيد يسكن الحيرة ، ويرأكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه » (٣) .

أما الطبقة الثالثة فالصحيح جواز الاستشهاد بشعرها . وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحق والحسن البصرى وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم . وكانوا يعدونهم من المولدين (٤) . وقد كان الأصمعى ينكر أبرق الرجل وأرعد ، فلما احتج عليه ببيت الكميت :

أبرق وأرعد يايزي — — — — —
عد فما وعيدك لى بضائر

لما احتج عليه ببيت الكميت هذا قال : ليس بيت الكميت بحجة ، انما هو مولد (٥) .

وقال الأصمعى : « جلست الى أبي عمرو بن العلاء ثمانى حجج ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامى » (٥) .

ومع تحرى العلماء جانب المصواب ، ووضعهم شروطا فى الرواة على نمط شروط المحدثين فى رواة الحديث فقد دست عليهم بعض الأشعار ،

(١) الخزائن ٣/١ .

(٢) الموشح ص ٧٣ .

(٣) الخزائن ٣/١ .

(٤) ديوان الأدب ٣١٦/٢ .

(٥) العمدة ص ٥٧ .

هجاء في شواهدهم أبيات لم تسلم من الظنة • ومن ذلك استشهاد سيبويه بقول الشاعر :

حذر أمورا لاتخاف وآمن ما ليس منجيه من الأقدار

فهذا البيت مصنوع ومسع ذلك رواه سيبويه في الكتاب ، « ذكر أبو يحيى الملاحق أن سيبويه سأله : هل تعدى العرب فعلا ؟ قال : فوضعت له هذا البيت » • وممن قال يوضعه كذلك الصفدي في نفوذ السهم (١) •

ومن ذلك استشهاد الفارابي اللغوي بقول امرئ القيس :

وعمرو بن درماء الهمام اذا غدا
بذى شطب غضب كمشية قسورا
على أنه أراد قسورة فحذف التاء (٢) •

وقد أنكر أبو العلاء المعري هذا البيت ورأى أنه مصنوع وعبر عن ذلك بطريقته الخاصة التي عرف بها في رسالة الغفران فأجرى حوارا بين صاحبه ابن القارح وامرئ القيس جاء فيه : « وإنا لنزوي لك بيتا ما هو في كل الروايات ، وأظنه مصنوعا لأن فيه ما لم تجر عادتك بمثله وهو قولك •• قسورا ، فيقول (امرؤ القيس) أبعد الله الآخر ؛ لقد اخترص فما اترص وان نسبة هذا الى "الأعده احدي الوصمات" (٣) •

وأما الطبقة الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا ، ومنهم من أباح الاستشهاد بكلام من يوثق به منهم ، ومن هؤلاء الزمخشري اللغوي والنحوي المشهور الذي كان يرى الاحتجاج بشعر أبي تمام (٤)

(١) سيبويه امام النحاة ص ١٤٦ • ونفوذ السهم مادة فزع ، واسطورة الابيات الخمسين ص ١٧ •

(٢) ديوان الادب ورقة ٢٩٨ •

(٣) رسالة الغفران ص ٢٣٥ •

(٤) راجع الكشاف • آية : (واذا اظلم عليهم قاموا) [سورة البقرة

آية ٢٠] •

وغيره من أئمة اللغة ورواتها ، ويقول ردا على من سألته كيف يستشهد في الكشف بشعر لأبي تمام : « أجعل ما ينظمه بمنزلة ما يروييه » . يشير الى مجموع أبي تمام المعروف باسم « ديوان الحماسة » والذي تلقاه العلماء بالقبول والثقة . وإذا كان الزمخشري يصرح بثقته في شعر أبي تمام وأضرابه ولذا فهو يستشهد به ، فهناك من اللغويين من استشهد في استخفاء بشعراء من هذه الطبقة . ومن هؤلاء الخليل بن أحمد الذي استشهد في « العين » بحفص الأملري وبشار بن برد (١) . ونسب الى سيديويه أنه استشهد في كتابه بببيت لبشار بعد أن توعدده بالهجاء : « وأصحاب بشار يروون له هذا البيت :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلييب
وفي كتاب سيديويه نصف هذا البيت الآخر ، وهو في باب الادغام لم يسم قائله » (٢) .

وفي العصر الحديث ارتفعت أصوات تنادى بإباحة الاستشهاد بالأدباء والشعراء المشهورين حتى وقتنا الحاضر ، بشرط موت الشاعر ، لأن المعاصرة حجاب كما يقولون ، وبشرط أن يكون الشاعر ممن شهد لهم بالفصاحة والبيان . ونسى هؤلاء أن الشاعر أو الأديب لا يعد من زعماء البيان الا اذا صحت لغته واستقام لسانه ، ولن يتم له ذلك الا اذا جرى على النمط العربي السليم ، ومتى فعل ذلك فقد صار عربيا بلغته ، وتماثلت اللغتان بل تطابقتا وبهذا فهو لم يخلق شيئا لم يعرفه العرب ولم يأت بجديد . بالاضافة الى أن مؤهلات الزعامة لا ضابط لها ، وقد تفتح بابا لدخول كل طامع . ولكننا نجد من أصحاب هذا الرأي من يقولون لقد ورد في شعر بعض المعاصرين ما لم يرد في شعر القدماء مثل شوقي الذي يقول :

(١) المعجم العربي ٢٤١/١ .

(٢) رسالة الفخران ص ٣٦٥ . وانظر الاقتراح ص ٢٦ . وذكر الدكتور رمضان أن البيت لأبي الاسود الدؤلي ، او لمودود العنبري (أسطورة : ص ٩) .

ولى بين الضلوع دم ولحم هما الواهى الذى شكل الشبابا
حيث أخبر عن الثنى بالمفرد ، ومثل قوله أيضا :
ان عزا لم يظل فى غد بجناحيك ذليل مستباح
حيث نفى بلم المستقبل بدليل قوله « فى غد » و « لم » لنفى الماضى (١)

٥ - الشواهد النثرية

تشمل الشواهد النثرية نوعين من المادة اللغوية :
أحدهما : ما جاء فى شكل خطبة أو وصية أو مثل أو حكمة أو نادرة ،
وهذا يعد من آداب العرب الهامة ويأخذ فى الاستشهاد به مدانة الشعر
وشروطه .

وآخرهما : ما نقل عن بعض الأعراب ومن يستشهد بكلامهم فى
حديثهم العادى ، دون أن يتحقق له من القائق والذيوخ مثل ما تحقق
للاول .

وقد وضع اللغويون شروطا تشمل الزمان والمكان بالنسبة لهذا النوع
من المسادة .

أما من ناحية الزمان ، فقد حددوا نهاية الفترة التى يستشهد بها
بآخر القرن الثانى الهجرى بالنسبة لعرب الأمصار ، وآخر القرن الرابع
بالنسبة لعرب البادية (٢) . وأما المكان فقد ربطوه بفكرة البداوة
والحضارة ، فكما كانت القبيلة بدوية أو أقرب الى حياة البداوة كانت
لغتها أفصح ، والثقة فيها أكثر ، وكما كانت متحضرة ، أو أقرب الى
حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة ، ولذلك تجنبوا الأخذ

(١) اللغة والنحو ص ٢٤ وما بعدها ، وصفاة ١٢٩ . ومحاضرات
الدكتور أنيس لطيلة اللسانس بكلية دار العلوم عام ١٩٦٤ .
(٢) انظر : اللغة والنحو للأستاذ عباس حسن ص ٢٤ .

عنها • وفكرتهم في ذلك أن الانعزال في كبد الصحراء ، وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها ويصونها عن أى مؤثر خارجى ، وأن الاختلاط يفسد اللغة وينحرف بالألسنة • وأول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التى يستشهد بها والتى لا يستشهد بها الفارابى فى كتابه الألفاظ والحروف • وتعد هذه القائمة وثيقة هامة نناقلتها كتب اللغة المتأخرة مثل « شرح التسهيل » لأبى حيان « والمزهر » و « الاقتراح » للسيوطى • وهذا هو نص الوثيقة :

« كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما فى النفس • والذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعندهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد • فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب وفى التصريف • ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين • ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم • وبالجمله فلم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لجاورتهم أهل مصر والقيط • ولا من قضاة وغسان وإياد لجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر ^(١) ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان • ولا من بكر لجاورتهم للنبط ^(٢) والفرس • ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس • ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة • ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم • ولا من هاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة

(١) فى المزهر : واليمن • والتصحيح من الاقتراح ، مخطوطة دار الكتب المصرية ١.١٦ مجاميع •
(٢) فى المزهر : للقيط ، والتصحيح من الاقتراح •

صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قسداً خالطوا غيرهم من الأمم
وفسدت ألسنتهم • والذي نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها
فى كتاب فصيها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين
أمصار العرب» (١) •

وجاء ابن خلدون فأيد فى مقدمته رأى الفارابى ، وأوضح هذه
الفكرة ، وارتكز على نفس الأساس السابق ، وان كنا نجد بعض فروق
طفيفة فى تحديد أسماء القبائل • يقول ابن خلدون : « الصريح من النسب
انما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معانهم ، وذلك لما
اختصرا به من نكد العيش وشظف الأحوال • • فلا ينزع إليهم أحد
من الأمم • • فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم • • واعتبر
ذلك فى مضر من قريش ، وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم
من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا خرع ،
وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبيب • • وأما
العرب الذين كانوا بالثلول ، وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من
حمير وكهلان مثل لخم وجذام وعسان وطىء وقضاعة وإياد فاختلفت
أنسابهم وتداخلت شعوبهم» (٢) •

ويظهر أن هذه القائمة لم تكن محل اتفاق بين جميع اللغويين ،
ويظهر كذلك أن البصريين كانوا أكثر تمسكا بها من الكوفيين ، ولهذا
كانوا يفتخرون بقولهم : نحن نأخذ اللغة عن حرثثة الضباب وأكلة
اليرابيع ، وهؤلاء (يعنون الكوفيين) أخذوا اللغة عن أهل السواد
أصحاب الكواميخ وأكلة الثواريز (٣) • كما كانوا يتهمونهم بأنهم
يأخذون اللغة عن غير الفصحاء ، يقول أبو جعفر النحاس : « واحد الآناء
إننى لا يعرف البصريين غيره • وحكى الفراء واحد الآناء إننى • •

(١) المزهري ٢١١/١ ، ٢١٢ •

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩ ، ١٣٠ •

(٣) أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٦٨ •

وللفراء في هذا الباب في كتاب المقصور والممدود أشياء قد جاء بها • •
قد أنكرت عليه ، ورواها الأصمعي ، وابن السكيت ، والمتقنون من أهل
اللغة على خلاف ما روى • والذي يقال في هذا انه مأمون على ما رواه ،
غير أن سماع الكوفيين أكثره عن غير الفصحاء » (١) •

وهمن لم يلتزمها من المتأخرين ابن مالك في مؤلفاته • قال السيوطي
بعد أن نقل هذه القائمة : « ونقل ذلك أبو حيان في شرح التسهيل معترضا
به على ابن مالك حيث عني في كتبه بنقل لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم ،
وقال : ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن » (٢) •

كذلك كانت هذه القائمة محل نقد من بعض المعاصرين ، كما فعل
الدكتور مهدي المخزومي الذي يرى أن التفرقة بين القبائل خطأ منهجي ،
ويشرح ذلك بقوله : « ولا نرى هذا إلا لغو الكلام • انهم يجهلون أن
اللغة سليقة وطبيعة ، ويجهلون أن صاحب اللغة لا يغلط في لغته ، لأنها
جزء من حياته التي فطر عليها وعادة من عاداته التي نشأ عليها • وإذا
كان الجاهليون يغلطون ، والمخضرمون يغلطون ، والاسلاميون يغلطون ،
فعلى من بعد هؤلاء يعتمد النحاة ؟ بماذا يحتجون ؟ ومن أين جاءوا
بهذه الأصول التي وضعوها ، وهذه القواعد التي استنبطوها » • ثم
يناقش فكرتها في وجود الفصاحة في كبد الصحراء فقط بعيدة عن ملابسات
الحضارة فيقول : « ولو كان مقياس الفصاحة هو الانعزال في كبد الصحراء
وعدم الاتصال بالأجانب لكانت لغة قريش أبعد اللغات عن الفصاحة ،
ولا قائل بهذا » (٣) والدكتور المخزومي على حق في هذا ، فقريش كانت
تسكن مكة وما حولها ، وهم أهل تجارة ، والتجارة تؤدي إلى الاختلاط ،
والاختلاط يفسد اللغة على حد زعمهم • فعلام التفريق إذن بين قريش

(١) أعراب القرآن للنحاس ٣٦٢/٢ •

(٢) الاقتراح ورقة ١٠٦ ، مخطوطة دار الكتب رقم ١١٦ مجاميع •

(٣) مدرسة الكوفة ص ٧٣ ، ٧٧ •

وتلك القبائل التي اتهمت في فصاحتها ؟ ولم أخذوا عن قريش ورفضوا
الأخذ عن غيرها ممن وجد في حالة مشابهة لحالتها (١) ؟

ويلاحظ أن علماء اللغة جميعا في حال الرواية لم يجيزوا الاعتماد
على النص المكتوب ، وانما استندوا أساسا على المشافهة والتلقى ،
وحذروا العالم من الاعتماد على النص المدون ، وحذروا المتعلم من
تلقى العلم على من يفعل ذلك • ومن أقوالهم المشهورة : « لا تأخذوا
العلم عن صحفى ، ولا القرآن عن مصحفى » • وهم بذلك لا يختلفون
كثيرا عن المنهج الحديث الذى يعتمد على الراوى اللغوى ، ويعتمد على
الكلام المنطوق دون المكتوب •

ولكننا نأخذ عليهم بعض ما أخذ مثل :

١ — عدم استمرار المشافهة طوال فترة الدراسة ، ولجوء بعضهم
الى مشافهات الآخرين يعتمدون عليها •

٢ — تكميل الثغرات بالمنطق والقياس لا بمعاودة المشافهة •

٣ — اعتقادهم أن اللغة شيء وراثى يتناقله الأبناء عن الآباء وترضعه
الأمهات للأطفال • ولهذا سيطرت عليهم فكرة ارتباط الفصاحة بالجنس
ارتباطا وثيقا ، وأنكروا على الفارسى أو اليونانى امكان اتقان اللغة
العربية كما ينتقنها أهلها من العرب مهما بذلوا في تعلمها ، وثابروا في
المران عليها ، وتلقوها منذ الصغر ، ومهما كان حضورهم مبكرا الى
الجزيرة العربية ، ولو أجنة في بطون أمهاتهم ، ومهما كان حظهم من
الثقافة العربية • ولهذا كل اللغويون العرب يرفضون الأخذ عن ابن
المقفع لأصله الفارسى ، برغم فصاحته وتلقيه اللغة منذ نعومة أظفاره ،

(١) انظر تعليق الدكتور عبده الراجحي على تفضيل قريش : اللهجات
العربية في القراءات القرآنية ص ١ وما بعدها •

في حين كانوا لا يتورعون عن الاستشهاد بكلام الأطفال والمجانين • قال السيوطي : « قال ابن دريد في أماليه : أخبرنا عبد الرحمن عن عمه الأصمعي قال : سمعت صبيحة بجمي خرية (بين البصرة والكوفة) يتراجزون فوقفت وصدوني عن حاجتي ، وأقبلت أكتب ما أسمع اذ أقبل شيخ فقال لي : أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع » ، وقال : « وكذلك لم أرهم توقروا أشعار المجانين من العرب بل رموها واحتجروا بها » (١) .

٤ — خلطهم الشواهد الشعرية بالشواهد النثرية ، ومحاولة استخلاص قواعد عامة تجمعها مع أنه من المعروف أن للشعر قواعده ونظمه الخاصة التي ينفرد بها •

٥ — أنهم لم يكتروا من الاستشهاد بالحديث مع أنه أهم من الشعر في ميدان البحث اللغوي ، لأنه من النثر الذي لا تحكمه ضرورة من وزن أو قافية ، ولأنه يعطى الباحث اللغوي صورة صحيحة لروح عصره بخلاف الشعر الذي يحتوي على كثير من الصيغ الفنية والعبارات المتكلفة التي تبعده عن تمثيل الحياة العادية وتنثييه عن الروح السائدة في عصره •

٦ — أنهم خلطوا مستويين من اللغة لا يصح الخلط بينهما ، وهما مستوى اللغة الأدبية النموذجية المثلة في القرآن والحديث والشعر والخطب والأمثال ، ومستوى اللهجات العامية المتمثلة في القراءات القرآنية ولغة الخطاب •

٧ — أنهم لم يكونوا على حق في ربطهم الفصاحة بالبداوة ، لأن اللغة بنت الحاجة والاستعمال ، واللغة لا تنثأ في فراغ ، وإنما لتعبر عن

(١) المزهري ص ١٤٠ •

وفي تهذيب اللغة : سمعت صبيحا من بني عقيل يقول لصبي آخر : وجهي زين ووجهك شين • والتقدير : وجهي ذو زين ووجهك ذو شين ، فنعتها بالمصدر • (٢٥٥/١٣) •

تجارب واحتياجات وثقافات معينة • ولا شك أن تجارب البدوى واحتياجاته تختلف عن تجارب الحضري واحتياجاته ، ولذلك ليس من المعقول أن تغنى احدى اللغتين عن الأخرى ، وليس من الحق أن نعد لغة البدوى أرقى من لغة الحضري برغم أنها لا تفى باحتياجاته •

٨ — أن عنايتهم باللهجات العربية كانت ضئيلة ، فهم أولاً قد أبعادوا جزءاً منها من مجال التسجيل اللغوى ، وهم ثانياً لم يكونوا حريصين على تسمية اللهجة ، مما تركنا فى ظلام دامس حين نريد تتبع الظواهر اللهجية الحديثة ونردها الى أصولها القديم • وفرق بين أن نسجل اللهجة وننسبها ، وبين أن نقيم عليها قاعدة تكون نموذجاً لمن يريد أن يحتذى الصواب •

٩ — أن جميع علماء اللغة لم يكونوا يعرفون شيئاً عن اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة ، فنشأ عن ذلك أنهم لم يوفقوا فى بيان المعانى الدقيقة التى يؤديها كثير من الكلمات العربية فى أصل وضعها ونشأ عن ذلك أيضاً وقوعهم فى أغلاط فيما يتعلق بالاستنتاج • كما أن معرفتهم المحدودة باللغات الأجنبية جعلتهم غير موفقين فى رد كثير من الكلمات المعربة الى أصولها الأجنبية •

الفصل الثانى

الدراسات اللغوية عند غير العرب

تمهيد :

ليس من همنا فى هذا الفصل أن نعرض بالتفصيل للجهود اللغوية التى قام بها غير العرب من اللغويين ، وإنما همنا أن نعرض صوة موجزة لأهم هذه الجهود . كذلك ليس من همنا أن نعرض لكل الجهود اللغوية الأجنبية ، وإنما همنا أن نعرض للجهود التى سبقت أو عاصرت الدراسات اللغوية عند العرب . وليس هذا البحث مقصودا لذاته ، وإنما هدفه الأساسى خدمة بحث تال يتناول قضية التأثير والتأثر ، ويناقش احتمالات التأثير الأجنبى على الدراسات اللغوية العربية والعكس .

وسوف نحصر أنفسنا فى الدراسات اللغوية عند الشعوب الدالية وحدها :

- ١ - الهندود *
- ٢ - اليونانيون *
- ٣ - المصريون القدماء *
- ٤ - السريان *
- ٥ - العبرانيون *
- ٦ - الصينيون *

١ - الهندود

ظهرت فى الهند القديمة دراسات اللغة السنسكريتية (لغة الهند الكلاسيكية) على مستوى عال من التنظيم والدقة . ولربما كان الهندود

أسبق — حتى من اليونانيين — في هذا الميدان ، سواء من ناحية الزمن أو ناحية القيمة . وقد أثرت عن الهند دراسات ، في فروع علم اللغة المختلفة تتناول الأصوات والاشتقاق والنحو والمعجم ، كما نتناول كثيرا من مشكلات فقه اللغة ، ويرجع أقدم هذه الدراسات الى فترة مجهولة لنا ، أما أقدم ما وصلنا منها فيرجع الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد .

ويحتاج عرض الدراسات اللغوية عند الهند الى حيز كبير لا يسمح به المقام ، ولذا سنكتفى بإشارات سريعة ، تاركين التفاصيل الى بحث آخر (١) .

أما الدراسة الصوتية عندهم فكانت متنوعة وشاملة لمعظم جوانب هذا العلم . فدرسوا الصوت المفرد وقسموه الى علل وأنصاف علل وسواكن وقسموا العلل الى بسيطة ومركبة ، كما قسموا السواكن بحسب مخارجها . وتوصل الهند الى أثر القفل في انتاج الأصوات الانفجارية ، والفتح في انتاج أصوات العلة والتضييق في انتاج الأصوات الاحتكاكية . وتحدث الهند عن كيفية تسرب الهواء من التجويف الحنجري ، وذكروا أنه اذا فتح ما بين الوترين الصوتيين ينتج النفس واذا ضيق ما بينهما ينتج الصوت ، وصرخوا بأن النفس يحدث في حالة الأصوات الساكنة المهموسة والصوت في حالة السواكن المجهورة أو العلل .

ولم يكتف الهند بالحديث عن الصوت المفرد فتحدثوا عن المقطع ، وكان حديثهم مفصلا بشكل مثير للدهشة . كذلك وضع الهند قواعد دقيقة للنبر في لغتهم القديمة ، واعتبروه من خصائص العلل لا السواكن ، وقسموه الى درجات ثلاث .

(١) انظر كتابنا المطبوع بعنوان « البحث اللغوي عند الهند » وما ذكرناه هنا ملخص عن هذا الكتاب .

ويكفى الهنود فخرا أن تكون جهودهم الصريحة هي الأساس الذى بنى عليه علماء الأصوات المحدثون • يقول بروفير ألن : « إن الاتصال بين الهنود القدماء والمدارس الغربية الحديثة فى دراسة اللغة أشد وأوثق فى مجال الأصوات عنه فى مجال النحو » • ويعترف العلامة فرث الانجليزى أن المدرسة الأصواتية الانجليزية لم تنشأ فى القرن التاسع عشر إلا على أكتاف المعلومات التى قدمها وليم جونز عن النحاة والأصواتيين الهنود •

وأما فى مجال النحو ، فإنه من غير المبالغ فيه أن نقول إن هذا العلم لم يلق من العناية فى أى بلد من بلاد العالم مثل ما لقيه من الهنود • وقد كان فى الهند القديمة ما يقرب من اثنتى عشرة مدرسة نحوية مختلفة ، وأكثر من ثلثمائة مؤلف فى النحو ، ووصلتنا فعلا دراسات تزيد على الألف عدا بعضها أصلى وبعضها شارح •

ويمثل بانينى (١) فترة النضج فى الدراسات النحوية عند الهنود ، ولذا نال كتابه المسمى « الأقسام الثمانية » شهرة غطت على أى مؤلف آخر سبقه أو لحقه • وقد كتب بانينى تأليفه فى شكل قواعد مختصرة ، وبذل فيه جهدا ضخما للتوفيق بين الآراء والاتجاهات المتعارضة التى كانت موجودة حينئذ •

وأهم ما يميز النحو الهندى :

(١) اختلف بدرجة كبيرة فى تجديد زمنه • واشهر الآراء أنه كان موجودا بين عامى ٧٠٠ و ٦٠٠ ق.م ، وقد وصلنا فعلا كتاب بانينى المسمى « Ashtadhyayi » (الأقسام الثمانية) واحتفل به العلماء وترجموه الى لغات عدة • وقد نال عمل بانينى شهادات التقدير من القدماء والمحدثين على السواء ، فقد قال عنه باتنجالى (١٥٠ ق.م) : « انه محيط واسع من العلم » • وقال عنه ماكس مولر : « لا يوجد نحو فى أى لغة يمكن أن يعادل نحوه » • وقال بلومفيلد : « أن نحو بانينى يعد واحدا من اعظم الشواهد القديمة على تقدم العقل البشرى » • وقال روبنس : « بين كل النحاة الهنود يقف اسم بانينى متميزا عن غيره » •

١ — أنه بدأ بجمع المادة اللغوية وتصنيفها ثم انتقل الى استخلاص الحقائق منها • فنقطة البداية في النحو الهندى مختلفة عنها في اليونانى ، الذى بدأ من الفلسفة وحاول أن يطبق القواعد الفلسفية على حقائق اللغة •

٢ — أنه سبق النحو اليونانى في تحديد أقسام الكلام (اسم — فعل — حروف اضرافه — أدوات) •

٣ — أنه حل هذه الأقسام الى عواملها الأولية فميز بين الجذر أو الأصل ، وبين الزيادة أو الحروف التشكيلية •

٤ — عرف النحو الهندى الأعداد الثلاثة : المفرد والمثنى والجمع منذ عصر مبكر •

٥ — قسم النحو الهندى الفعل السنسكرى الى ثلاثة أقسام بحسب الزمن وهى : ماض وحاضر ومستقبل •

وأما الأعمال المعجمية عند الهنود فقد بدأت في شكل قوائم تضم الألفاظ الصعبة الموجودة في نصوصهم المقدسة ، ثم تطور هذا النظام فألحق بكل لفظ في القائمة شرح لمعناه ، ويمكن أن يعتبر هذا العمل من نوع « معاجم الموضوعات » أو « معاجم المعانى » • وبعد ذلك ظهرت كتب لا تقتصر نفسها على ألفاظ النصوص المقدسة ، وأقدم ما وصلنا من هذه الكتب معجم ظهر في القرن السادس الميلادى أو قبله ، مؤلف بوذى اسمه أمارا سنها Amara Sinha وقد ضم هذا المعجم (واسمه Amara Kosa) جزءا ضم كلمات المترادفات ، وجزءا في كلمات المشترك اللفظى ، وجزءا عن الكلمات غير المتصرفة والكلمات المذكرة أو المؤنثة أو المحايدة • ويعيب هذا الكتاب وأمثاله أنه كتب في شكل منظوم ليسهل حفظه وأنه لم يتبع أى ترتيب ييسر اللجوء اليه والعثور على المراد بسرعة ، فيما عدا المشترك اللفظى الذى رتب بحسب الحروف الساكنة في أواخر كلماته • ولا نجد عملا آخر

يستحق الإشارة إليه بعد ذلك سوى معجم كتب في القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو معجم ضخيم رتبت الكلمات فيه أولاً بحسب عدد مقاطعها ثم بحسب الجنس (مذكر ومؤنث) ثم بحسب الحرف الأول •

٢ — اليونانيون

أول عمل لغوى فى اليونان — وقد تم بالطبع قبل وصول أى تسجيلات — كان تطوير نظام هجائى الكتابة فى أوائل الألف قبل الميلاد • وفى هذا النظام الهجائى مثل اليونانيون دلّ الأصوات سواء الساكن منها والعلل ، وفيما بعد مثلوا كذلك النبر برموز خاصة به (١) •

أما التفكير اللغوى فقد بدأ مرتبطاً بالفلسفة *philosophia* وهى علم كان يغطى مجالا أوسع عند اليونانيين القدماء من المصطلح *philosophy* اليوم • ولذلك فإن أسماء اللغويين اليونانيين الأولين هى أسماء فلاسفتهم الأولين • وربما كان أقدم ما وصلنا من أبحاث اليونانيين يرجع الى حوالي القرن السادس قبل الميلاد على أيدي السوفسطائيين • وبعد ذلك نجد سقراط يدلّ برأيه فى بعض مشكلات اللغة ويليه أفلاطون (٤٢٨ ق م الى ٣٤٨ ق م) وأرسطو (٣٨٤ ق م الى ٣٢٢ ق م) (٢) • وربما كان من أهم المشاكل التى لفتت أنظار اليونانيين موضوع اللغة نفسها وهل هى أمر طبيعى أو عر فى ناتج عن اتفاق البشر • وقد خصص أفلاطون جزءاً من محاوراته لمعالجة هذه القضية وعرض وجهتى النظر المختلفتين • كما عالج أصل الكلمات أو موضوع العلاقة بين الاسم والمسمى (٣) • وتطور النقاش بعد ذلك ليصل الى أيدي القياسيين *Analogists* والشذوذيين *Anomalists* ، فقال الأولون إن اللغة فطرية وقياسية ومنطقية ، وقال الآخرون إن عدم

(١) انظر: روبنس «A Short History» ص ١٢ — ١٣ •

(٢) راجع روبنس المرجع السابق ص ١٤ و «On Language» ص ٣ •

(٣) انظر: «On Language» ص ٣ •

أطراء اللغة خير دليل على بطلان الرأي الأول ^(١) . وعلى الرغم من أن أفلاطون لم يسبق آراءه اللغوية بشكل مترابط ، ولم يجمعها في مكان واحد — فقد عده الباحثون رائد الدراسات النحوية اليونانية « وأول فاحص للمشكلات النحوية » ^(٢) . ويعد أفلاطون أول من فرق بين الاسم والفعل كما أنه أعطانا تقسيما ثلاثيا للأصوات يمكن أن يكون : أصوات العلة — الأصوات الساكنة المجهورة — الأصوات الساكنة المهموسة ^(٣) . وأقر أرسطو تقسيم أفلاطون للكلمة الى اسم وفعل وزاد عليها قسما ثالثا سماه رابطة . وذلك أنه شعر أن الأفعال والأسماء تؤدي معاني مستقلة في حين أن سائر الكلمات ليس لها إلا الوظيفة النحوية فقط ^(٤) .

وبعد ذلك انتقلت الدراسات اللغوية الى أيدي الرواقيين Stoics الذين فصلوها عن الفلسفة واعتبرت حينئذ فرعاً مستقلاً تحت الحقل الواسع المسمى Philosophia . وقد تأسست مدرسة الرواقيين على يد Zeno (حوالي ٣٠٠ ق م) ، وأعطى هؤلاء شخصية مستقلة لكل من الأصوات والنحو والاشتقاق ، وإن كان معظم اهتمامهم منصباً على النحو وهذه ، حتى اعتبر بعضهم بدء النحو بمعناه الحديث على أيدي هؤلاء الرواقيين ^(٥) .

وعلى أيدي الرواقيين زيد قسم رابع ثم خامس الى أقسام الكلمة الثلاثة عند أرسطو ، كما قدمت شروح مستفيضة لآراء أرسطو اللغوية . كذلك يبدو أن الرواقيين كانوا أول من درسوا العدد والمطابقة بين الاسم

(١) «On Language» ص ٣ ، وروبنس ص ١٧ وما بعدها .

(٢) روبنس ص ١٤ .

(٣) «On Language» ص ٣ ، و «Greek Pioneers» ص ١٠٧ ، ١٠٩ ،

وانظر : روبنس ص ٣ ، ١٠ .

(٤) «Greek Pioneers» ص ١١٠ و «On Language» ص ٣ — ٤ .

(٥) روبنس ص ٢٧ و «Greek Pioneers» ص ١٠٧ .

والفعل ، وحالات الاسم الاعرابية ، وحالات الفعل من حيث الصيغة والزمن (١) .

وبعد الرواقيين تحول مركز الدراسات النحوية الى الاسكندرية وظهرت مدرسة نحوية كاملة في الاسكندرية خلال القرن الأول قبل الميلاد كما سنعرض فيما بعد .

أما في المجال المعجمي فقد أنتجوا عددا ضخما من المعاجم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن Athenacus قد أقتبس نصوصا من ٣٥ عملا مجمعا فقدت جميعها (٢) . ولكن كثيراً من هذه المعاجم تم إنتاجه في الاسكندرية ولذا نترك الحديث عنها الآن الى مكان آخر . ويعتبر العلماء القرون الأولى بعد الميلاد هي العصر الذهبي للمعاجم اليونانية وبخاصة في مدينة الاسكندرية كما سنتحدث فيما بعد ، ولكن اشتهر من بين المعاجم اليونانية معجم أبوقراط Hippocrate الذي ألفه Glaucus عام ١٨٠ ق م وهو معجم ألفبائي (٣) .

٣ — المصريون القدماء

اتجهت أبحاثهم الى عدة فروع من الدراسات اللغوية ، فدرس بعضهم الآثار الأدبية اليونانية القديمة دراسة فلولوجية ، واتجه بعضهم الى الدرس النحوي ، وفريق ثالث اتجه الى وضع المعاجم . ودارت كل هذه الدراسات حول اللغة اليونانية وتركزت جميعها في الاسكندرية .

أما الدراسة الفلولوجية فقد وجدت في الاسكندرية في وقت مبكر جدا ، وكان الهدف منها تصحيح النصوص المكتوبة وتفسيرها والتعليق

(١) «On Language» ص ٥ ، وروبنس ص ٢٨ .

(٢) مادة Dictionary .

(٣) الجرح ص ١٤ و Haywood ص ٨ .

عليها (١) . وظهرت في القرن الثالث قبل الميلاد شروح على أشعار
هوميروس وغيره من الشعراء . كما وجه اهتمام الى دراسة المفردات
وجمع الألفاظ الصعبة أو الكلمات الشعرية أو التلمعات التي تنتمي الى
لهجات خاصة (٢) .

وأما النحو فنبتغ فيه علماء كثيرين أبرزهم Dionysius Thrax الذي
ألف في النحو كتابا اشتهل — ضمن ما اشتمل عليه — على آراء النحاة
السابقين . ونال كتابه شهرة جعلته المرجع الأول للنحو اليوناني في الألف
والثمانمائة سنة التالية . وقد أكد ديونسيوس العلاقة بين النحو والأدب ،
وأدخل كلية الكلام العامى ، وزاد في أقسام الكلام حتى بلغ بها ثمانية ،
وكان بكل تأكيد تقدما كبيرا بالنسبة لأفلاطون وأرسطو (٣) . ويقول
عنه أحد الباحثين : « إن جزءا كبيرا من نحونا مدين له . لقد كان عماله
فذا في مدرسته لثلاثة عشر قرنا . ويدين له بالفضل كذلك النحاة اللاتين
المقدماء وأهل المعصور الوسطى » (٤) .

ومن أهم التجديدات والاضافات التي قام بها لغويو الاسكندرية
رفضهم بعض أقسام الكلام التي توصل اليها سابقوهم و اضافتهم أقساما
جديدة مثل حروف الاضافة prepositions ومثل الضمير pronoun ،
ومن ذلك فصلهم اسم الفاعل واسم المفعول عن الفعل . وتناولوا الاسم
من حيث التذكير والتأنيث ومن حيث العدد ، وقسموا الفعل باعتبار الزمن
والصيغة ، وغير ذلك كثير .

وهناك نقطة أخرى هامة في نحوهم هي أنهم اهتموا فقط بالاستعمالات

(١) السمران ص ٣٥١ ، ودى سوسير ص ١ .

(٢) السمران ص ٣٥١ .

(٣) «On Language» ص ٥ .

(٤) «Greek Pioneers» ص ١١٢ وانظر : «On Language» ص ٦ .

الموجودة في الشعر والكتابات النثرية وأهملوا ما عداها (١) .

أما في مجال المعاجم فإن أقدم معجم يوناني معروف لنا هو معجم Appollonius السوفسطائي ، وكان موجودا في الاسكندرية في عصر Augustus ويتناول هذا المعجم الكلمات التي استعملها هوميروس (٢) . ولكن العصر الذهبي للمعاجم كان في القرون التي تلت المسيحية ، وشمل ذلك معاجم كثيرة عرفنا من أسمائها :

١ — معجم Orion (٣٩٠ — ٤٦٠ م) ، الخاص بالاشتقاق وقد ألفه بمصر .

٢ — معجم Helladius الذي ألفه بالاسكندرية في القرن الخامس وكان ترتيبه ألفبائيا .

٣ — معجم Ammonius وكان معاصرا للسابق ، وقد خصص معجمه للكلمات المتفقة في اللفظ المختلفة في المعنى (٣) .

٤ — معجم اللهجات والسماط المحلية مؤلفه Hesychius (٤) وغير ذلك .

٤ — السريان

احتك السريان باليونان منذ القدم ، واختلطوا بهم إما بحكم الجوار أو بحكم خضوعهم لسلطان اليونان . ولذلك ترجم السريان النحو اليوناني الى السريانية ، ونقلوا الى لغتهم كثيرا من الكلمات والاصطلاحات .

(١) «Greek Pioneers» ص ١١١ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف البريطانية Dictionary .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الجرح ص ١٤ .

وليس هذا فحسب ، بل قلدوا اليونان في نحوهم حين وضعوا قواعد لغتهم .

أول نحوى سريانى نعرفه هو يوسف الأهوازي أستاذ مدرسة نصيبين المتوفى سنة ٥٨٠ م (حوالى ٤٢ ق هـ) ، فقد كتب رسالة في النحو ، وترجم كتابا في نحو اللغة الميرنانية اسمه : « الصناعة النحوية » الى السريانية . كذلك اخترع بعض علامات للشكل ، وكتب رسالة عن الكلمات التى تكتب بصورة واحدة ولكن يتعدد معناها .

وقد عثر على قطعة من كتاب ألف في القرن السادس في نحو السريان يتضح منها أن مؤلفها اتبع قواعد النحو اليونانى .

وفي القرن السابع ظهر نحاة سريان ينسب الى بعضهم ابتداع نقط الإعجام في السريانية واختراع الحركات . ويعد يعقوب الزهاوى الذى ولد حوالى عام ٦٤٠ م (١٩ هـ) ، وتوفى عام ٧٠٨ م (٩٠ هـ) أول من وضع نحوا شاملا ، وقواعد للغة السريانية مبنية على النحو اليونانى ، وقد عثر على قطع من هذا الكتاب ^(١) فيها حديث عن الصوائت (الحركات) وقد استعارها من الميرنانية ووضعها أولا بين الحروف ، ثم قام بوضعها فوق الحرف أو تحته في المكان الذى يوجد به فراغ ^(٢) . ووجدت طريقة ثالثة أقدم من هاتين ، وهى وضع نقطة أو نقطتين ، بطريقة رأسية أو أفقية أو مائلة ، فوق الحرف أو تحته ، ليوضح شكل حركة من الحركات .

وفي القرنين الثامن والتاسع ظهرت بعض مصنفات في نحو السريانية ، وكان أشهر المؤلفين فيه أبو زيد حنين بن اسحاق المتوفى سنة ٨٧٣

(١) كان الباحثون يظنون أن عمل يعقوب قد فقد الى أن عثر وليم ريت على صفحات قديمة منه في المتحف البريطانى ، ثم عثر على قطع أخرى في البودليانا بأكسفورد .

(انظر : Fragments of the Syriac Grammar : Wight) .

(٢) المرجع السابق ص ٤ . وانظر الاداب السامية للأبراشي ص ٦٣ — ٦٧ .

(١) (٢٦٠ هـ) .

وقد ألف معظم أعماله بالعربية ، وكذلك مترجماته من اليونانية * وقد عرفنا له ثلاثة كتب هي : « النحو السرياني » ، و « المعجم السرياني » ، كذلك كتب حنين رسالة عن المترادفات .

وقد مد حنين ومدرسته في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين المسلمين بكل ما يعرفونه عن العلوم اليونانية سواء أكان طبا أم رياضة أم فلسفة (٢) .

أما في القرن العاشر فنجد أن التأليف بالسريانية قد ضعف ، إذ أصبح معظم المؤلفين يفضلون — حتى في الكتابات الدينية والرسمية — الكتابة بالعربية * وقد فعل ذلك علماء مثل : أبو على عيسى بن اسحاق ابن زرعة (٩٤٣ — ١٠٠٨ م) ، وأبو زكريا يحيى بن عدى (توفي ٩٧٤ عن إحدى وثمانين سنة) (٣) .

٥ — العبرانيون

يبدو أن الدراسات اللغوية العبرية لم تزدهر في فترة ما قبل

(١) في تفصيل الحديث عن نشأة النحو السرياني راجع — الى جانب المرجع السابق — ما يأتي :

A Short History of Syriac Literature

— ١ —

تأليف وليم ريت ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥٠ .

ب — نشأة النحو عند السريان وتاريخ نحائهم تأليف زاكية رشدي ص ٢١٥ — ٢١٧ .

ج — تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدي ، ص ٢٦٦ .

A Short History of Syriac Literature : Wright

(٢)

ص ٢١٢ — ٢١٤ .

وورد في دائرة المعارف البريطانية مادة (Syriac Literature) أن معظم المؤلفات والوثائق ترجمت من اليونانية الى السريانية خلال عدة قرون مكونة جزءا من التراث السرياني . وساهمت هذه الترجمات في تركيب الحضارة الاسلامية فيها بعد حيث كانت الترجمة اسهل من السريانية الى العربية عن الترجمة من اليونانية الى العربية .

(٣) A Short History ص ٢٢٢ .

الاسلام ، وأن أهم الأعمال التى قدمت لم تظهر إلا بعد اختلاطهم بالعرب ، وخوفهم من اندثار لغتهم ، لانصراف الناس عنها وتعلمهم اللغة العربية . يقول كاتب مادة grammar فى دائرة المعارف اليهودية : « إن الحافز لدراسة الفلولوجى العبرى قد قوى بعامل خارجى ، وبالتحديد بالمثال الذى قدمته اللغة العربية . وقد استمرت اللغة العربية تؤثر على علم اللغة العبرى وكان النموذج العبرى هو الذى احتذاه العبرانيون ثم طوروه » . ويقول Hirschfeld : « هناك شراهد مؤكدة أن النفوذ العبرى كان موجودا حتى منذ اللحظة الأولى للنشاط اللغوى العبرى . فإننا نجد الأسماء العبرية للحركات الثلاث الرئيسية هى نفسها الأسماء العربية (الفتحة — الكسرة — الضمة) . وكذلك الكلمة المستعملة للعلّة تعد نقلا حرفيا من العربية (حركة) ^(١) . وينص سعيد الفيومى (ولد فى صعيد مصر ٨٩٢ م ومات ٩٤٢ م) فى مقدمة معجمه على السبب فى تأليفه بقوله : « إن اليهود يعطون اهتماما قليلا للغتنا الفصيحة ، واهتماما أقل للكلمات الصعبة ، وأسلوبهم ملئ بالأخطاء كما أن شعرهم معيب من ناحية القافية ، وغير واضح ، وطاقه » ^(٢) .

ومع هذا دعنا نلقى نظرة على أهم الأعمال التى قدمها اليهود عن اللغة العبرية قبل الاسلام أو بعده حتى القرن الرابع الهجرى :

بدأت دراسة اللغة والنحو فى العبرية لخدمة الكتاب المقدس ثم استقلت ^(٣) وقد أطلق على البداية الأولى للنحو العبرى اسم Masorah وكان اهتمام المشتغلين بها محصورا فى التفرقة بين الصيغ المختلفة للكلمات الموجودة فى الكتاب المقدس ، وربط الأشكال المتشابهة فى مجموعات ، وتسجيل غرائب النص . ولكن عملهم لم يعط أى اهتمام

(١) Literary History of Hebrew ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣ ، ودائرة المعارف اليهودية مادة «Saadia» .

(٣) دائرة المعارف اليهودية مادة «grammar» .

للتقسيمات النحوية ، ولا لحصر الصيغ الموجودة في اللغة العبرية •
وظلت الـ Masorah مزدهرة حتى بعد ظهور علم النحو •

وحتى من قبل نشأة علم النحو وجدت دراسات تتعلق بتصنيف
السواكن والمعلل ، وتقديم النصائح لقارئ النص المقدس ، كما وجد
نظام للنقط ووضعت قواعد للكتابة ، والضبط بالشكل ، وأشير الى
ظاهرة النبر ولو حظت الفروق في أشكالها (١) •

وهناك خلاف كبير حول ما اذا كان شرف البدء بالأعمال النحوية
يرجع الى الربانيين Rabbanites أو القرائين Qaraites ، ولكن يمكن أن
يقال إن القرائين كانوا أكثر اهتماما بالنحو من الربانيين • واستنادا
الى الشواهد التاريخية يمكن القول ان الأحكام النحوية الأولى التي
وصلت إلينا ترجع الى Nissi b. Noah الذي برز في النصف الأول من
القرن التاسع وكانت أعماله مكتوبة بالعبرية ، لأنه من المعروف أن
اليهود لم يستعملوا اللغة العربية لكتاباتهم قبل القرن العاشر
الميلادي (٢) :

وفي القرن العاشر الميلادي نجد عالما كبيرا سبق أن أشرنا الى
اسمه وهو سعيد الفيومي الذي أنتج أعمالا يدخل بعضها في عداد
النحو وبعضها الآخر في عداد المعاجم • والتأثير العربي واضح عليه
لأنه في أول عمل أنتجه ، وكان له من العمر ٢١ سنة ، أشار الى عناوين
مؤلفات الكتاب العرب الذين عالجوا فصاحة الأسلوب •

وتتلخص جهود سعيد الفيومي فيما يأتي :

١ - عمل معجم يسمى 'Agron' ، وقد اجتاز تأليف هذا المعجم

(١) راجع Literary History of Hebrew ص ٥ ، ٦ ، ٩ •

وراجع دائرة المعارف اليهودية مادة «Grammar» •

(٢) Literary History ص ٧ - ٨ •

مرحلتين اثنتين • فقد ظهر أولا في شكل معجم عبري خالص مرتب ترتيبا هجائيا تبعا لبدائيات الكلمات ونهاياتها • وكل مادة كانت توضح باقتباسات من الكتب المقدسة • وكان غرض المؤلف مساعدة الشعراء الدينيين في نظم القصائد من النوع المسمى acrostics ^(١) وفي المثلث على قواف مناسبة لقصائدهم ^(٢) •

ومن سوء الحظ أن قدرا صغيرا منه فقط قد حفظ لنا ، وبذا لا يمكننا أن نكون فكرة كبيرة عن محتوياته • ولكننا نملك المقدمة العبرية التي تعطينا بعض المعلومات الهامة • وفي هذه المقدمة تحدث المؤلف عن موضوعات أساسية مثل تكوين الكلمات من جزئين يعد واحد منهما أساسيا والآخر اضافيا • والجزء الاضافي يقوم بوظيفة الجمعية والملكية والزمن ، في حين يبقى الجزء الأساسي من الكلمة غير متغير •

ويبدو أن سعيد الفيومي قد أحس بنوع من عدم الرضا عن عمله • ولذا نجده فيما بعد يلبسه ثوبا جديدا ويظهره في شكل آخر ، اذ قام بإضافة ترجمة عربية للكلمات موضوع البحث ، كما كتب مقدمة عربية ووضع له عنوانا جديدا هو « كتاب الشعر » •

٢ — تمثلت اهتمامات سعيد فيما بعد في جمعه ارسائل نحوية اثنتى عشرة تحت عنوان « كتب في اللغات » وقد ضاع هذا المجمع فيما عدا بعض اقتباسات منه بقيت في كتاب آخر له شرح فيه « كتاب الخليقة » •

٣ — شرح « كتاب الخليقة » ، وفي هذا الشرح ناقش الأصوات الحلقية guttural في أماكنها المتعددة في الكلمات ، والتغيرات النطقية

(١) هي قصائد اذا جمعت اوائل حروف أبياتها كانت أسما أو جملة .

(٢) Literary History of Hebrew ص ١١ ، ودائرة المعارف اليهودية

مؤادة Saadia .

التي تلحقها حينما ترفض أى نوع من التضعيف • وهو فى بحثه هذا لم يكن مسبوقا ، لأن هذه الأصوات لم يوجه لها اهتمام خاص فى اللغة العربية •

٤ — كذلك أخرج سعيد عملا معجميا ثانيا يتمثل فى قائمة مفرداته للكلمات التى وردت فى الكتاب المقدس مرة واحدة • والمفردات فى هذه القائمة ليست مرتبة بأى شكل وقد أضيفت إليها تعليقات وشروح ، وترجمة عربية لبعض الكلمات (١) •

وهناك معاصر لسعيد الفيومى اشتغل بالنحو هو أبو يوسف القرقسانى Qirqisani ، وقد نتلمذ معه على مدارس بغداد ، وظهرت آثار ثقافته العربية فى أعماله النحوية • وأهم ما تركه عملا نحويان أحدهما تأليف والآخر شرح • وقد اعتبره مؤلف : « التاريخ الأدبى للنحاة المعجميين العبريين » مثلا لأحسن نموذج لمدرسة القرائين ووضعه فى مرتبة تالية لسعيد الفيومى وصف أبحاثه بالدقة والتعمق فى فهم اللغة العبرية (٢) •

وهناك أعلام أخرى يهودية لمعت فى هذا القرن مثل :

داود بن ابراهيم الذى كان من مواطنى مراکش • وقد ألف معجما يشبه معجم سعيد الفيومى ، وقسم الكلمات العبرية الى أربعة أقسام تبعا لعدد الحروف التى اعتبرها أصلية ، بادئا بالكلمات التى تشتمل على أصل واحد • واعتبر المؤلف ما زاد على الأربعة استثناء • وقدم المؤلف الى جانب هذا عملا نحويا ، وقام ببعض الأبحاث المقارنة (٣) •

ميناحيم بن سروق الذى ألف معجما عبريا خالصا رتب مادته ترتيبا هجائيا • ولكن المؤلف فشل فى التعرف على بعض الجذور فرتب كثيرا

(١) Literary History of Hebrew ص ١١ — ١٥ .

(٢) ص ١٦ .

(٣) Literary History of Hebrew ص ٢٠ ، ٢١ .

من الكلمات بحسب صورتها الخارجية • ولهذا فإنك تجد كلمات ذات أصول اشتقاقية متباعدة — تجدها في مكان واحد • وقد أعطى المؤلف في معجمه قائمة بالكلمات ذات الأصل الواحد ، وأخرى بالكلمات ذات الأصاين • وقد تحدث ميناحيم عن حروف الهجاء التي لا تأتي إلا أصلية فقط وعن الحروف التي تأتي أصلية وزائدة • وقد كان ميناحيم من سكان قرطبة وولد عام ٩١٠ ومات عام ٩٧٠ م (١) •

يهوذا بن هيوچ الذي ارتفع بعلم اللغة العبري إلى مستوى علمي رفيع • وقد كان من مواطني فاس ومن تلاميذ ميناحيم السابق ذكره • وبلغ من علو مكانته أن اعتبره بعض المؤرخين أول النحاة العبريين • وقد ساعدته معلوماته العميقة في العربية ودراساتها على التعمق في البحث اللغوي العبري • وقد وصلتنا أجزاء من بعض مؤلفاته (٢) كما وصلنا أحد أعماله كاملاً متمثلاً في ثلاث رسائل كتبت باللغة العربية •

وفي إحدى هذه الرسائل نجد دراسة فونولوجية متقدمة ، تعالج العلل والسواكن والتنغيم والنبر والمقطع • ومن الخصائص الفونولوجية التي ذكرها المؤلف أنه لا توجد كلمة عبرية تبدأ بساكن غير متبوع بعلّة ، كما لا توجد كلمة تنتهي بعلّة • وبلغ من عمق تحليلاته ودقتها أن اعتبره بعضهم صاحب « أول محاولة لوضع قواعد فونولوجية للغة العبرية مؤسسة على أسس علمية » (٣) •

(١) المرجع ص ٢٤ — ٢٦ • ودائرة المعارف اليهودية «Menahem b. Saruq» ، ودائرة المعارف البريطانية «Dictionary» •

(٢) من ذلك قطع من أحد كتبه عثر عليها في ليننجراد ونشرت عام ١٩١٦ • وهي تعالج اشتقاق بعض الكلمات العبرية • كما تفرق بين الكلمات ذات الأصول المختلفة التي تبعدو متفقة في الصورة •

(٣) Literary History of Hebrew ص ٣٥ — ٣٩ •

وقرب نهاية القرن العاشر ظهر عالمان يستحقان الاشارة وهما :

أبو الوليد بن جناح القرطبي الذي ولد في نهاية هذا القرن واشتغل بالطب أولا ثم اتجه لدراسة اللغة العبرية • وقد ألف كتباً كثيرة أشهرها :

(أ) كتاب بالعربية أسماء « كتاب المستحق » وهو ذيل على عمل يهوذا بن حيوج •

(ب) كتاب بالعربية أسماء « كتاب التنبيه » رد فيه اعتراضات خصومه واحدا بعد الآخر ، وعالج فيه بعمق كثيرا من الصيغ الشاذة •
(ج) كتاب ثالث اسمه « رسالة التقريب والتسهيل » ، يعد تعليقات على كتاب ابن حيوج ، ويعالج جزؤه الأول موضوعات فونرولوجية ، وجزؤه الثاني مشكلة الأصول الثلاثية للكلمات ، وجزؤه الثالث الكلمات ذات الأصل الثالث الضعيف (الناقصة) والكلمات المضعفة •

(د) كتاب في النحو اسمه « اللمع » يحتوى على ٤٦ فصلا ويسير على النمط العربى •

(هـ) كتاب اسمه « كتاب الأصول » وهو معجم عبرى باللغة العبرية (١) •

ويلاحظ أنه كتب جميع مؤلفاته باللغة العربية •

وأبو الفرج هارون الذى أتم عملا لغويا ضخما عام ١٠٢٨ م وأسماه « الكتاب الشامل فى الأصول والفروع للغة العبرية » • ويحتوى الكتاب على ثمانية أبواب تعالج الستة الأولى منها مسائل نحوية ، والسابع يشكل معجما ، فى حين أن الأخير يعالج الكلمات الآرامية الموجودة فى الانجيل • وفى الجزء المعجمى كان يأخذ الأصل الثلاثى ويناقشه ويعرض

(١) المرجع السابق ص ٤٠ — ٤٦ • ودائرة المعارف البريطانية مادة «Dictionary» .

معانيه المختلفة واستعمالاته ، ثم بعد ذلك يعيد ترتيب حروف الكلمة بشكل آخر ويفعل ما سبق فعله . وهكذا يقلب الكلمة على احتمالاتها الواردة في اللغة . وله أعمال لغوية أخرى (١) .

٦ — الصينيون

يقول « فيشر » في مقدمة معجمه اللغوي التاريخي : « واذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب » (٢) والذي يهمنا في هذه العبارة ما شهدت به من فضل للصينيين في مجال الدراسة اللغوية . وهذه حقيقة نريد أن نعرضها الآن في ايجاز وتركيز .

ربما كان أول عمل صيني معجمي قديما جدا ، ولكن أول محاولة منظمة للتعريف بالأشكال التعبيرية كانت العمل المسمى Eah Ya الذي يمكن أن يؤرخ بالفترة ما بين ٢٠٠ ق . م وميلاد المسيح . وهو أشبه بمعجم من معاجم المعانى التي توزع الكلمات تحت موضوعات أو معان مختلفة .

Hu Shin

وفي نهاية القرن الأول الميلادي ظهر أول معجم حقيقي وهو معجم Shwo wan لمؤلفه وعلى الرغم من أن هذا المعجم يشرح حوالى ١٠٦٠٠ كلمة فهو ليس معجما شاملا ، بل لا يحتوى حتى على جميع الكلمات التي وردت في مقدمته . وقد كان جل اهتمام المؤلف منصبا على الكلمات التي وردت في النصوص الدينية .

وبعد ذلك ظهر نظام جديد للمعاجم الصينية رتبت فيه الكلمات

(١) Literary History of Hebrew ص ٥٠ — ٥٢ .

وقارن هذا بصنيع الخليل في العين .

(٢) صفحة ٤ .

صوتياً تبعاً لمنطقها • فكل الكلمات ذات الصوت الواحد تعالج معاً في باب واحد بغض النظر عن اختلاف طرق كتابتها • وأول معجم صيني يتبع هذا النظام هو معجم Hu Fa Yen الذي كتب بين عامي ٥٨١ و ٦٠١ م •

وكان للصينيين دراسات صوتية ، لكن يبدو أنهم مدينون في التوصل إليها إلى الهنود الذين نقلوا علومهم إلى الصين على يد الرهبان البوذيين فمنهم عرف الصينيون كيف يصنفون أصوات الكلام تبعاً لمكان النطق (١) •

(١) راجع في كل ما مضى : دائرة المعارف البريطانية مادة «Dictionary» •
«Arabic Lexicography» مؤلفه «Haywood» والدكتور الجرح : المعجم العربي صفحة ١٢ ، ١٣ ، و «General Linguistics» مؤلفه «Robins» ص ٣٧٣ •

وهناك معجم صيني ضخيم ظهر في القرن السادس الميلادي في اثني عشر مجلداً واسمه Yu Pien واسم مؤلفه «Ku Ye Wang» •

الباب الثاني

الدراسات اللغوية عند العرب

الفصل الأول

مرحلة النشأة

لم يؤثر عن العرب أى نوع من الدراسات اللغوية قبل الاسلام ، ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم التى سبق أن تحدثنا عن جهودها ، والتى عرف لبعضها دراسات لغوية راسخة قبل الاسلام بقرون •

ولم يكن البحث اللغوى عند العرب من الدراسات المبكرة التى خفوا لها سرعا ، لأنهم وجهوا اهتمامهم أولا الى العلوم الشرعية والاسلامية وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا الى العلوم الأخرى • يقول السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء معبرا عن الفكرة : إنه منذ منتصف القرن الثانى الهجرى بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوى ، ويؤلفون فى الفقه الاسلامى والتفسير القرآنى • وبعد أن تم تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو ^(١) • ويقول الأستاذ أحمد أمين : « أكثر اللغة كتبت فى العصر العباسى الأول لا قبله » ^(٢) • وحتى ما وجد فى القرن الأول من تأملات نحوية أو محاولات لدراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز اليه اسلاميا ، ولم يقصد لذاته وإنما لاعتباره خادما للنص القرآنى • ومن ذلك محاولة ابن عباس جمع الكلمات الغريبة فى القرآن وشرحها إن صحت نسبة « غريب القرآن » اليه • وكذلك محاولة أبى الأسود الدؤلى لضبط المصحف بالشكل حين استحضر كاتبها وأمره أن يتناول المصحف ، وأن يأخذ صبغا يخالف لون المداد فيضع نقطة فوق

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٧٣ •

(٢) ضحى الاسلام ٢٩٨/١ •

الحرف اذا رآه يفتح شفتيه ، وتحت الحرف اذا رآه قد خفض شفتيه ، وبين يدي الحرف اذا رآه يضم شفتيه • أما اذا أتبع الحرف الأخير غنة فينقط نقطتين فرق بينهما • أما الحرف الساكن فقد تركه (١) . ثم اخترع أهل المدينة بعد ذلك علامة التشديد وهى قوس طرفاه الى أعلى هكذا َ يوضع فوق الحرف المفتوح وتحت المكسور وعلى شمال المضموم • أما الفتحة فكانت توضع داخل القوس والكسرة تحته والضممة فى شماله ثم استغنوا عن النقط فى حالة استخدام الشدة وأصبحت الفتحة مع الشدة هكذا َ ومع الكسرة ِ ومع الضمة ُ (٢) :

ويبدو أن كثيرا من المحاولات الأولى للدرس اللغوى التى تمت فى أماكن مختلفة من العالم كانت مرتبطة بالدين وبالعقيدة • نجد هذا عند الهنود الذين بدأوا بحثهم اللغوى لخدمة نصوصهم المقدسة المسماة بالفييدا • ومثل هذا نجده عند الصينيين اذ كانت دراسة النصوص الدينية البوذية وغيرها سببا فى نشأة المعاجم الصينية ، وكذلك كانت دراسة الشعر الحماسى والدينى فى اليونان دافعا للتأليف اللغوى • وبدأت دراسة اللغة والنحو فى العبرية لخدمة الكتاب المقدس (٣) .

وعلى أى حال فمن المنطقى أن يكون البحث اللغوى عند العرب قد بدأ فى شكل جمع للمادة اللغوية ، أو ما يعرف بمتن اللغة ، وأن يسبق ذلك الدرس النحوى • وقد تم هذا الجمع أولا بطريق المشافهة والحفظ ، ودون منهج معين فى ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها ، أو على حد تعبير

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٠ ، والخط العربى لسهيلة الجبورى ص ٥٦ - ٥٧ ، وقصة الكتابة لجمعة ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) سهيلة الجبورى ص ٥٧ . والخط الممتد يمثل الحرف المشدد .

(٣) انظر «Haywood» ص ٣ . ودائرة المعارف اليهودية مادة «Grammar» .

الأستاذ أحمد أمين : « كان المدونون الأولون للغة في هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لهم سماعها • فقد يسمعون كلمة في الفرس ، وأخرى في الغيث ، وثالثة في الرجل القصير ، وهكذا • فكانوا يقيّدون ما سمعوا من غير ترتيب » (١) • وبعد ذلك اتجه أهل اللغة الى التبويب والتصنيف والتقسيم ورد النظر الى النظر ، كل بطريقته الخاصة التي رآها • فمنهم من صنف المادة اللغوية بحسب الموضوعات ، مثل النباتات والشجر والإبل والخيول والسهل والأنواء ، وأخرجها في شكل رسائل منفصلة • ومنهم من اتجه الى الشعر الجاهلي أو الاسلامي يدونه ويرويه ويشرح مفرداته الصعبة • ومنهم من اهتم بتسجيل بعض الظواهر الخاصة التي لاحظها في بعض القبائل ••• وهكذا • وتوجت هذه الجهود بظهور المعاجم اللغوية المنظمة التي كان رائدها الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) ، وذلك بوضعه معجم « العين » كما سنفصل الحديث فيما بعد •

✓ أما البحث النحوي فلا شك أنه بدأ متأخرا عن جمع اللغة ، لأنه لا يمكن القيام به بدون مادة توضع تحت تصرف النحوي ، وبعبارة أخرى لأن تعديد القواعد ما هو إلا فحص لمادة لغوية تم جمعها بالفعل ومحاولة لتصنيفها واستنباط الأسس والنظريات التي تحكمها • وأفضل ما يعبر عن ذلك قول عبد اللطيف البغدادي في شرح الخطب النباتية فيما نقله السيوطي عنه : « اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطق به العرب ولا يتعداه • وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه ، ومثالهما المحدث والفقير ، فشأن المحدث نقل الحديث برمته ، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ويقيس عليه الاستباه والأمثال » (٢) •

(١) ضحى الاسلام ١/٣٠٢ و ٢/٢٦٣ — ٢٦٤ •

(٢) المزهري ١/٥٩ •

ومع ذلك فنحن نسمع عن إشارات أو أشكام سريعة تمت في وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثاني من القرن الأول الهجري كتلك التي قام بها أبو الأسود الدؤلي أو علي بن أبي طالب أو غيرها •

وفي رأينا أن النحو العربي قد نشأ لنا قبل أن يكون علماً ، أى أن هذه الطرق الخاصة بالأداء في اللغة قد التزمت باطراد في تراكيبها وأساليبها ومرت عليها السنة العرب ، وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية • ولهذا فنحن نستبعد تماماً ما يقوله ابن فارس من أن علم النحو في اللغة العربية قديم بقدمها ، ومنزل كتزييلها ، وأنه كان معروفاً ومدرّساً من قديم ، ثم تدريسيت قواعده وأنت عليها الأيام حتى جاء أبو الأسود الدؤلي فأحيا ما اندثر منه ^(١) : ولا نرى رأيه أن اللغة العربية قد وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون قد عرفت أول ما عرفت وهي ديميزة بضوابط الإعراب المختلفة • وإنما الذي نراه أن اللغة العربية لا بد أن تكون قد مرت بمراحل من الاضطراب وعدم الاستقرار ، وأن هذه الضوابط المتبعة في الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً في التكوين ، كما تسلك اللغة نفسها هذا الطريق ، فكانت في أول الأمر بسيطة غير مطردة ولكنها مع الزمن قد نمت وامت والتمت واستقرت في النفوس على وجه يجعلها ملكة أو ما يشبه الملكة ، وجرى أهلها على سنن ثابتة أو كالثابت في صوغ الكلمة وضبط حروفها وبنائها الجمل والأساليب ^(٢) •

وأغلب الظن أن كثيراً مما نجده في بطون الكتب القديمة ، وفي ثنايا النصوص من أمثلة نحوية وشراهد أدبية خارجة عن تلك القواعد التي وضعها النحاة ثم التمسوا لها تخريجاً — إن هو إلا بقايا من اللغة العربية

(١) الصحابي ص ١٠ •

(٢) اللغة والنحو لحسن عيون ص ٥٧ ، ١٠٨ وعباس حسن : رأى

في بعض الأصول ص ١٢ •

في مراحلها الأولى قبل أن تنضج • فمن ذلك إهمال الإعراب في مثل قول امرئ القيس :

اليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل

وقول الراجز :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى ليلاً ولا أسمع أصرات المطى
ومن ذلك حذف النون من المثنى من غير إضافة كقول الشاعر :

هما خططا إما إسار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر

والمثل العربى القديم : بيضك ثنتا وبيضى مائتا ^(١) • وكذلك إلزام الأسماء الخمسة الألف مثل : مكره أخاك لا بطل •

أما كيف نشأ النحو ؟ ومن أول من ألف فيه ؟ فهذان سؤالان ما نظن أن في أيدينا الإجابة عنهما أو الرد عليهما بحسم • وأغلب الظن أنهما سيظلان معلقين حتى نعثر على مادة جديدة تكشف عن بداية النحو العربى ، وتضع حدا للإرهاصات والتنبؤات حولها ^(٢) • فمن قائل إنه على بن أبى طالب ، ومن قائل إنه نصر بن عاصم ^(٣) • ويختلف من قالوا إن أبا الأسود هو واضع النحو في المباحث له على ذلك ، فيقول بعضهم : إن على بن أبى طالب هو الذى أعز إليه بوضع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل إنه زياد بن أبيه ، ومن قائل إن أبا الأسود فزع بنفسه الى وضع النحو حين سماع قارئنا يقرأ : (لا يأكله

(١) رسالة الغفران ص ٢٩١ ، واللغة والنحو ص ٨٦ ، ٩٤ .
وانظر مغنى اللبيب ١/١٦٧ ، والمدخل الى دراسة النحو لعابدين ص ٣٦ •

(٢) يقول بروكلمان : « يبدو أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائماً محوطة بالغموض والظلام لأنه لا يكاد ينتظر أن يكشف النقاب بعد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفة » (١٢٣/٢) •

(٣) الفهرست ص ٣٩ ، ومدرسة البصرة النحوية ص ٣٢ — ٣٥ •

إلا الخاطئين) أو قارئاً يقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بكسر رسول . وقيل السبب إن ابنته قالت له : (ما أحسن السماء) بضم أحسن تريد التعجب ، ولكنه فهم الاستفهام فقال لها : نجرمها فقالت له يا أبت : إنما أخبرك ولم أسألك فقال لها : إذن فقولى : (ما أحسن السماء) بالنصب ^(١) . وقرئ قصته مع ابنته برواية أخرى إذ يقال إن أبا الأسود دخل عليها في وقدة الحر بالبصرة فقالت له : يا أبت ما أشد الحر (تعنى التعجب ولكنه فهم الاستفهام لأنها رفعت) فقال لها : شهرا ناجر ^(٢) . فقالت له : يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك ^(٣) . وهناك رواية أخرى وردت في الفهرست لابن النديم تقول : « ويقال إن السيب في ذلك أيضاً أنه مر بأبى الأسود سعد وكان رجلاً فارسياً من أهل زندخان كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وأنهم بذلك من مواليه . فمر سعد هذا بأبى الأسود وهو يقود فرسه ، فقال : مالك يا سعد ، لم لا تتركب ؟ قال : إن فرسى ضالع (أراد ظالماً) فضحك به بعض من حضره فقال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا في الاسلام ، ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول ^(٤) . والرواية بصورتها هذه تحمل في طبيعتها بذور الشك فيها ، إذ لا علاقة مطلقاً بين خطأ الرجل (وهو نتيجة عادة كلامية خاصة) وبابى الفاعل والمفعول اللذين قيل إن أبا الأسود قد وضعهما من أجله .

أما رواية من قال إن زياداً هو الذى حرك أبا الأسود لوضع النحو فتمضى قائلة : إن أبا الأسود رفض أولاً ، ففكر زياد في حيلة « فبعث

(١) ضحى الاسلام ٢٤٥/١ .

(٢) في اللسان : شهرا ناجر أشد ما يكون من الحر ويزعم قوم أنها

حزيران وتموز . وناجر رجب ، وقيل صفر .

(٣) من تاريخ النحو للأفغانى ص ١٠ .

(٤) ص ٤٠ .

رجلا يقعد له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئا من القرآن ويتعمد اللحن فقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسوله — بالجر) فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال : عز وجهه الله ؟ إن الله لا يبرأ من رسوله • ثم رجع من فوره الى زياد فقال : يا هذا قد أجبتك الى ما سألت « (١) •

وينقل ابن النديم رواية تدل على أن عليا هو أول من وضع النحو وذلك إذ يقول : « قال محمد بن اسحاق : زعم أدثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلى ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب » (٢) • بل أكثر من هذا يروى ابن الأنبارى نصا دفع به على لأبى الأسود جاء فيه : « الكلام كله اسم وفعل وحرف • فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى • واعلم أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر • • » ثم يمضى ابن الأنبارى قائلا : ثم وضع أبو الأسود بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام الى أن وصل الى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على أمره بضم لكن اليها ، وكلما وضع بابا من أبواب النحر عرضه عليه (٣) •

ولكن ابن النديم يعزى فيذكر رواية أخرى تثبت هذا الموضع لأبى الأسود ، وذلك في فصل عقده بعنوان : « سبب يدل على أن من وضع النحو كلاما أبو الأسود الدؤلى » ذكر فيه أنه رأى بنفسه أربعة أوراق قديمة كتب عليها : « هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود الدؤلى رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر • وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى : وتحتة : هذا خط النضر بن شميل » (٤) :

(١) من تاريخ النحو للأصغاني ، ص ١٠ حاشية رقم ١ •

(٢) الفهرست ص ٣٩ •

(٣) ضحى الاسلام ٢٨٥/٢ •

(٤) الفهرست ص ٤٠ — ٤١ •

وقد تبين من هذا أن السبب الأساسي في وضع النحو — مهما كان واضحه — ما فشا من لحن عقب الفتوحات الإسلامية ، وامتداد آفاق اللغة العربية الى مجالات لم تتح لها من قبل ، وفساد الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجة اختلاطهم بالأجانب • يقول الزبيدي : « لم تزل العرب تنطق على سجيتهما في صدر إسلامها وماضى جاهليتهما حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا عليه أرسالا ، واجتمعت الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية » (١) •

ونلتقط من بين الأمثلة التي ذكرها المؤرخون للحن ما يأتي :

١ — تسكين أواخر الكلمات وترك الإعراب خوفا من اللحن • ومن ذلك ما حكى أن مهدي بن مهمل كان يقول : « حدثنا هشام بن حسان » بالتسكين على ما نقل الجاحظ (٢) •

٢ — الانحراف في نطق بعض الأصوات كنطق الظاء ضادا ، وقد سبق مثاله • وكنطق الصاد سينا ، كما يروى أن عمر بن الخطاب مر برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر : أسبت (يعني أصبت) فقل عمر : « سوء اللحن أشد من سوء الرمي » (٣) • ومثل ذلك ما يروى عن مولى زياد أنه كان ينطق الحاء هاء كقوله « أهدي لنا همار وهش » (أي حمار وحش) (٤) •

٣ — الخطأ في قواعد النحو ، كما يروى أن مؤذنا سمع يقول : « أشهد أن محمدا رسول الله » (بنصب رسول) فقال له أعرابي : ويحك ، يفعل ماذا ؟ وما يروى أن أبا عمرو بن العلاء مر بالبصرة فإذا

(١) عبد العزيز مطر ص ٢٩ عن طبقات الزبيدي •

(٢) ضحى الإسلام ٢٩٥/١ عن البيان والنبين •

(٣) من تاريخ النحو ص ١٠ •

(٤) مطر ص ٣٠ •

أعدال مطروحة مكتوب عليها « لأبو فلان » فقال : يا رب يلحنون ويرزقون ؟ وما يروى أن رجلاً دخل على زياد فقال له : إن أبينا هلك وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا ، فقال له زياد : ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك (١) .

٤ — الخطأ في بنية الكلمة ، كما يقال إن أول لحن سمع بالبادية قريظهم (هذه عصاتى) (٢) .

ولم ينج الحكام والخلفاء من الوقوع في اللحن ، فمنهم من كان يجد ذلك يكابر . ومنهم من كان يخجل ، يحاول إصلاح نفسه وتقويم لسانه ، فمن النوع الأول ما يروى أن بعض الأمراء بالبصرة كان يقرأ : (إن الله وما أنطقه) — بالرفع — فمضى إليه الأخفش ناصحاً فانتهره وقال له : تلحنون أمراءكم (٣) .

ومن النوع الثانى الحجاج بن يوسف الثقفى الذى بلغ من حرصه على ترقى اللحن وتقززه منه أن أبعد يحيى بن يعمر اللبثى لأنه اطلع على لحن له . والمحكاية كما تروىها كتب اللغة والأدب تتلخص فى أن الحجاج سأل يحيى بن يعمر : أترانى ألحن على المنبر ؟ فقال يحيى — خوفاً من سطوة الحجاج وجبروته — الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يروى الشعر فكرر الحجاج سؤاله فقال يحيى : نعم فى آى القرآن ،

(١) من تاريخ النحو ص ١٠ . وهناك أمثلة أخرى كثيرة لهذا النوع كما يروى أن عمر بن الخطاب مر على قوم يرمون بالسهم فلم يعجبه رميهم . ولما أبدى هذا قالوا : اننا قوم متعلمين . وروى أن بشر بن مروان قال لغلाम له : ادع صالحاً فقال الغلام : يا صالحاً فقال بشر : الغ منها ألف . فقال له عمر بن عبد العزيز وكان حاضراً المجلس : وأنت فزد على ألف الف .

(٢) مطر ص ٢٩ . ومن أمثله كذلك أن رجلاً قال لأعرابى : كيف أهلك ، بكسر اللام . فقال : صلباً . لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد السؤال عن أهله وعياله .

(٣) من تاريخ النحو ص ١٨ .

فقال الحجاج : فذاك أشنع • وما هو ؟ قال : تقول : « قل إن كان
آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم • • • أحب إليكم من
الله ورسوله » (برفع أحب) وصحتها أحب (بالنصب) • فقال : والله
لن تسمعنى ألحن بعد ذلك وأبعده الى خراسان ^(١) • ومن هذا النوع
أيضاً — وإن اختلف سلوك كل — عمر بن عبد العزيز الذى لحن لحنة
فنبه إليها فحبس نفسه فى منزله ومعه من يعلمه العربية • ولم يخرج
على الملأ إلا وهو أفصح الناس ^(٢) ، ويروى كذلك أن عبد الملك
ابن مروان — وإن لم يكن قد عرف عنه اللحن فإنه كان يتجنبه ويتوقاه
ولهذا حين سئل : « لماذا عجل الشيب الى رأسك يا أمير المؤمنين »
قال : « شيبتنى مواقف الخطابة وتوقع اللحن » •

ويرى الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس أن جميع الأمثلة التى ذكرها
العروضيون للإقواء ليست من قبيل الخطأ الموسيقى ، وإنما من قبيل
الخطأ النحوى • وعلى هذا فهو يرى أن حسان بن ثابت كان ينشد :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير
كأنه قصب جفت أسافلها مثقب نفخت فيه الأعاصير

بكسر الأعاصير حفاظاً على النعمة الموسيقية وإن كسر بذلك قواعد
النحو (وليس بالرفع كما زعم النحاة حفاظاً على قواعد النحو) ، وإن
كان يكسر النعمة الموسيقية) ؛ اذا لا يعقل أن الشاعر الفحل يخطئ فى
الموسيقى وإن عقل أن يخطئ فى النحو • واذا علمنا أن الإقواء كان شائعاً
بين الشعراء الجاهليين ^(٣) خرجنا من ذلك بأن اللحن كان شائعاً

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم أنيس لطلبة اليسانس بكلية دار العلوم
(غير مطبوعة) ومن تاريخ النحو ص ١٢ •
(٢) من تاريخ النحو ص ١٤ •

(٣) يروى عن أبى عمرو بن العلاء قوله : فصلان من العرب الشعراء
كانا يقويان النابغة وبشر بن أبى خازم (ديوان النابغة الذبياني ص ٢٩) وفى
التصيدة الثانية من ديوان النابغة اقواءان على الأقل (البيتان ٢ ، ١٧) •

حتى بين فصحاء العرب وشعرائهم (١) .

ومهما كان الأمر فقد تمت أوليات الدراسة النحوية في مدينة البصرة وشمل ذلك الفترة التي تمتد من أبي الأسود الى الخليل بن أحمد . وكانت الكوفة وقتها مشغولة برواية الأشعار والأخبار (٢) .

وفي الفترة بين أبي الأسود والخليل نجد أسماء — مجرد أسماء — وبعض اقتباسات ، ولكن لم تصلنا أى مؤلفات وإن ذكرت التراجم وجودها . ومن أشهر نحاة هذه الفترة يحيى بن يعمر ، وعنبسة الزيل ، وميمون الأقرن ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله ابن أبى اسحاق الحضرمى .

وليس هناك شىء يذكر بالنسبة للثلاثة الأوائل ، أما الثلاثة الأواخر فقد ذكرت عنهم كتب التراجم ما يأتى :

عيسى بن عمر الثقفى : كان نحويا بصريا كفيفا مولعا بالغريب : ومما حكى عنه فى ذلك أنه سقط ذات يوم فى سوق البصرة مغشيا عليه ، ودار الناس حوله يقولون مصروع ؛ فبين قارىء ومتعوذ من الجان . فلما أفاق من غشيته أمر الناس أن ينفضوا من حوله بلغة حشاها بالغريب من الألفاظ وحوشى الكلام ، حتى إن الناس لم يفهموه ، إذ قال لهم : ما لكم تكأكنتم على كتكأكنكم على ذى جنة . افرنقوا عني . فعلق أحد الحاضرين بقوله : « إن جنيته تتكلم الهندية » (٣) : ويروى كذلك أنه أنكر وديعة أودعت عنده فضرب بالسياط ليقر فجعل يقول : « والله إن كانت إلا أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك » (٤) . وقد مات عام ١٤٩ هـ

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم أنيس .

(٢) نشأة النحو ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) وفيات الأعيان ١٥٤/٣ - ١٥٦ .

(٤) نشأة النحو ص ٦١ (ط ثانية) . والسفط كالجواق والجمع

أسفط .

بعد أن ترك كتابين هما « الجامع » و « المكمل » وقد مدحهما الخليل
ابن أحمد بقوله :

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

ولكن فقد الكتابان ولم يعثر لهما على أثر (١) .

أبو عمرو بن العلاء : أحد الأعلام في القراءة والنحو واللغة وأحد
القراء السبعة . قال فيه أبو عبيدة : « أعلم الناس بالآراءات العربية
وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملاء بيته الى السقف » . وقال
فيه يونس : « لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان
ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله » . وقد اختلف
هو وعيسى بن عمر في قولهم : « ليس الطيب إلا المسك » فكان أبو عمرو
يجيز الرفع وعيسى بن عمر ينكره . وحين تحاجا قال أبو عمرو له :
« نمت وأدلىج الناس . ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ولا تميمي
إلا وهو يرفع » . واحتكما الى الأعراب فشهدوا لأبي عمرو بن العلاء .
وتوفي أبو عمرو عام ١٥٤ هـ (٢) .

عبد الله بن أبي اسحاق : سئل عنه يونس فقال : « هو والنحو سواء »
ويقال إنه أول من علل النحو وإنه كان شديد التجريد للقياس والعمل به
يقول ابن سلام : « كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل » ،
ويقول ابن الأنباري : « إنه أول من علل النحو » . ولم ينقل عن ابن أبي
اسحاق كتاب في النحو ، لكنه عني بالهمز ومهر فيه حتى كان له فيه كتاب .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) الأنغاني : من تاريخ النحو ص ٣٦ - ٣٧ ، ونشأة النحو

(ط الثانية) ص ٦٢ ، و « يونس » للدكتور حسين نصار ص ٢٢ .

ويروى أن والى البصرة في عهد هشام بن عبد الملك جمع بين أبي عمرو ابن العلاء وابن أبي اسحاق فقال أبو عمرو : « فغلبنى ابن أبي اسحاق بالهمز يومئذ » ^(١) وبالرجوع الى فهرس كتاب سيدييه (إعداد هاربن) يتبين أن نقول سيدييه عن ابن أبي اسحاق تبلغ تسعة فقط * ولكن جاء جانب من شهرة ابن أبي اسحاق من كثرة تتبعه ازلات الشعراء وتلمسه الأخطاء لهم * وأشهر من تعرض له الفرزدق ، وله معه قصص كثيرة * فمن ذلك أنه سأله يوما : كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان باثالباب ما نفعل الخمر ^(٢)

فقال الفرزدق : « فعولان » فرد ابن أبي اسحاق : ما كان عليك لو قلت فعولين ؟ فقال الفرزدق : لو شئت أن أصبح لـبحت ، ونهض فلم يعرف أحد مراده * وتعرض ابن أبي اسحاق للفرزدق في شعر له ، إذ عابه على قوله :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحتة أو مجلف ^(٣)

وسأله : علام رفعت ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينزؤك علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا ثم هجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مالى

فقال له ابن أبي اسحاق وهذا أيضا خطأ ، كان يجب أن تترل موال لا موالى ^(٤) .

(١) نشأة النحو (ط ثانية) ص ٥٨ ، والنحو العربى لمـازن المبارك ص ٤١ ، ٥٣ .

(٢) يخرج البيت على أن « كان » تامة .

(٣) المسحت : المستأصل ، والمجلف : الباقي منه شيء .

(٤) محاضرات الدكتور أنيس ، ونشأة النحو (ط ثانية) ص ٥٩ — ٦٠ .

ولم تنقل كتب التراجم بماذا رد عليه الفرزدق مع أن توجيه البيت قريب ، فمن العرب من يجر مثل هذه الكلمات بالفتح الظاهر لأنها ممنوعة من الصرف وعليه قول المهذلي •

أبيت على معارى فاخرات بهن ملوب كدم العباط

وقراءة (والفجر وليالى عشر) — بفتح ياء ليالى •

وكانت وفاة ابن أبى اسحاق عام ١١٧ هـ •

أما أول عمل نحوى كامل يصل إلينا فهو « الكتاب » لسيبويه ، وسنفرده ببحث خاص فيما بعد • وليس معنى أن « الكتاب » هو أول عمل وصلنا أنه أول عمل على الإطلاق ، فقد سبق أن تحدثنا عن جهود نحوية قبل سيبويه وسبق أن ذكرنا أسماء لبعض مؤلفات لم تصلنا •

وندع مرحلة النشأة لتتحدث بشيء من التفصيل عن جهود العرب في مجالات البحث اللغوى المختلفة ، وهو ما سيكون موضوع الفصول التالية إن شاء الله •

ولما كان البحث اللغوى قد تنوع وتعددت جوانبه فمن الأوفق أن نتناول موضوعات كل فرع على حدة وذلك على النحو التالى :

١ — الأصوات •

٢ — النحو والصرف •

٣ — المعجم •

٤ — الدراسة المقارنة •

الفصل الثانى

الأصوات

عرض تاريخى :

يعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات أول خطوة فى أى دراسة لغوية ، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة ، ونعنى بها الصوت ، الذى هو المادة الخام للكلام الانسانى .

أما اللغويون العرب فلم ينظروا الى الدراسة الصوتية هذه النظرة ، ولم يعالجوا الأصوات علاجاً مستقلاً ، وإنما تناولوها دائماً مختلطة بغيرها من البحوث وذلك على النحو التالى :

١ - بالنسبة للنحاة ، خصصوا بعض الأبواب فى كتبهم النحوية لهذه الدراسة . بل إنهم لم يقصدوها لذاتها وإنما لغيرها ، حيث اعتبروها تمهيداً أو مدخلاً لدراسة ظاهرة الإدغام ، والحديث عن قواعد الإعلال والإبدال ، وقد عالج سيبويه « الإدغام » فى نهاية مؤلفه « الكتاب » ، وعالج الأصوات قبل معالجة الإدغام . وعالج المبرد فى كتابه « المقتضب » الإدغام فى الجزء الأول وقدم له بدراسة للأصوات ومخارجها . كذلك أنهى الزجاجى كتابه « الجمل » بالحديث عن الإدغام ، ومهد لحديثه ببعض الأفكار الصوتية . وأنهى الزمخشري كتابه « المفصل » بالإدغام ، وقدم بين يديه دراسة للأصوات .

٢ - كما تناول أصحاب المعاجم بعض المشكلات الصوتية ، إما فى مقدمات معاجمهم ، أو فى ثنايا المادة اللغوية المجموعة . ويبدو الاهتمام بهذا النوع من الدراسة فى المعاجم التى رتبت صوتياً واتبعت نظام

التتاليات « كالعين » للخليل ، أو اتبعت نظام التقليلات فقط « كالجهرة »
لابن دريد •

وقد تارلت مقدمة « العين » — التى شغلت ست عشرة صفحة من
المطبوعة — المشكلات الصوتية الآتية :

(أ) ترتيب الحروف ترتيبا صوتيا (١) •

(ب) اعتبار الراء واللام والنون ذات وضع خاص وتسميتها بحروف
الذلاقة لأنها تخرج من ذلق اللسان أى بطرف أسلته • ولا ينطق طرف
اللسان إلا بالراء واللام والنون فقط • وألحق الخليل بهذه الثلاثة ،
الفاء والباء والميم لأنها شفوية ، وسحب عليها اسم الذلاقة كذلك (٢) •

(ج) تصريحه بأن حروف الذلاقة الستة أسهل من غيرها فى النطق ،
ولذا تكثر فى أبنية الكلام ، ولا يخلو أى بناء رباعى أو خماسى منها
أو من بعضها (٣) •

(د) الحديث عن مخارج الأصوات تفصيلا (٤) •

وسوف نتعرض لبعض هذه المباحث بشىء من التفصيل فيما بعد •

أما مقدمة « الجهرة » فقد تنازلت جميع النقاط السابقة مع شىء
من التفصيل فى بعضها ، وزادت ما يأتى :

(١) صفحة ٥٣ •

(٢) ص ٥٧ ، ٥٨ •

(٣) ص ٥٨ ثم ص ٦٤ و ٦٥ على التوالى •

(٤) نفس المرجع •

(أ) الحديث عن نسج الكلمة العربية والحروف التي تأتلف أو لا تأتلف كقولها : لم تأتلف المقاف والمكاف في كلمة واحدة إلا بحواجز ، وكذلك حالهما مع الجيم — التقاف والذاف جاءت مع الشين — جمعوا بين الشين والجيم — الحروف إذا تقاربت مخرجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت — الحاء والعين لم تأتلف في كلمة واحدة — أصعب الحروف حروف الحلق .

(ب) حديثها عن الأصوات الرخوة والأصوات المطبقة والأصوات الشديدة .

(ح) تعرضها لنسبة تردد الأصوات في اللغة العربية ، وادعائها أن أكثر الحروف استعمالاً في اللغة هي الراء والياء والماء ، وأقلها الظاء ثم الذال ثم الشاء ثم الشين ثم المقاف ثم الخاء ثم الذون ثم السلام ثم الراء ثم الباء ثم الميم (١) .

✓ ٣ — وأسهم علماء التجويد والقراءات القرآنية بقدر لا يجحد في هذا الميدان ، ولسنا نملك لهذا الفرع من الدراسة مادة كافية تسمح بتتبع تطوره ووصف المراحل التي قطعها حتى صار علماً مستقلاً هو « علم التجويد » وكل الذي يعرف عن مراحله الأولى أن أول من استخدم هذه الكلمة في معنى قريب من معناها هو ابن مسعود الصحابي الذي كان ينصح المسلمين بقوله : « جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات » ، والذي يروى البخاري ومسلم في شأنه أنه كان يتفنن في تجويد القرآن وترتيله وأن الرسول ﷺ كان يجهد بالبكاء حينما يسمع القرآن بترتيل ابن مسعود . ويبدو أن نشأة علم التجويد جاءت استجابة لدعوة ابن مسعود ، ومحاربة لتقنين قواعد القراءة اقتضاء لأثره . وأصبح كل كتاب للتجويد — فيما بعد — يشتمل — إلى جانب قواعد

التلاوة — على فصل في مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها كما فعل ابن الجزري في كتابه « النشر » الذى خصص سبع صفحات فيه لهذا المبحث وحده . كذلك ترددت في كتب التجويد مصطلحات صوتية مثل الإسمام ، والإسباع ، والاختلاس ، والمد ، والتفخيم ، والترقيق ، ونحوها (١) .

٤ — وأدلى المؤلفون في إعجاز القرآن وعلوم البلاغة بدلوهم مع الدلاء وزودونا بمعلومات صوتية ذات قيمة . ومعظم ما شغلهم من مباحث الأصوات يتعاقب بتناثر الأصوات وتآلفها ، واستتبع هذا بالضرورة حديثا عن مخارج الحروف وهل للقرب أو البعد المخرجى دخل في التناثر أو التآلف ونضرب على هذا النوع من الدراسة الأمثلة الآتية :

(أ) يقول الرماني (القرن الرابع) في رسالته « النكت في إعجاز القرآن » ، بعد أن قسم الكلام الى متناثر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا : « والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله . والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف . فكلما كان أبعد ، كان أشد تلاؤما وأما التناثر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد وذلك أنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان . ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك » (٢) .

(١) Tajwid as a Source in Phonetic Research صفحات ١١٤ ، ١١٨ ،

١١٩ . وانظر دائرة المعارف الإسلامية — مادة تجويد ، ففيها معلومات عن موضوعات فن التجويد وان لم يكن فيها أى ترتيب تاريخى .

(٢) ص ٨٧ — ٧٩ .

(ب) ويقول ابن سنان الخفاجى (القرن الخامس) فى كتابه « سر الفصاحة » : « وقد ذهب على بن عيسى ^(١) أيضا الى أن التنافر أن تتقارب الحروف فى الخارج أو تتباعد بعدا شديدا ، وحكى ذلك عن الخليل ابن أحمد ويقال إنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب المقرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه وكلاهما صعب على اللسان • والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال » • ويعقب ابن سنان الخفاجى على ذلك بقوله :

« والذى أذهب أنا إليه •• لا أرى التنافر فى بعد ما بين مخارج الحروف وإنما هو فى القرب • ويدل على صحة ذلك الاعتبار كلمة (ألم) فهى غير متنافرة ، وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة الخارج — لأن الهمزة من أقصى الحلق ، واليم من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرا لأنه على غاية ما يمكن من البعد •• ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجهها فى التنافر على ما ذكره • فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على أن التنافر فى قرب الحروف دون بعدها لأنهما لا يكادان يردان فى الكلام إلا فرارا من تقارب الحروف . وهذا الذى يجب عندى اعتماده ، لأن التبع والتأمل قاضيان بصحته » ^(٢) •

(ح) وقد ضمن أبو بكر الباقلانى (القرن الرابع) كتابه المشهور « إعجاز القرآن » كثيرا من المباحث الصوتية ، بقصد تحليل آيات القرآن ، وبيان أوجه إعجازها • وأهم ما ذكره فى هذا الخصوص يتعلق بفواتح السور وسر اختيار حروف معينة لها • ومن ذلك قوله :

١ — « إن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا

(١) هو الرمانى .

(٢) ملحق بمجموعة « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن » ص ١٦٩ •

(م ٧ — البحث اللغوى)

وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة • وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليبدل بالمذكور على غيره • والذي تنقسم إليه هذه الحروف ... أقسام • • فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة • فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والماء والخاء والكاف والشين والطاء والفاء والتاء والصاد والسين • وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة • وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان « (١) •

٢ — ويذكر الباقلاني كذلك أن نصف حروف الحلق (العين والحاء والهمزة والماء والخاء والغين) وهو العين والحاء والماء قد ورد في هذه الفواتح • وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف حلق • كما يذكر أن نصف الحروف الشديدة (الهمزة والقاف والكاف والجيم والتاء والذال والطاء والباء) وهو الطاء والقاف والكاف والهمزة مذكورة في جملة تلك الحروف : وكذلك نصف الحروف المطبقة (الطاء والضاد والصاد والظاء) وهو الطاء والصاد مذكور في الفواتح « (٢) •

٣ — ويقول عن البدء بحروف (ألم) : « لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلقا ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة ، لأنها تأخذ في الشفة ، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاها بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين » (٣) •

٤ — كذلك شارك أصحاب الموسوعات الأدبية في هذا الحقل ، وعلى

(١) ص ٦٦ •

(٢) ص ٦٧ — ٦٨ •

(٣) ص ٦٨ — ٦٩ •

رأسهم الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » * ونكتفى بضرب بعض الأمثلة من بيان الجاحظ باعتبارها تمثل هذا النوع من البحوث :

(أ) مما تعرض له الجاحظ عيربِ النطق سواء كانت ناتجة عن سرعة أو سبب عضوى ، أو لثغة ، أو لكنة أجنبية •

أما العيب الناتج عن السرعة فقد سماه الللف ، وعرفه بأن يدخل المتكلم الكلام بعضه في بعض •

وأما العيب الناتج عن سبب عضوى مثل سقوط بعض الأسنان فقد مثل له الجاحظ بخطيب اسمه الجمحى أصاب في خطبته ، ولكنه كان نازعا بعض أسنانه فكان في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة • ونقل الجاحظ في مكان آخر ملاحظة لمحمد بن عمرو الرومى عن سقوط جميع الأسنان وهى « قد صحت التجربة ، وقامت العسيرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها ، وخالف أحد شطريها الشطر الآخر » •

أما اللثغة فقد عالجها الجاحظ في شيء من الاستفاضة ، وتعرض للحروف التى تدخلها ، وذكر أنها أربعة هى القاف والسين واللام والراء فلثغة القاف تكون بقلبها طاء ، والسين بقلبها ثاء ، واللام بقلبها ياء أو كافا ، والراء بقلبها ياء أو عينا أو ذالا أو ظاء .

وتعرض الجاحظ كذلك للكنة التى تبدو في كلام الأعجمى اذا نطق اللغة العربية كنطق السندى الجيم زايا ، والنبطى الزاى سينا والعين همزة (١) •

(ب) كذلك تناول الجاحظ نسج الكلمة العربية ، وعدم اجتماع

(١) ٣٤/١ — ٣٨ ، ٥٨ ، ٧٠ — ٧٤ . وانظر كذلك ص ١٥ . وتعرض الجاحظ كذلك لجملة من ميوب النطق مثل التمتة والحبسة والعقلة والحكة والتلثم •• (انظر : بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ ص ٦١ ، ٦٢) .

بعض الحروف مع بعض ، وذلك في قوله : « فأما اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الطاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الطاء ولا السين ولا الصاد ولا الذا ل . » وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجرى « (١) » .

(ح) وينقل الجاحظ الزعم أن الياء واللام والألف والراء أكثر الحروف ترددا من غيرها ، وأن الحاجة إليها أشد ، ثم يعقب بقوله : « واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل ، وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فإنك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد » (٢) .

ومنهج الجاحظ في هذه التجربة الصوتية يعد أحدث منهج متبع الآن ، وهو أخذ عينة من المادة اللغوية المدروسة ثم استخلاص النتائج منها والانتها بتعميم الحكم .



وأول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابن جنى المتوفى عام ٣٩٢ هـ في كتابه « سر صناعة الإعراب » (٣) الذي تناول الموضوعات الصوتية الآتية :

- ١ — عدد حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها .
- ٢ — بيان الصفات العامة للأصوات وتقسيمها باعتبارات مختلفة .
- ٣ — ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير يؤدي الى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف .

(٢) ٢٢/١ .

(١) ٦٩/١ .

(٣) رجعنا الى تحقيق مصطفى السقا للجزء الاول . وقد حقق الكتاب كاملا ونشر مؤخرًا في دمشق بتحقيق الدكتور حسن هنداوى .

٤ — نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد ورجوعها الى تأليفه من أصوات متباعدة الخارج (١) . ويقول ابن جنى في مقدمة كتابه : « وأذكر أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها ، وانقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها ، وشديدها ورخوها ، وصحيحها ومعتلها ، ومطبقتها ومنفتحتها وساكنها ومتحركها .. الى غير ذلك من أجناسها . وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة . وأذكر أيضا الحروف التي هي فروع مستحسنة والحروف التي هي فروع مستقبحة ، والحركات التي هي فروع متولدة عن الحركات كتولد الحروف عن الحروف . وأذكر أيضا ما كان من الحروف في حال سكونه له مخرج فإذا حرك أفلقتة الحركة وأزالته عن محله في حال سكونه » (٢) :

✓ ويجدر بنا ونحن نتحدث عن ابن جنى أن ننبه الى شيئين اثنين :
(أ) أن ابن جنى كان أول من استعمل مصطلحا لغويا للدلالة على هذا العلم مازلنا نستعمله حتى الآن وهو « علم الأصوات » (٣) .

(ب) أن ابن جنى يعتبر الرائد في هذه الدراسة ، وكان على حق في قوله في كتابه : « وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع » (٤) .

وسوف نعرض فيما بعد نتفا من آراء ابن جنى الصوتية .

وأخيرا نشير الى عمل لابن سينا الفيلسوف المشهور يدخل تحت الدراسة الصوتية وهو رسالته « أسباب حدوث الحروف » التي طبعت بالقاهرة عام ١٣٣٢ هـ بتحقيق محب الدين الخطيب ، وفي طهران عام

(١) مقدمة المحققين ص ١٤ .

(٢) مقدمة المؤلف ص ٣ . وانظر التفكير الصوتي منذ العرب ص ٤ .

(٤) ص ٦٣ .

(٣) ص ١٠ .

١٣٣٣ هـ (١) ، وفي بيروت عام ١٩٦٢ بتحقيق فؤاد حنا ترزى ، وفي دمشق عام ١٩٨٣ . والرسالة — بالاضافة الى مقدمتها — مقسمة الى الفصول الستة الآتية :

١ — الفصل الأول سبب حدوث الصوت .

٢ — الفصل الثانى جعل عنوانه « سبب حدوث الحروف » ، وفيه يتحدث عن مخارج الأصوات ومحابسها .

٣ — وخصص ابن سينا الفصل الثالث لتشريح الحنجرة واللسان .

٤ — وفي الفصل الرابع يعالج ابن سينا الحروف العربية ويبين كيفية صدور كل حرف منها ويصف العملية العضوية مع كل حرف وصفا مفصلا .

٥ — أما الفصل الخامس فقد خصه ابن سينا لأصوات سمعها في لغات أخرى غير العربية مثل السنين الزائفة والزاي السينية والزاي المظائية والفاء التشبيهية بالباء .

٦ — وأنهى ابن سينا رسالته بفصل فريد بين فيه كيفية انتاج هذه الأصوات بحركات غير نطقية ، كالشين التى تسمع « عن نشيش الرطوبات » والطاء التى « تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان » (٢) .

(١) مقدمة التحقيق لطبعة دمشق . وقد ترجمت الى الانجليزية والروسية والالمانية كما اعيد طبعها في طهران عام ١٣٤٩ .

(٢) أصوات اللغة عند ابن سينا للدكتور ابراهيم أنيس في أماكن متعددة ، الى جانب الرسالة نفسها . وقد ولد ابن سينا عام ٣٧٠ أو ٣٧٣ أو ٣٧٥ هـ في قرية أفشنة قرب بخارى ، وتوفي عام ٤٢٨ هـ في همدان ، بعد أن ترك ما يزيد على مائتين وخمسين مؤلفا من بينها أربعة مؤلفات في اللغة والنحو .

آراء ابن سينا الصوتية :

(١) طبيعة الصوت :

تناول ابن سينا طبيعة الصوت في رسالته « أسباب حدوث الحروف » ، وفي كتابه « الشفاء » في فصل السمع • وقد انتهى الى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي :

١ — وجود جسم في حالة تذبذب •

٢ — وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب •

٣ — وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات .

وهو نفس ما انتهى اليه المحدثون من علماء الأصوات •

وقد عبر ابن سينا عن العنصر الأول باشتراط وجود قرع أو قلع « أما القرع فمثل ما تقرر صخرة أو خشبة فيحدث صوت • وأما القلع فمثل ما قلع أحد شقى مشقوق عن الآخر ، كخشبة تنحى عليها بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولا » • واشترط لإحداث القرع أو القلع صوتا أن يكون كل منهما بقوة معينة « فإن قرعت جسما كالصوف بقرع لين جدا لم تحس صوتا • بل يجب أن يكون للجسم الذى تقرعه مقاومة ما ، وأن يكون للحركة التى للمقروع به الى المقروع عنف صادم • • وكذلك اذا شققت شيئا يسيرا وكان الشيء لاصلا به لم يكن للقطع صوت البتة » (١) •

وعبر عن العنصر الثانى ، وهو وجود وسط ناقل للذبذبات بقوله : « أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أى سبب كان » ، وقوله : « وهذا الشيء الذى فيه هذه الحركات شيء

(١) الشفاء ص ٨٢ ، وأسباب حدوث الحروف ، الفصل الأول .

رطب سيئال لا محالة ، إما ماء ، وإما هواء • فيكرن مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجرى مجراه ، إما قليلا قليلا برفق ، وإما دفعة على سبيل تمرج أو انجذاب بقوة • فقد وجب أن هاهنا شيئا لابد أن يكون موجودا عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء ، أو ما يجرى مجراه » (١) •

أما الجسم المستقبل للذبذبات فقد تحدث عنه في كتابيه المشفاء وأسباب حدوث الحروف ، وذلك في قوله في الأول : « فإذا انتهى التمرج من الهواء أو الماء الى الصماخ ، وهناك تجويف فيه هواء راكد يتمرج بتموج ما ينتهي اليه ، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت — أحس بالصوت » (٢) • وفي الثانى : « ثم ذلك الموج يتأدى الى الهواء الراكد فى الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة فى سطحه » (٣) •

ومن اللافت للنظر كذلك أن ينتبه ابن سينا الى قابلية الأذن لإدراك الأصوات بمعدلات معينة للتردد والتوتر لها حد أدنى وحد أعلى ، وأن ينتبه الى أن زيادة شدة الصوت عن مقدار معين تسبب الأذى والإزعاج للسامع ، وذلك فى قوله : « القرع الشديد يحدث صوتا يضر السمع » وقوله : « والتموج الفاعل للصوت قد يحس حتى يؤلم » • بل يصرح ابن سينا بقدرة الأصوات الشديدة على تحطيم الأشياء « فإن صوت الرعد قد يعرض منه أن يدك الجبال ، وربما ضرب حيوانا فأفسده • وكثيرا ما يستظهر على هدم الحصون العالية بأصوات البوقات » (٤) •

(١) الشفاء ص ٨٣ ، وأسباب حدوث الحروف — للفصل الأول •

(٢) ص ٨٤ •

(٣) الفصل الأول •

(٤) الشفاء ص ٨٣ ، ٨٤ •

(ب) مخرج الصوت الإنساني وصفاته :

يستخدم ابن سينا للتعبير عن انتاج الصوت لفظ الحبس ومشتقاته * أما كلمة المخرج فيبدو أنه يستخدمها للإشارة الى مجرى الهواء أو طريقه الذى يكون إما نحو الأنف أو الفم * وقد تردد فى كلامه ألفاظ المخرج والمخرج والحبس والحاجن والمحسوس والمحابس * .

ويرى ابن سينا أن الذى يميز الحرف (الصوت) عن الصريف (الصوت) جملة عوامل منها :

١ — اختلاف نقطة التحكم فى مجرى الهواء « بسبب اختلاف الأجرام التى يقع عندها وبها الحبس والإطلاق ؛ فإنها ربما كانت ألين ، وربما كانت أصلب ، وربما كانت أبيض ، وربما كانت أرطب * . وقد يكون الحابس أصغر وأعظم ، والمحسوس أكثر وأقل ، والمخرج أضيق وأوسع ، ومستدير الشدال ، ومستعرض الشكل مع دقة ، والحبس أشد وألين ، والضغط بعد الإطلاق أحفز وأسلم * » (١) .

٢ — اختلاف حال التمرج (بعد أن ذكر أن نفس التموج إنما يفعل الصوت) : « وأما حال التمرج فى نفسه من اتصال أجزائه وتماسها ، أو تشظيها بها فيفعل الحدة والثقل . أما الحدة فيفعلها الأولان ، وأما الثقل فيفعله الثانيان » (٢) .

ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الحدة والثقل بأحد تفسيرين :

أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير الى درجة الصوت pitch لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل * فأجزاء الموجة فى الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة * .

(١) اسباب حدوث الحروف — الفصل الثانى .

(٢) السابق — الرواية الأولى من طبعة ايران .

الأمر الثانى أن ابن سينا فى هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفا على طبيعة الجسم المقروء • فهو فى حالة اتصال أجزائه وتماسكها ، أى حين تكون ذات كثافة كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حادا على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالخشب مثلا يكون ثقيلًا (١) •

٣ — اختلاف طريقة التحكم فى الهواء عند نقطة الانتاج (الحبس) • وقد ذكر ابن سينا فى هذا الخصوص طريقتين هما :

أ — الحبس التام للصوت •

ب — الحبس غير التام للصوت •

وقد عبر عن هذين بقوله : « والحروف بعضها — فى الحقيقة — مفردة ، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها اطلاق دفعة • وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع اطلاقات (٢) •

وهنا نلاحظ أن ابن سينا يستعمل المصطلحين : مفردة ومركبة فى مقابل مصطلحي سيبويه : شديدة ورخوة ، والمصطلحين الحديثين : انفجارية (وقفية) واحتكاكية •

وقد فرق ابن سينا بين الحروف المفردة والحروف المركبة قائلا : « وهذه المفردة تشترك فى أن وجودها وحدوثها فى الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق • وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكن بالحبس ، وزمان الإطلاق ليس يسمع فيه شئ من هذه الحروف لأنها لا تمتد ألبتة ، إنما هى مع إزالة

(١) أصوات اللغة عند ابن سينا ص ١٧٨ ، ١٧٩ •

(٢) أسباب حدوث الحروف — الفصل الثانى •

الحبس فقط • وأما الحروف الأخرى فإنها تشترك في أنها تمتد • • في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق (١) •

وقد قسم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) الى نوعين :

أ — مفردة (على الإطلاق) •

ب — مفردة من وجه •

أما المفردة على الإطلاق فهي : الباء والطاء والجيم والدال والطاء والقاف والكاف والهمزة •

وأما المفردة من وجه فهي : الضاد واللام والميم والنون •

وقد أصاب ابن سينا في هذه التفرقة بين النوعين ، واعتباره الحبس في الأصوات الأربعة الأخيرة حبسا جزئيا في مكان يصحبه تسريح في مكان آخر • فالضاد — كما يذكر القدماء — « إن شئت تَنَلَفَتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر » ، وكلام سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين • واللام — على حد تعبير سيبويه — صوت منحرف جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة •

والميم والنون صوتان شديدان عند سيبويه يجرى معهما الصوت ، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك •

وقد اعتبر بعض المتأخرين (ابن جنى والزمخشري وابن الجزري وغيرهم) النون والميم واللام (مع حروف أخرى) ضمن الحروف المتوسطة ، أو بين الشديدة والرخوة •

وأما الحروف المركبة (الاحتكاكية) فلم يذكرها ابن سينا بالاسم

مكتفياً بذكر مقابلاتها المفردة (الوقفية) « ولك أن تعدّها عدداً » .
وبعملية إسقاط للحروف المفردة يتبين أن المركبة عنده هي : الثاء —
الحاء — الخاء — الذال — الراء — الزاي — السين — الشين —
الصاد — الضاد — العين — الغين — الفاء — الهاء .

ويبقى تعليق على صوت الراء . فإذا كان التقسيم الثنائى الى
شديد ورخو لم يستطع أن يشملها ، فاختصها اللغويون باسم « المكرر »
(وإن اعتبروها نوعاً من الشديد) فإن مصطلح « المركب » عند ابن سينا
يمكن أن يشملها بسهولة ، لأن شرط التركيب في الصوت أن « يمتد في
الزمان الذى يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق » ، وهو ما ينطبق على الصوت
المكرر : الراء ، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية .

ج — أصوات العربية :

خص ابن سينا أصوات اللغة العربية بفصل في رسالته ، هو الفصل
الرابع الذى عنوانه « فى الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب » .
وقد عالج ابن سينا فى هذا الفصل الأصوات صوتاً صوتاً على الترتيب
التالى :

الهمزة — الهاء — العين — الحاء — الخاء — الغين — القاف —
الكاف — الجيم — الشين — الضاد — السين — الصاد — الزاي —
الطاء — التاء — الدال — الثاء — المذال — الظاء — اللام —
الراء — الفاء — الباء — الميم — النون — الواو — الصامتة — الياء
الصامتة — المصوتات : الألف الصغرى والكبرى — الواو الصغرى
والكبرى — الياء الصغرى والكبرى .

وأول ما يلفت النظر فى ترتيب ابن سينا ما يأتى :

١ — تفريقه بين السواكن والمعلل ، وتسميته الأولى صوامت
والثانية مصوتات .

- ٢ — تفريقه بين نوعين من الواو والياء • فنوع أدرجه في الصوامت ، ونوع أدرجه في المصوتات •
- ٣ — تفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى) •
- ٤ — اتباعه الطريقة العربية التى ترتب الأصوات من الداخل الى الخارج •

ويتميز ترتيب ابن سينا بما يأتى :

- ١ — عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جنى . وإن وضع الألف مع أصوات الحلق من أخطاء اللغويين القدماء ، وإن حاول بعضهم الدفاع عنه •

- ٢ — تقديم القاف على الجاف مخالفا فى ذلك سيبويه •

- ٣ — إبعاد الواو والياء الى ما بعد الانتهاء من الصوامت •

- ٤ — تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) الى ذيل القائمة •

فكان ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت ثم أثباه المصوتات ثم المصوتات •

- ٥ — وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما لاشتراكهما فى صفة الأنفية •

- ٦ — أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر • ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد فى معجمه العين •

أما حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها فنجد فيه تفصيلا دقيقا لا نجده فى كتب اللغويين • وقد أعانه على ذكر الحركات العضوية ، وعلى تحديد العضلات والمفاصل المشتركة فى انتاج الصوت

خبرته العملية الواسعة بتركيب جسم الانسان ويتشريح أعضائه • ومن أمثلة ذلك قوله :

١ — أما الهزمة فإنها تحدث عن حفز قوى من الحجاب وعضل الصدر للهواء كثير ، ومن مقاومة الطرجهالى ^(١) الحاصر زمنا قليلا لحفز الهواء ، ثم اندفاعه الى الانقلاع بالعضلة الفاتحة وضغط الهواء ممّا •

٢ — وأما الحاء وإن شاركت العين فإنها تخالف العين في هيئة المخرج وفي الحبس وفي القوة وفي جهة مخلص الهواء • فإن الفرجة بين الغضروفين السانلين تكون أضيق ، والهواء يندفع أميل الى قدام ، ويصدم حافة التقعير الذى كان يصدمه هواء العين عند الخروج • وتلك الحافة صلبة والمنفع فيها أشد فيقصر الرطوبة ويميلها الى قدام ••

٣ — وأما الثاء فتخرج باعتماد من الهواء عند مريض الناء بلا حبس وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الخلل أضيق فيكون صفيّر قليل مع القلع •

وكان الثاء سين تلعفيت بحبس فترج مسلك هوائها الصفار •

٤ — وحدوث اللام بحبس من طرف اللسان رطب غير قوى جدا ، ثم قلع الى قدام قليلا ، والاعتماد فيها على الجزء المتأخر من اللسان المماس لما فوقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان • وليس الحفز للهواء بقوى • ولو كان الحفز والشد قويا خرج حرف كالطاء .

٥ — وإن كان طرف اللسان متعرضا للموضع الذى يمسسه في اللام من غير مس صادق ، ولا المتصاق رطوبة ، ثم عرّض حافته بالعضلتين المطولتين تعريضا أقوى من تعريض الطرف نفسه ، وحمل عليه الهواء حتى نفذه وأرعده كما يفعل الريح بكل لين متعرض له متعلق

(١) هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة في تشريح ابن سينا .

من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء ، وسمح التكرير الذى فيه
للارتعاد قدما •

٦ — وأما الميم فإن الحبس فيها تام وبأجرام من الشفة أيسر
وأخرج • وليس تسريب الهراء مع القلع الى خارج الفم كله ، بل يصرف
بعضه بحفز قوى الى التجويف الذى فى آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دويًا ،
ثم يطلقان معاً •

وقد فطن ابن سينا الى وجود أثر سمعى يصاحب نطق بعض
الأصوات كالزاي والذال والغين •• (وهو ما سماه اللغويون بالجهر)
وحاول تفسيره من الناحية العضوية • وعلى الرغم من أن تفسيره تعوزه
الدقة العلمية فهو أقرب الى القبول من تفسير اللغويين • يقول سيبويه
معرفًا الصوت المجهور بأنه « حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع
النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت » ونفس
التعريف بالفاظه نجده عند ابن جنى وغيره •

أما ابن سينا فيقول عن صوت الزاي مفرقا بينه وبين السين
والصاد : « وأما الزاي فإنها تحدث أيضا قريبا من الموضع الذى يحدث
فيه السين والصاد • ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض ، وما بعده
أرفع وأقرب من سطح الحنك كالمماس بالعرض أجزاء دون أجزاء •
ولكنها أقل أخذا فى الطول مما يأخذه المقرب من سطح الشجر والحنك
فى السين • والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان
وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصغير • وأما فى سائر الأشياء
فهو كالسين • ويكاد للاهتزاز الذى يقع فى الزاي أن يكون تكريرا
كالتكرير الواقع فى الراء » •

ويقول عن صوت الغين : « ويكون الاهتزاز فى تلك الرطوبة أكثر
منها فيما سلف (مع الخاء) » • ويقول عن الذال إنها « تفارق الناء فى
الاهتزاز » •

ومعنى هذا أن ابن سينا قد فطن الى وجسود اهتزاز يصاحب نطق الزاى والذال والغين .. وأن هذا الاهتزاز فى تكراره يشبه التكرار الواقع فى المرء * وهذه نقطة قدسب فى صالحه * ولكن الشئ الذى يؤخذ عليه هو عدم اهتدائه الى العضو المهتز * إذ جعله ابن سينا سطح اللسان ، أو سطح الحنك أو الرطوبة ، مع أنه فى الواقع المرتان الصوتيان فى منطقة الحنجرة * ويبدو أن وجود المرتين الصوتيين فى موضعهما المذكور لم يهتد إليه القدماء ، ولذا لم يرد لهما ذكر فى الكتب الطبية والمنشريحة العربية * نعم قد ورد فى كتابات ابن سينا وغيره مصطلح « الجسم الشبيه بلسان المزمار » أو « الشئ الذى يسمى لسان المزمار » أو « الجسم المعروف بلسان المزمار » كما ورد فى كتابات ابن سينا أن آلة الصوت « الحنجرة والجسم الشبيه بلسان المزمار ، وهى الآلة الأولى الحقيقية ، وسائر الآلات بواعث ومعينات » (١) .

وذكر ابن النفث أن لسان المزمار « هو الآلة الأولى فى الصوت ، ويسمى بهذا الاسم لأنه يشبه لسان المزمار فى شكله وفعله ووضعه .. فإنه موضوع فى الحنجرة فى الموضع الذى يوضع فيه لسان المزمار فى المزمار .. وقد جعل له الفعل الذى للسان المزمار فى المزمار وهو التلحين » (٢) ولكن ليس من السهل التسليم بأنهما يريدان بلسان المزمار المفرجة التى بين الأوتار الصوتية كما يرجح الدكتور أنيس (٣) * وأغلب الظن أنهما يريدان به ما يقابل المصطلح الأجنبى epiglottis وهو مصطلح يطلق على الغضروف المنرد أعلى غضاريف الحنجرة .. الذى يقع فى مقدمة الحنجرة وخلف جذر اللسان مباشرة مشكلاً جداراً أمامياً منحرفاً لدخل الحنجرة ... ويقوم لسان المزمار بالفصل بين الهواء والغذاء أثناء البلع وذلك باندفاعه الى أسفل تبعاً لحركة جذر اللسان والعظم

(١) انظر القانن ص ٣٩٤ ، والعمدة فى الجراحة ص ١٠٢ .

(٢) العمدة ص ١٠٢ .

(٣) الأصوات اللغوية ص ١٤٤ .

اللامى ليغلق مدخل الحنجرة (١) . ومما يدل على أن هذا هو المراد بلسان المزمار ، وليس الفرجة التى بين الأوتار الصوتية ما ورد فى كتاب « العمدة » من أن جالينوس سماه « طبق الحنجرة » وما ورد فيه من أنه « حال ازدراد الطعام وشرب الشراب بنطبق الجميع ويحيط بالحنجرة من داخل غشاء ملبس عليها جميعها » (٢) .

وعلى هذا يكون تفسير الجهر عند ابن سينا تفسيراً متاربهاً إذ ربطه بالاهتزاز ، ولكن يظل غير دقيق لعدم اهتدائه للعضو الأساسى فى ظاهرة الجهر وهو الوتران الصوتيان .

كذلك تحدث ابن سينا عما سماه سيبويه بالإطباق ، وما يمكن تسميته كذلك بالتفخيم ، وهو الوصف الذى تتميز به الأصوات : ص — ض — ط — ظ .

وقد أشار سيبويه الى الإطباق بقوله (٣) : « أما المطبقة فالصا والصاد والطاء والظاء . وهذه الحروف الأربعة اذا وضعت لسانك فى مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن الى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه الى الحنك . فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك الى موضع الحروف » وأشار إليه ابن جنى بقوله : « والإطباق أن ترفع ظهر لسانك الى الحنك الأعلى مطبقاً له » (٤) .

ولكننا نجد ابن سينا يتميز عليهما برصفه التفصيلى المعتمد على تحديد ما يلحق الأعضاء المشاركة فى النطق من تعديلات . فحين يتحدث عن الصاد يقول : « ويحدث فى اللسان كاللتعير حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوى » . وحين يتحدث عن الطاء يقول بعد أن حدد مخرجها

(١) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .

(٢) العمدة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) الكتاب ٤/٤٣٦ .

(٤) سر الصناعة ٧٠/١ .

وربطه بمخرج التاء والذال : « لكن الطاء يحبس في ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم .. وتقع وسط اللسان خلف ذلك الحبس ليحدث هناك للهواء دوى عند الإخراج ، ثم يقلع ويكون الحبس بشد قوى »
وحين يفرق بين التاء والطاء يقول : « وأما التاء فيكون مثله في كل شيء إلا أن الحبس بطرف اللسان فقط » * فهنا نجد لأول مرة حديثاً عن تقع اللسان مع الأصوات المفخمة ، وعن اشتراك جزءين من اللسان في عملية نطقها ، وهو ما لم نجده بهذا الوضوح عند اللغويين القدماء (١) .

بعض النتائج الصوتية التي توصل إليها العرب :

كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية تشهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة الى عصورهم ، بل حتى بالنسبة للعصر الحديث ، برغم ما فيه من إمكانيات هائلة لم تنتج للقدماء ، من آلات وأجهزة للتصوير والتسجيل وتحليل الأصوات وغيرها * ويكفي العرب فخرا في مجال الأصوات أن يشهد لهم عالمان غربيان كبيران هما برجستراسر الألماني ، وفيرث الإنجليزي * يقول الأول : « لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند ... والعرب » (٢) * ويقول الثاني : « إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية » *

أما أهم النتائج الصوتية التي توصل إليها العرب فهي باختصار :

١ - وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية رتبت أصواتها بحسب المخارج ابتداء من أقصاها في الحلق حتى الشفتين * وقد وضع

(١) تجد تطابقا بين ما قاله ابن سينا وما يقوله المحدثون : فالدكتور ابراهيم أنيس مثلا يقول عن الطاء : « في حالة النطق بالطاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه » (الأصوات اللغوية ص ٤٧ ، ٤٨) *

(٢) التطور النصوي ص ٥ .

الخليل بن أحمد أول أبجدية من هذا النوع عرفت بها اللغة العربية تشتمل على تسعة وعشرين رمزا ، وسار فيها على النحو التالي :

ع ح ه خ غ — ق ك — ج ش ض — ص س ز — ط د ت —
ظ ث ذ — ر ل ن — ف ب م — و ا ي همزة (١) .

ولكن سيبريه في كتابه قد خالف أستاذه مخالفاً جريئة ، إذ رتبها على النحو التالي : همزة ا ه ع ح غ خ ك ق ض ج ش ي ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ث ف ب م و .

أما ترتيب ابن جنى فقد جاء مرافقا — في معظمه — لترتيب سيبيويه ، فيما عدا وضعه القاف قبل الكاف ، وتأخيره الضاد الى ما بعد الياء (٢) .

٢ — تحدث العرب عن أعضاء النطق وسموا كلا منها مثل الرئة والحنجرة والحلق واللسان والشفتين ، وقسموا الحلق الى أقصى ووسط وأدنى ، واللسان الى أصل وأقصى ووسط وظهر وحافة وطرف (٣) .

وتحدثوا عن مخارج الأصوات بطريقة تفصيلية ، وصنفوا الأصوات بحسب المكان الذي يتم فيه التحكم في الهواء الخارج من الرئتين . وقد حصر الخليل المخارج في ثمانية (٤) ، وبعضهم حدد مخارج الأصوات بطريقة أدق فوصل بالرقم الى ستة عشر أو سبعة عشر مثل سيبيويه وابن دريد وابن جنى وعلماء التجويد (٥) .

وقد شبه ابن جنى مجرى الهواء في الحلق والنفث بالنأي قائلا : « إذا وضع الزامر أنامله على خروق النأي المنسوقة ، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه » فكذلك

(١) العين للخليل ٥٣/١ .

(٢) سر صناعة الاعراب ٥٠/١ — ٥١ .

(٣) دروس في علم الأصوات العربية لكانتينيرو ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) العين للخليل ٦٥/١ .

(٥) سر صناعة الاعراب ٥٢/١ ، ٥٣ ، وجمهرة ابن دريد ٨/١ .

إذا قطع الصوت في الحلق واللفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استعمالنا هذه الأصوات المختلفة » (١) :

٣ — توصل العرب الى أن طريقة التحكم في مجرى الهواء هامة في إنتاج الصوت • وقد قسموا الأصوات على أساسها الى شديدة ورخوة ومتوسطة • وفسروا الشديد بأنه الحرف الذى يمنع الصوت من أن يجرى فيه ، والرخو بأنه الذى يجرى فيه الصوت • ووضعوا قائمة بأصوات كل نوع بطريقة يرافقهم عليها في جملتها التحليل المصرتى الحديث (٢) •

٤ — فصل العرب الأصوات المطبقة عن غيرها ، وهى الأصوات المفخمة التى يشترك مؤخر اللسان في النطق بها ، وذكروا أنها هى المصاد والضاد والطاء والظاء (٣) •

٥ — اهتمدى العرب الى وجود رنين معين يصحب نطق الأصوات المجهورة ، ولذا قسموا الأصوات من حيث وجود هذا الرنين أو عدم وجوده الى مجهورة ومهموسة ، ووضعوا لنا قائمة بكل نوع (٤) • وقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنه سأل سيبويه عن الفرق بين المهموس والمجهور فقال له : « المهموس اذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك فيه . ثم كرر سيبويه التاء بلسانه وأخفى فقال : ألا ترى كيف يمكن ؟ وكرر الطاء والذال وهما من مخرج التاء فلم يمكن • قال وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل الى تبين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر • فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجرى في الحلق • • أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخرجها • • والدليل على ذلك أنك اذا أخفيت همست بهذه الحروف ولا تصل الى ذلك في المجهور • • » (٥) •

(١) سر صناعة الاعراب ٩/١ •

(٢) المرجع ٦٩/١ ، ٧٠ ، وجمهرة ابن دريد ٨/١ ، وكنتينو ص ٣٥ ، ٣٦ •

(٣) جمهرة ابن دريد ٨/١ •

(٤) سر صناعة الاعراب ٦٨/١ ، ٦٩ •

(٥) الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ، ص ٨٩ نقلا عن مخطوطة

دار الكتب لشبرج السمراني لكتاب سيبويه •

ويعلق الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس على عبارة سيبويه بقوله :
إنها تتضمن آراء قيمة في الدراسة الصوتية تتفق مع أحدث النظريات
الحديثة الى حد كبير * فسيبويه يرشدنا هنا الى وسيلة أخرى لتمييز
المهموس من المجهير وذلك عن طريق إخفاء الصرت ، وأنه يمكن هذا
الإخفاء في المهموسات دون أن تفقد معالمها * أما الإخفاء في المجهورات
فيترتب عليه أن الحروف تضعيف صفتها المميزة فلا نسمع الدال دالا حينئذ
وإنما نسمع صوتا آخر هو التاء * * وكذلك يحدثنا سيبويه عما يسمى
بصرت الصدر ويراه صفة مميزة للمجهور * ولعل هذا الصوت هو صدى
الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة (١) .

٦ — قسم العرب الأصوات الى صحيحة ومعتلة على أساس اتساع
المخرج مع العلة دون الصحيحة . واهتدوا أيضاً الى السمات الخاصة
التي تميز بعض الأصوات ، مثل اللام التي وصفوها بأنها حرف منحرف ،
والراء التي وصفوها بأنها حرف مكرر (٢) * كذلك ميزوا في أصوات العلة
بين المفتحة والألف من ناحية ، والكسرة والياء والضمة والواو من ناحية
أخرى يقول ابن جنى : « والحروف التي اتسعت مخرجها ثلاثة : الألف
ثم الياء ثم الواو * وأوسعها وألينها الألف ، إلا أن الصوت الذي يجرى
في الألف مخالف للصوت الذي يجرى في الياء والواو * والصوت الذي
يجرى في الياء مخالف للصوت الذي يجرى في الألف والواو * والعلة في
ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال أما الألف
فتجد الحلق والفم معها منفتحين * * وأما الياء فتجد الأضراس معها
سفلا وعلوا قد اكتفت جنبتي اللسان وضغطته * * وأما الواو فتضم لها
معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس » (٣) :

٧ — تحدث العرب عن أطوال أصوات العلة وقسموها الى قصيرة

(١) الأصوات اللغوية ص ٩٠ .

(٢) سر صناعة الاعراب ٨/١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٣) سر صناعة الاعراب ٨/١ ، ٩٠ .

وطويلة وأطول • يقول ابن جنى « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى الألف والواو والياء • فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الكسرة والفتحة والضمة • فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو • وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة • وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة • ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتى هن توأم كوامل قد تجدهن فى بعض الأحيان أطول وأتم منهن فى بعض ، وذلك قولك : يخاف وينام ويسير ويطير ويقوم ويسوم • فتجد فيهن امتدادا واستطالة ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولا وامتدادا وذلك نحو يشاء •• وتقول مع الإدغام شاية ودابة » (١) •

ولكن تبقى فكرة ابن جنى فى البعضية غامضة حيث « لم يقل لذا ما اذا كان الفرق بين حرف المد والحركة معتبرا بالثلث أو النصف أو بأى كسر آخر » (٢) •

٨ — ومن الدراسات الصوتية التى قدمها العرب حديثهم عن ائتلاف الحروف وكيفية بناء الكلمة العربية • وقد لاحظ الخليل أن اللغات تختلف فى ذلك ، وما قد يتلاءم مع أمة ربما لا يتلاءم مع أمة أخرى • ولاحظ أيضاً أن الأذن العربية قد تستسيغ أصواتا معينة لا يستسيغها غيرها ، وأن اللسان العربى قد ينطق بتركيب خاص لا ينطق به لسان غيره ، وأن العرب كانوا يابون تأليفا خاصا من الكلمات لا ياباه غيرهم ، مثل إيائهم اجتماع واوين أول الكلمة ، والابتداء بالساكن ، واجتماع حرفين ساكنين •

كذلك تحدث الخليل وسيبويه عما يسمى بالانسجام الصوتى مثل

(١) المرجع ص ١٩ ، ٢٠ •

(٢) التنكير الصوتى عند العرب ص ١٦ •

إبدال السين صادًا في كلمة مثل السويق ، وإبدال الصاد زايًا في بعض اللغات إذا كانت الصاد ساكنة وبعدها صوت مجهور مثل « يصدق » التى ينطقها بعضهم « يزدق » • وعلا هذه الظاهرة بقولهما : « ليكون عمل اللسان من وجه واحد » • ويعنيان بذلك الاقتصاد في الجهد العضلى • وذلك نظرية يقرهما عليها علم اللغة الحديث ، ومن نادى بها Andre Martinet إذ صرح بأن التغييرات الصوتية الهامة في اللغة ترجع أساساً إلى الميل إلى استعمال الوسائل الفونيمية في اللغة اقتصادياً ، وبطريقة سهلة بقدر الإمكان •

تعقيب :

ولنا على آراء العرب الصوتية الملاحظات الآتية :

١ — أننا إذا تصفحنا الكتب العربية التى عرضت للأصوات وصفاتها وأسمائها ، وجدنا أصحابها مقلدين لا مجددين وتابعين لامتبوعين • فهم لم يزيدوا على ما وضعه الخليل وسيبويه إلا قليلاً • بل إنك لتجد العبارة هى العبارة وحتى الغموض هو الغموض • ونتبع تعريف « المجهور » بعد سيبويه نجده هو تعريف سيبويه برغم ما فيه من إبهام وتعقيد • • فسيبويه يعرفه بأنه « حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت » والتعريف بحروفه في سر صناعة الإعراب لابن جنى وكذا في شرح مفصل الزمخشري (١) •

٢ — عدم توحيد المصطلحات بينهم وغموض بعضها • ومن ذلك « الحروف المصمتة » (٢) و « الشجرية » و « المتفشية » • ومن ذلك استخدام سيبويه مصطلح الإطباق في مقابل مصطلح الخليل : الاستعلاء • واستخدام ابن جنى « المقطع » وابن سينا « المحبس » بمعنى « المخرج » •

(١) الأصوات اللغوية ، ص ١٢٠ •

(٢) الجهرة ٧/١ ، ١٣ •

٣ — أهمل العلماء العرب دراسة النبر إهمالا تاما ، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتبين مواضع النبر في العصور الإسلامية الأولى .

ولعل سر هذا الإهمال أن النبر ليس فونيميا في اللغة العربية .

٤ — أهمل العلماء العرب دراسة المقاطع وأشكالها وأجزائها إهمالا تاما .

٥ — افترض اللغويون العرب وجود حركة قبل أصوات العلة الطويلة من جنسها فزعموا وجود فتحة قبل الألف في « قال » وكسرة قبل الياء في « يرمى » وهذا خطأ ، لأنه ليس هناك فتحة ولا كسرة ، لأن الألف نفسها هي الحركة والياء نفسها هي الحركة ، ولكن كلا منهما حركة طويلة .

٦ — عدم تمثيلهم أصوات العلة القصيرة في الكتابة أول الأمر ، ثم تمثيلهم لها في فترة متأخرة برمز تثبت فوق الصرّت الساكن أو تحته (١) أى مع النظرة إليها باعتبارها أصواتا ثانوية ، على الرغم من أنها أكثر أهمية من الأصوات الساكنة ، وأكثر وضوحا في السمع منها ، وهى التى تكون قمم المقاطع في اللغة العربية .

٧ — ذكر سيبويه ومن تبعه الهمزة والألف معا ، ونسبرهما الى مخرج واحد هو الحنجرة . والألف باعتبارها حركة ، أو صوت علة طويلا لا تنسب الى الحنجرة ، فذكرها في هذا المقام فيه نظر . وقد اختلفت الآراء حوله :

(١) فمن قائل بأن سيبويه قد أخطأ ، لأن الأبجدية التى ذكرها أبجدية للأصوات الساكنة ، والألف من الحركات فلا مجال لذكرها .

(١) سهيلة جبورى : الخط العربى ، ص ٥٧ ، ٦٠ .

وعلى فرض التجاوز عن ذلك ، فإن الألف كحركة لا تخرج من هذا المخرج ، ومن ثم لا يصح وضعها مع الهمزة أو الزاء • فالألف لا تنسب الى الحنجرة ، وإنما الى اللسان وطبيعة وضعه وضعاً معيناً يسمح بخروج الهواء في أثناء النطق حراً طليقاً لا يقف في طريقه عائق •

(ب) ويرى الدكتور أيوب أن وجود ذبذبة في الأوتار الصوتية في أثناء النطق بالألف ربما كان السبب في وضعه الألف مع الهمزة والماء • ولكن حركة الأوتار الصوتية مع الهمزة أصلية فنسبت الى الحنجرة ومع الألف إضافية فلم يكن يصح أن ينسبها إليها • أو أن سيديويه قد وصف ذلك النوع من الألف المشوب بهمزة (ومن العرب من يقلب الألف همزة قلباً كاملاً فيقول دابة في دابة وهكذا) وهي خاصة في بعض اللهجات العربية (١) •

٨ — ذكر سيديويه صوت القاف بين المجهورات • فهل هذا خطأ منه ؟ الحقيقة أن هذا الصوت قد لحقه تطور في النطق الحديث وأنه إن ينطق مجهوراً في القديم • والصوت الذي وصفه سيديويه قد يكون منطبقاً على نطق القاف جيماً قاهرية ، أو غيناً • وكلا النطقين ما يزال موجوداً حتى الآن في أماكن مختلفة من البلاد العربية (٢) •

وقد لحقت صوت القاف تطورات كثيرة في اللهجات الأربعة مما يدل على كثرة تعرضه للتطور والتغير • ومن ذلك نطقه همزة في القاهرة وكثير من المدن العربية (٣) • وقد ثبت أن نطق القاف همزة ليس نطقاً حديثاً وإنما له أصول قديمة • وقد ذكر أنولتمان في بحث له بعنوان « بقايا

(١) انظر بحث : الدراسات اللغوية عند العرب للدكتور أيوب — محاضرات عام ٦٧ — ٦٨ ص ٢٧ ، ٢٨ •

(٢) راجع : علم اللغة العام — الأصوات للدكتور بشر ، ص ١٣٨ وما بعدها •

(٣) راجع : كاتنينو ، دروس في علم الأصوات ص ١٠٨ وما بعدها وص ١٠٩ بخاصة •

اللهجات العربية في الأدب العربي » (١) أن هذا التغير موجود في أسماء الأعلام الفيزيقية • وقد ذكرت كتب اللغة : تصوراً بمعنى تصوق (أى توسخ) وأفز بمعنى قفز واستنشأ بمعنى استنشق •

٩ — عد القدمات صوت الهمزة من الأصوات المجهورة • وهذا لا يتفق بحال مع حقيقة وضع الأوتار الصوتية حال النطق بهذا الصوت ، إذ الأوتار الصوتية حينئذ تغلق أولاً إغلاقاً تاماً لفترة قصيرة ثم تنفجر فجأة وبسرعة فيخرج الهواء محدثاً انفجاراً • وربما نطق العلماء العرب الهمزة مثلوة بحركة فظنوها مجهورة ، مع أن الجهر سببه الحركة لا الهمزة •

١٠ — هناك فرق بين وصف الضاد عند سيبويه وبين الضاد الحديثة • وليس هذا نتيجة خطأ من سيبويه في الوصف ، وإنما نتيجة التطور الذى لحق هذا الصوت (٢) •

(١) مجلة كلية الآداب ، مايو سنة ١٩٤٨ •

(٢) انظر في تفصيل ذلك : مناهج البحث في اللغة ص ٩٢ والأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ٤٩ — ٥٠ والأصوات للدكتور بشر ، ص ١٣٢ وما بعدها •

الفصل الثالث

النحو والصرف

عرض تاريخي :

سبق أن تناولنا نشأة النحو العربي بشيء من الإيجاز والتركيز ،
وهدفنا الآن أن نتناول — في إيجاز كذلك — تاريخ الدرس النحوي منذ
سيبويه (١) ونتتبعه حتى وصوله الى مرحلة الكمال والاضج ، وتبلور
أفكاره في اتجاهات ومذاهب معينة .

يعد سيبويه (٢) إمام النحاة بلا منازع . وقد جمع في مؤلفه المعروف
« بالكتاب » مباحث النحو والصرف ، وجعل لكل مكانا منه لا يشركه
الآخر فيه أو يكاد . وبدأ بالنحو وثنى بالصرف ، صنيع من يراهما
علمين (٣) . ومن يراجع موضوعات الجزء الأول من « الكتاب » يجدها
خاصة بالنحو ، فقد تناول فيه الكلمة ، والبنية والمعرفة ، والأفعال
اللازمة والمتعدية ، وأسماء الأفعال ، الى جانب الناعل والمبتدأ والخير ،
وأيضا المنصوبات كالمصادر المنصوبة ، والحال والمفعول فيه ، وإن وأخواتها
والنداء ، والاستثناء ، وغيرها . أما الجزء الثاني فجميع أبوابه صرفية
إذا استثنينا باب الممنوع من الصرف الذي افتتح به الجزء . ومن
موضوعاته النسب ، والتصغير ، ونونا التوكيد ، وجمع التكسير ، وأرزان

(١) راجع في ترجمته مقدمة « الكتاب » بتحقيق الأستاذ عبد السلام
هارون ، و « سيبويه امام النحاة » للأستاذ على النجدي ناصف .

(٢) برغم شهرة سيبويه لم يذكر أحد تاريخ ولادته ولا وفاته بالتحديد .
واجمالا يمكن أن يقال انه ولد في النصف الأول من القرن الثاني وتوفي
عام ١٨٠ أو ١٨٨ ولم يتجاوز الأربعين .

(٣) على النجدي ، ص ١٧٠ .

المصادر ، وصيغ الأفعال ، ومعاني الزوائد ، واسم الآلة ، وأسماء الأماكن ، وفعل التعجب ، والإمالة ، والوقف ، والإعلال ، والإدغام .

وقد كان من سوء حظ النحو العربى أن جاء سيبويه فى وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، إذ نتج عن تنوقه وشدة إعجاب النحاة به أن أصيب التشكير النحوى بشلل ، ودار الجميع فى فلك سيبويه ، واتخذوه أساسا لدراستهم ، ولذا لم يطوروا هذه الدراسة بالقدر الكافى ، وتحولت كثير من الدراسات النحوية الى مجرد شروح له أو اختصارات أو تعليقات عليه ، أو جمع لشواهد وشرحها . . أو . . أو . . ويكفى دليلا على ما كان لعمل سيبويه من سحر وإغراء إطلاعهم عليه اسم « قرآن النحو » (١) ، وقول المازنى فى تمجيده : « من أراد أن يعمل كتابا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى » وقيل السيرافى : « وعمل كتابه الذى لم يسبقه الى مثله أحد قبله ، ولم يلحق به من بعده » . وكان المبرد يقول إن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركب البحر » تعظيما واستصعابا له (٢) ولسنا نريد أن نحبر صفحات فى سرد أسماء الكتب والأبحاث التى دارت حول كتاب سيبويه (٣) وإنما نخص بالذكر كتابا فريدا من بين هذه الكتب وهو كتاب ألفه المبرد ، واختار له عنوانا هو « الرد على سيبويه » (٤) ، وذلك لطرافته وغرابة موضوعه .

(١) مراتب النحويين ، ص ٦٥ .

(٢) بغية الوعاة ، ترجمة عمرو بن عثمان ، ومقدمة عبد السلام هارون للكتاب ، ص ٢١ ، ٢٣ .

(٣) تفصيل ذلك فى مقدمة عبد السلام هارون للكتاب عناوين : فمن شرحه (ص ٣٦) ، ومن شرح مشكلاته ونكته وأبنيته (ص ٣٨) — ومن شرح شواهد (ص ٣٩) ، ومن اختصره أو اختصر شروحه (ص ٤١) ، ومن ألف فى الاعتراض عليه أو رد تلك الاعتراضات (ص ٤١) .

(٤) ذكر ابن جنى أن المبرد سماه « مسائل الغلط » .

خصص المبرد كتابه هذا للهجوم على سيبويه والاعتراض عليه • وبرغم أن الكتاب لم يصلنا نصه ، فقد وصلتنا اقتباسات كثيرة منه في كتب متأخرة تكفى لتكوين فكرة عنه • وقد كان مثار دهشة وعجب أن يأتي أقسى هجوم على سيبويه من المبرد رأس المدرسة البصرية في عهده ، وأن يتعرض المبرد لسيبويه بالنقد والتخطئة ، وأن يتعقب زلاته ويؤلف فيها كتابا كاملا ، ومن أجل هذا حاول بعضهم أن يبريء المبرد من تهمة التعرض لسيبويه وادعوا بطلان نسبة هذا الكتاب إليه • ومنهم من ادعى أن ما اعترض به المبرد على سيبويه جدت أيام الشباب وأنه عاد فرجع عنه •

وأفضل مرجع حوى اقتباسات من عمل المبرد هو « الانتصار لسيبويه من المبرد » الذى ألفه ابن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ • ومنه نعلم أن كتاب المبرد يحوى ١٣٤ مسألة ، وأن الخلاف بين سيبويه والمبرد كان عميقا ويعود الى اختلاف المنهج والخط الفكرى فى كثير من الأحيان • ومن ذلك منع سيبويه أن يقال « السقى لك » ، و « المرعى لك » بدلا من سقى لك ورعى لك لأن العرب لم تتكلم بهاتين العبارتين مع الألف واللام • وقد أجازهما المبرد لأنه لا فرق عنده — فى القياس — بينهما بالألف واللام وبين « الحمد لله » و « العجب لزيد » (١) •

ونعزود الى « الكتاب » فنقول إنه برغم نسبه الى سيبويه ففضل الخليل فيه لا يجحد ، حتى قيل إن الأوفق أن ينسب الكتاب الى الخليل وحده أو إليهما معا • يقول أبو الطيب اللغوى : « عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل (٢) » ويقول ثعلب : « اجتمع على صنعة الكتاب اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل » (٣) •

(١) هناك عرض واف لكتاب ابن ولاد مع التعرض لمسائل الخلاف فى مجلة كلية المعلمين الجامعة الليبية ، العدد الاول ، صفحات ١٧٧ — ١٩٠ •

(٢) المدارس النحوية لشوقى ضيف ، ص ٣٤ •

(٣) مقدمة الكتاب لهارون ، ص ٢٤ •

وقد طبع كتاب سيبويه — حتى الآن — في فرنسا والهند ومصر
وترجم الى الالمانية ترجمة كاملة • وقام المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام
هارون بتحقيقه ونشره نشرة علمية دقيقة ظهرت في خمسة أجزاء •

وفي نفس الفترة التي كان الخليل وسيبويه ينشران علمهما فيهما
بالبصرة وجد عالمان بالأنوفة اشتغلا بالنحو وإن لم يبلغا في الشهرة
مبلغ الخليل وسيبويه • هذان العالمان هما أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ
الهراء • أما أولهما فقد صنف كتابا اسمه « الفصيل » يقال إن الخليل
قد اطلع عليه ، واستفاد منه • وأما الآخر فقد غلب عليه الاشتغال
بالبصرة حتى قيل إنه واضع علم الصرف • ويصدر الدكتور شوقي ضيف
على هذين الرجلين حكما قاسياً فيقول : « وكان علم معاذ بالصرف مثل
علم الرؤاسي في النحو كان علما محدودا لا غناء فيه ولا شيء يميزه من
علم البصرة » (١) .

وبعد ذلك سار نحاة البصرة والكوفة جنبا الى جنب وتنافسوا في
البحث والإنتاج ، وتابع من كلا البلدين نحاة أعلام ليس من السهل
تفصيل أيهما على الآخر • فمن نحاة البصرة نجد الأخفش سعيد بن
مسعدة ، وقطرب والمازني والمبرد • ومن نحاة الكوفة نجد الكسائي ،
والفراء ، وشعلب وابن السكيت • وهؤلاء جميعاً عاشوا وماتوا قبل نهاية
القرن الثالث الهجري • وأهم ما يميز هذه الفترة ارتقاء البحث النحوي
ونضجه بدرجة لم تسمح بجديد بعدها • كما يميزها ظهور الكتب الكاملة
التي تعالج النحو بابا بابا • ونضرب لذلك المثل بكتاب « المقتضب »
للمبرد ، وهو برغم اسمه كتاب ضخم طبع في أربعة مجلدات بتحقيق
الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة • ويميزها أيضاً اتجاه البحث
الى التقصى ، والاستقراء للمأثور عن العرب وإعمال الفكر ، واستخراج
القواعد • وقد أذكى من روح النشاط المتنافس البلدى الذي نشأ بين

(١) راجع : شوقي ضيف ، المدارس النحوية ص ١٥٣ ، ١٥٤ ،
واللهجات : من تاريخ النحو ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ونشأة النحو ، ص ٩٧ .

البصرة والكوفة ومحاولة كل فريق أن يظهر على الآخر • كما يميزها انفصال الصرف عن النحو على يد أبين عثمان المازني الذي ألف « التصريف » (١) • وقد طبع هذا الكتاب بشرح ابن جنى عليه باسم المنصف في ثلاثة أجزاء •

وبعد القرن الثالث نافست أقطار ومدن أخرى البصرة والكوفة في الدراسة النحوية وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والأندلس • وظهر نحاة أعلام في كل بلد من هذه البلاد تجد تفصيلا عنهم في كتب التراجم المختلفة (٢) •

وأهم ما يميز هذه المرحلة أنها كانت مرحلة خفت فيها حدة التنافس والتعصب ، وظهر جيل من العلماء لم يتحيز لعالم دون آخر • وأول من فعل ذلك البغداديون • وقد اتجه رجال هذه الفترة الى عرض المذهبين السابقين وانتقادهما ، واختيار ما يبدو مناسبا منهما ، بالإضافة الى زيادات قليلة من القواعد تولدت لهم من اجتهادهم قياسا وسماعا • ومن أشهر رجال هذه المرحلة — حتى نهاية القرن الرابع — الزجاج وابن السراج والزجاجي والأخفش الصغير وابن ولاد وأبو جعفر النحاس والسيرافي وأبو علي الفارسي والرماني والزبيدي (٣) •

(١) هذا على فرض أنه لم يصح وضع معاذ الهراء لعلم الصرف • وانظر نشأة النحو ص ٩٤ •

(٢) على سبيل المثال : طبقات الزبيدي ، وانباء القفطي ، وبغية السيوطي ، وضحي الاسلام ، وبروكلمان •

(٣) راجع : نشأة النحو في أماكن متفرقة وبخاصة ص ١٥٨ ، ١٥٩ • ولزيد من التفصيلات يستحسن الرجوع الى كتب التراجم المختلفة تحت الأسماء السابقة ولكتاب الدكتور شوقي ضيف : المدارس النحوية ، وكتاب الدكتور مازن المبارك : النحو العربي ، وكتاب سعيد الأفغاني : من تاريخ النحو ، وكتاب محمد الطنطاوي : نشأة النحو ، وكتاب الدكتور عبد الرحمن السيد : مدرسة البصرة النحوية ، وكتاب البر حبيب : الحركة اللغوية في الأندلس ، وكتاب الدكتور مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة •

هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ؟

السؤال الذى يجب طرحه الآن هو : هل يمكن أن نطلق اسم « مدرسة » على أى دراسة نحوية تمت فى خلال الفترة موضوع الدراسة ؟

ولكى نجيب عن السؤال يجب أولاً أن نوضح النقاط الآتية :

١ — ماذا نفهم من المصطلح « مدرسة نحوية » •

٢ — الأساس الذى بنى عليه تقسيم الدراسة النحوية العربية الى مدارس •

٣ — عدد هذه المدارس حتى نهاية القرن الرابع الهجرى •

أما بالنسبة للنقطة الأولى فإن هذا المصطلح يعنى — فى نظرنا — وجرد جماعة من النحاة ، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج فى دراسة النحو • ولا بد أن يكون هناك الرائد الذى يرسم الخطة ويحدد المنهج ، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ، ويتبنون منهجه ، ويعملون على تطويره والدفاع عنه • فاستمرار النظرية — أو المنهج — ودوامها عبر السنين شرط أساسى لتكون المدرسة التى لا يمكن أن تستحق هذا الاسم ، أو يعترف بوجودها بمجرد مولد النظرية أو خلقها ، حتى تعيش ويكتب لها البقاء لبعض الوقت بين المريدين •

ومن ناحية أخرى فنحن لا نوافق على اتخاذ المعيار الجغرافى أساساً لتقسيم العلوم الى مدارس فكرية مختلفة • إن وجود جماعة من الدارسين فى مكان واحد لا يكفى مطلقاً لتشكيل مدرسة ، أو لأحقية ربطهم جميعاً برباط واحد ، اللهم إلا اذا وجد الخيط الذى يصل بينهم ، والخطة أو النظرية التى يشتركون فى تطبيقها • وعلى هذا يكون المرشح لأحقيتهم اسم مدرسة ليس وجودهم فى مكان واحد وإنما اشتراكهم فى خط فكرى معين •

وإذا نحن انتقلنا الى النقطة الثانية وحاولنا أن نتعرف الأساس لتقسيم الدراسات النحوية الى مدارس ، وجدنا من الحتم أولا أن نظهر الحقائق الآتية :

(أ) أن المعيار الجغرافي كان الأساس الوحيد لهذا التقسيم ، وهذا يوضح لماذا حملت كل مدرسة اسم منطقة •

(ب) لا نجد أى إشارة الى مدرسة أطلق عليها هذا الاسم لالتفاف أتباعها حول رائد معين فحملت اسمه من أجل ذلك على عكس ما نجده الآن (١) •

(ج) على الرغم من ان المعيار الجغرافي كان هو الأساس الوحيد المستعمل لتقسيم المدارس العربية فإنه قد عجز تماما عن إبراز الفروق الحقيقية والاتجاهات الفكرية المختلفة لهذه المدارس ، كما عجز — فى نفس الوقت — عن تجميع الخصائص المشتركة ، والاتجاهات الفكرية الموحدة •

ولنأخذ مثالا على هذا أقدم مدرستين لغويتين ، هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، فماذا نجد ؟ نجد البصريين (أو الكوفيين) يختلفون فى المسألة الواحدة ، ونجد فى كثير من الأحيان بصريين ينضمون الى المدرسة الكوفية ، وكوفييين ينضمون الى المدرسة البصرية • والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى :

١ — فى حالة يصرح الأخفش (بصرى) بأن رأى الكوفيين صحيح •

٢ — فى حالة أخرى نجد للخليل رأيا يخالف رأى سيبويه والأخفش .

(١) مثل Vossler School أو Bloomfield School انظر Fries ص ١٩٦ ،

Malmberg ص ٦٩ •

(م ٩ — البحث اللغوى)

٣ — في حالة أخرى نجد سيبويه والخليل يريان رأيا منافضا
لرأى الأخفش والمازنى والزيادى والمبرد (وكلهم بصريون) •

٤ — في حالة أخرى نجد كلا من سيبويه والمبرد والكسائى والفراء
يقف منفردا برأيه الخاص •

٥ — في حالة أخرى نجد المبرد يفضل رأيا كوفيا •

٦ — في حالة أخرى نجد الكسائى يفضل رأيا بصريا (١) •

٧ — على الرغم من أن المبرد وسيبويه ينسبان الى مدرسة واحدة
فنحن نجد أن أقسى هجوم وجه لسيبويه كان على يد المبرد — كما سبق
أن ذكرنا — حتى ألف الأخير كتابا لنقد سيبويه والهجوم عليه • ومن
ناحية أخرى فنحن نجد أن اختلاف المنهج والخط الفكرى واضح جدا
بين الأستاذين ويشمل اختلافات جوهرية •

٨ — على الرغم من أن الكسائى والفراء ينتميان الى المدرسة الكوفية
فإن خلافهما في مسائل النحو كثير • ونكتفى بالنقاط الأمثلة الآتية :

(أ) يذهب الكسائى الى أن الفاء والواو وأو تنصب الفعل بنفسها ،
ولكن الفراء يذهب الى أن المضارع ينصب بعد هذه الأحرف على الخلاف
« أى أن المعطوف بها صار مخالفا للمعطوف عليه في المعنى فخالفه في
الإعراب » (٢) •

(ب) يذهب الكسائى الى جواز العطف على اسم إن بالرفع قبل
تمام الخبر ، فيصح عنده أن تقول : « إن زيدا وعمرو قائلان » • ولكن

(١) انظر في تفصيل المسائل السابقة : منهج السالك لأبى حيان صفحات
٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٩ مقدمة المحقق ، والانصاف لابن الأثير ص ٢٧ ، ٤٧ •

(٢) الكافية ٢/٢٢٤ ، والأشمونى ٣/٣٠٠ •

الفراء يفصل ، فيجيزه في حالة خفاء الإعراب ويمنعه فيما عدا ذلك ،
فمثال ما خفى إعرابه « إنك وزيد قائمان » ، وقد حمل عليه قوله تعالى
(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) (١) .

(ج) يذهب الكسائي الى أن أصل « آية » آتية بزنة فاعلة ،
فحذفت الهمزة كما حذفت في ثنالك السلاح ، ومكان هاء . ويذهب الفراء
الى أن أصلها « آية » بالتشديد ، وفروا من المشدد الى الألف كما فروا
الى الياء في دينار وأصله دنثار (٢) .

(د) أجاز الكسائي تقديم المحصور بيلا مطلقا ، وذهب الفراء الى
منع تقديم الفاعل المحصور وأجاز تقديم المفعول المحصور (٣) .

(هـ) قال الكسائي في « أشياء » : هي جمع شيء كبيت وأبيات ،
ووزنها أفعال ، ومنعت من الصرف على توهم أنها كحمراء + وقال الفراء
أصلها أشيئاء جمع شيء وأصله شيء نحو بين وأبيناء ولين وأليناء ، ثم
حذف من وسط أشيئاء همزة لكثرتها فصارت أشياء (٤) .

(و) يذهب الكسائي — وهو رأى البصريين — الى أن « نعم »
و « بئس » فعلان ماضيان لا يتصرفان ، ويذهب الفراء — وهو رأى
باقى الكوفيين — الى أنهما اسمان (٥) .

٩ — وأخيرا نمثل بمسألة تشعبت فيها أوجه النظر ، واختلط فيها
الحابل بالنابل كما يقول المثل العربى ، وهى تخريج « إياك » وأخواتها :

-
- (١) الانصاف ١/١١٩ ، ومجالس ثعلب ١/٣١٦ ، والرضى على الكافية
٣٣٠/٢ ، ومعانى القرآن ، ورقة ٤٥ .
(٢) رسالة الملائكة ص ١٠١ — ١٠٦ .
(٣) الأسمونى ٤/٣٩ .
(٤) معانى القرآن للفراء ورقة ٤٦ ، وامراب القرآن للنحاس ورقة
٥٤ — ٥٥ ، والرضى على الشافية ص ٩ .
(٥) الانصاف ١/٦٦ ، الكافية ٢/٢٩٢ .

(أ) فجمهور الكوفيين ، وهو رأى الفراء ، يذهب الى أن الكاف والماء والياء من إياك وإيأى وإيأه • • • هي الضمائر ، وأن « إيأ » عماد لها لتصير بسببها منفصلة • واختاره ابن كيسان من البصريين • قال الرضى : وليس هذا القول ببعيد عن الصواب •

(ب) ورأى الخليل أن « إيأ » اسم مضمَر مضاف الى الكاف بدليل وقوع الظاهر مقام الكاف فى قرلهم : اذا بلغ الرجل الستين فأياه وإيأ الشواب • وهو رأى الأخفش والمأزنى •

(ج) وقال سيبريه إن الاسم المضمَر هو « إيأ » ، وما يتصل به بعده حرف يدل على أحوال المرجوع إليه من التكلم والمخاطب والغيبة ، وهو رأى جمهور البصريين •

(د) وقال قوم من الكوفيين : إياك وإيأه وإيأى أسماء بكمالها ، وليس فيها تركيب •

(هـ) وقال الزجاج ، والسيرافى : « إيأ » اسم ظاهر مضاف الى المضمرات ، كأن « إياك » بمعنى نفسك (١) :

هذه الأمثلة — وغيرها كثير جدا لمن أراد المزيد — تكشف عن فساد المعيار الجغرافى وتظهر فشل (٢) •

(١) مدرسة الكوفة ص ٢٢٩ ، الكافية ١٢/٢ ، ورسالة الملائكة ص ٥٧ وهامش صفحتى ٥٥ ، ٥٦ •

(٢) لا أدل على فشل المنهج الجغرافى فى بيان الاتجاهات الفكرية ، وإبراز أوجه الخلاف والشبه بينها من اختلاف الآراء حول نسبة بعض اللغويين الى مدرسة معينة • وأشير فى هذا المجال الى أبى عبيد الذى وضعه بروكلمان تحت أبناء المدرسة البصرية (١٥٥/٢) ، بينما وضعه الزبيدى وآخرون تحت اتباع المدرسة الكوفية (ابن النديم ص ٧١) •

وحالة أبى عبيد تمثل صعوبة أخرى ، وهى صعوبة نسبة عالم من ذلك العصر الى بلد معين نظرا لكثرة الأسفار — وعدم الاقامة فى مكان واحد مدة طويلة • فهو قد ولد فى هراة وتنقل بين البصرة والكوفة ومرو وسر من رأى وطرسوس وبغداد ومكة •

(معجم الأدباء ٢٥٤/١٦ ، والقفا ١٥/٢ ، ١٩ ، ٢٠) •

ولكن الى جانب هذه الاختلافات بين أبناء المدرسة الواحدة فنحن نجد بعض الاضطراب والاتجاهات المشتركة التي يتميز بها أبناء المدرسة الواحدة ، وعلى هذا فربما قبلنا — مع شيء من التحفظ — هذه القسمة . والنقد الخطير الذي يمكن أن يوجه الى هذا المقياس هو احتمال الانحراف في تطبيقه . ربما قبلنا تبرير هذا المقياس على أساس أن الفكرة ، أو الاتجاه المعين ، إنما يظهر أول الأمر في مكان ما ، ومن أجل هذا فمن المعقول أن ينسب هذا الاتجاه أو هذه النظرية الى مكان الميلاد .

ولكن الشيء الذي لا نقبله هو الزعم بأن هذه المدرسة المعينة لا بد أن تشمل كل المواطنين في هذا المكان — بغض النظر عن اختلافاتهم — وتستبعد من عداهم ، دون نظر الى آرائهم ومدى اتفاقهم أو اختلافهم . وعلى هذا فنحن نعتقد أن الباب لا بد أن يترك مفتوحا على مصراعيه ليضم المتفقين ، ويعزل المخالفين . إن باب المدرسة البصرية — أو الكوفية — يجب أن يظل مفتوحا ليسمح بدخول أى مؤيد أو متفق في الرأى مهما كانت جنسيته ، وبخروج المخالف ، حتى ولو كان منتسبا الى المنطقة بالميلاد أو الإقامة . وطبقا لهذا ، فإننا نجد المدارس اللغوية الحديثة التي تحمل أسماء أماكن قد اشتملت على أسماء علماء من بلاد مختلفة . ونحن نشير بوجه خاص الى « مدرسة جنيف » (١) التي أسسها اللغوي السويسري دي سويسير وشملت لغويين فرنسيين وسويسريين وألمان وإنجليز (٢) .

أما إجابة السؤال الثالث ، فهي دقيقة وصعبة ، اذا حاولنا تناولها بدقة . إنها تقتضى عملية تتبع كامل للإنتاج النحوي في جميع أنحاء العالم العربي لفترة تمتد الى أكثر من ثلاثة قرون ، مع الأخذ في الاعتبار ضياع نسبة كبيرة من الإنتاج النحوي لتلك الفترة وعدم وصوله لنا ، بالإضافة

(١) بعض الدارسين يسميها كذلك « المدرسة الفرنسية » (انظر Sommerfelt ص ٢٨٣) .
(٢) Malmberg صفحات ١٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

الى تيعثر الآراء النحوية في كتب التفسير والقراءات والأدب وشروح
الدواوين الشعرية وغيرها . ولهذا فنحن سنكتفى في هذا المقام بنظرة
خاطفة مركزين على الخلافات بين الدارسين حول الاعتراف أو عدم
الاعتراف بأى منها (١) .

فيما عدا سعيد الأفغانى الذى رفض المعيار الجغرافى أساساً للتقسيم
النحوى وتشكك فى جدواه (٢) (برغم استعماله لفظ مدرسة مع نحاة
البصرة ونحاة الكوفة مجازاة لما هو شائع) ، واقترح معياراً آخر فإن
سائر الدارسين قد قبلوا التقسيم الجغرافى أساساً لتصنيف المدارس
النحوية العربية . الفرق الوحيد بينهم هو اختلافهم فى عدد المدارس :

وبعض النظر عن المستشرق G. Weil الذى اعترف بالمدرسة البصرية
فقط ، نجد جميع الدارسين يعترفون بوجود مدرستى البصرة والكوفة ،
ويعترفون بأسبقيتهما لأى مدارس نحوية أخرى ، ومنهم من يضيف
إليهما مدارس أخرى على النحو التالى :

(١) بعضهم يضيف مدرسة ثالثة فى بغداد . ويضم هذا الفريق
بروكلمان ومهدى المخزومى .

(١) كان من سوء الحظ أن المحاولات الأولى لتقسيم الدراسة اللغوية
الى مدارس كانت ترمى الى عمل ترجمات للغويين ، مع التركيز على الجانب
التاريخى من حياتهم . وربما كان المعيار الجغرافى صالحاً لمثل هذه الدراسة
التاريخية ، ولكن الخطأ الذى ارتكب فيما بعد هو تطبيق هذا المعيار على
الدراسة اللغوية البحتة .

(٢) يقول : درج العلماء على أن هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفياً . فما
معالم كل من المذهبين ؟ هذه الميزات والمعالم الآتية بعد ليست جامعة مانعة .
فليس هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة
الكوفة ، أو قال بها الآخرون جميعاً وعارضها الأولون جميعاً .

(فى أصول النحو ص ١٩٥ — ١٩٦) وانظر بحثه : هل فى النحو مذهب
أندلسى ؟ ص ٧٦ .

(ب) وبعضهم — مثل طه الراوى ومحمد أسعد طلس — يضيف مدرسة رابعة فى الأندلس •

(ج) أضاف «Howell» مدرستين أخريين فى مصر والمغرب •

(د) وعد الدكتور شوقى ضيف خمس مدارس هى : البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية والمصرية ، ولم يذكر المغربية •

(هـ) ويقف الزبيدى منفردا فى هذا النزاع حيث يقسم اللغويين الى بصريين وكوفيين ومصريين وأندلسيين ، ولم يذكر البغداديين ^(١) •

وإذا كان لنا من ملاحظات على هذه التقسيمات فهى :

١ — أنه مادام المعيار الجغرافى هو الأساس فى التقسيم فلا بد من الاعتراف بوجود مدرسة فى كل بلد أنتج فكرا نحويا •

٢ — من الغريب أن يعترف الزبيدى باللغويين المصريين والأندلسيين ولا يذكر البغداديين •

٣ — وأعرب من هذا أن يعترف طه الراوى ومحمد طلس بوجود مدرسة فى الأندلس ولا يعترفان بوجود مدرسة فى مصر ، برغم أسبقية مصر فى هذا الميدان واعتماد النحو الأندلسى فى نشأته ووجوده وبناؤه على مصر ^(٢) • وأخيرا فإننا نؤمن بأن تقسيم العلوم الى مدارس —

(١) ارجع الى : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « ثعلب » و « نحو » ، ومراتب النحويين لأبى الطيب ، والفهرست لابن النديم ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، ومدرسة الكوفة للمخزومى ص ٣٩١ ، ونظرة فى النحو لطله الراوى ، وأبو الفتح بن جنى لطلس ، وطبقات النحويين للزبيدى ، والمدارس النحوية لشوقى ضيف ، ومقدمة Howell كتابه A Grammar of the Classical Arabic

(٢) يرجع الفضل فى النهضة الأندلسية النحوية الى عودة محمد بن يحيى الرباحى الأندلسى من المشرق بمنهج حديثة (كما يقول الزبيدى) ويكتب جديدة فى القرن الرابع • ولم يكن الرباحى نفسه مؤلفا وإنما لاقى الأستاذة وقرأ عليهم وحمل كتبهم • ومن لاقاهم بمصر أبو جعفر النحاس وأبو العباس

مهما كان المعيار — ليس خير سبيل . إنه يعطى إحساساً بمحلية العلوم ، ويخلق جواً من التحيز والتعصب . إنه يظهر اتفاقاً سطحياً بين أتباع المدرسة الواحدة حول مبادئ معينة أو قواعدها خاصة ، ولكنه يخفى من وراءه خلافات جوهرية .

ومن أجل هذا فنحن نفضل المعيار المبني على أساس النظريات المنفصلة والاتجاهات المستقلة . وعلى هذا يمكننا أن نتكلم عن نظرية سيبريه في الالتزام بما سمع عن العرب وعدم استخدام القياس النظري ، لأن العرب يمتنعون عن التكلم بالشئ وإن كان القياس يريجه ، ويتكلمون بالشئ وإن كان القياس يمنعه . وعن نظرية الثراء في النصب على الخلاف أو المخالفة . وعن نظرية ابن فارس في رد الالفاظ الكبيرة البنية الى أصول أقل حجماً . وهكذا .

هذا الاتجاه ربما يكون أكثر دقة في تتبع النظرية أو الاتجاه ، وفي رسم حدود كل ومعالجه عبر العصور من غير استخدام التعميمات ، أو إصدار الأحكام الكلية التي تفتقر في كثير من الأحيان الى الدقة ويعوزها الحذر العلمي .

أهم الفروق بين مدرستى البصرة والكوفة :

على الرغم من موقفنا السابق من اتخاذ المعيار الجغرافي أساساً

=
ابن ولاد ، وكلاهما نحوي متخصص . وقد نقل للأول الى الأندلس كتبه « صناعة الكتاب » و « الاشتقاق » و « الكافي في النحو » و « المتنوع في النحو » ولثاني « الانتصار لسيبويه » و « المقصور والممدود » و « النقائص » . ونضيف الى هذا أنه من بين تلامذة النحاس الاجانب وعددهم أربعة عشر (على حسب ما أمكنني البحث) نجد ثمانية أندلسيين . ومن بين الترجمات الخمسمائة الأولى في كتاب ابن الفرضي « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » نجد خمسة وخمسين على الأقل قد درسوا في مصر .

(ولزيد من التفاصيل راجع رسالتي للدكتوراه Arabic Linguistic Studies in Egypt الخاتمة) .

للتقسيم ، وما سبق أن ذكرناه من عدم وجود خط محدد يسير عايه تل كل من الكرفيين والبصريين ، فقد رأينا أن نسجل هنا أهم ما يميز المدرس النحوى البصرى عن الكوفى ، مع اعترافنا بأن هذه المميزات ليست قاطعة أو صارمة ، كما سنكشف فى تعليقنا الآتى بعد ، ويمكن تلخيص هذه المميزات أو الفروق فيما يأتى :

١ — ما سبق أن ذكرناه من تشدد البصرة فى فصاحة العربى الذى تأخذ عنه اللغة والشعر وتساهل الكوفيين حتى إنهم كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق ، مما جعل بعض البصريين ينفر على الكرفيين بقوله : « نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ » (١) .

٢ — ما سبق أن ذكرناه من توسع الكرفيين فى قبول القراءات المترآنية بالنسبة للبصريين . وذلك ليس نتيجة تقديسهم للقراءات وحسن تقبلهم لها ، وإنما بسبب ما عرفوا به من ترسع فى أصول اللغة وقياس على القليل واعتداد بالمثل الواحد (٢) .

٣ — أن البصريين لم يكونوا يكتفون فى استخلاص القاعدة بالمثل الواحد أو الأمثلة القليلة « وإنما اشتراطوا الكثرة والتداول على السنة العرب الفصحاء . أما الكوفيون فكانوا يعتقدون بالأشعار والأقوال الشاذة ، ولا يشترطون أى نوع من الكثرة فى نقيع قواعدهم . ولهذا يقول السيوطى : « لو سمع الكوفيون بيتا واحدا فيه جواز شئ مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه » ، ويقول : « عادة الكرفيين اذا سمعوا لفظا فى شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا » (٣) .

(١) راجع بحث « الشواهد النثرية » فى الفصل الاول ، الباب الاول من هذا الكتاب .

وشوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٦٠ .

(٢) راجع بحث « القراءات القرآنية » فى الباب الاول من هذا الكتاب .

(٣) شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٦١ ، ١٦٢ ، محاضرات

الدكتور ابراهيم أنيس لطلبة الليسانس بدار العلوم ، سنة ١٩٦٤ .

٤ — أن التأويل والتقدير كثر عند البصريين بطريقة لافته للنظر ، وذلك تبعاً لرفضهم كثيراً من الأمثلة العربية الصحيحة ، ونتيجة لمحاولاتهم المتكررة إخضاع الأمثلة العربية الصحيحة لأقيستهم النظرية البحث . ويمتدح الدكتور شوقي ضيف صنيع البصريين هذا بقوله : « على أنه ينبغي أن نعرف أن المدرسة البصرية حين نحتت الشواذ عن قواعدها لم تحذفها ولم تسقطها ، بل أثبتتها ، أو على الأقل أثبتت جمهورها ، نافذة في كثير منها إلى تأويلها ، حتى تنحى عن قواعدها ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن خلا يشويها ، وحتى لا يغمض الوجه الصحيح في النطق على أوساط المتعلمين . إذ قد يظنون المشاذ صحيحاً مستقيماً ، فينطقون به ، ويتركون المطرد في لغة العرب الفصيحة . ومن هنا تتعرض الألسنة للبلبل . وقد ينجذب إليها بعض من لم يفقه الفرق بين القاعدة المدائرة على كثرة الأفواه ، بل على كثيرها الأكثر ، والقاعدة التي لم يرد منها إلا شاهد واحد ، مما قد يؤول إلى اضطراب شديد في الألسنة » (١) .

وسنذكر رأينا في هذا الأصل فيما بعد .

٥ — لما كان الكوفيون أهل شعر ورواية لم يلتفتوا كثيراً إلى قوانين المنطق والأقيسة العقلية . أما البصريون فقد عوضوا تخلفهم في مجال الشعر والرواية بأن أطلقوا لعقلهم العنان وبرعوا في استخدام المنطق ولجأوا أحياناً إلى النظر المجرد . ويمثل هذا الاتجاه البصري خير تمثيل قول أبي على الفارسي : « لأن أخطيء في خمسين مسألة من باب الرواية خير عندي من أن أخطيء في مسألة واحدة من باب القياس » (٢) .

ولنا على هذه الفروق الملاحظات الآتية :

١ — أن المذهب الكوفي — في نظرنا — أقرب إلى الحق والواقع حين أجاز القياس على المثال الواحد المسموع ، ولم يعتبر القلة والكثرة .

(١) المدارس النحوية ص ١٦٢

(٢) المرجع ص ٢٦٤ .

وذلك لأن القبائل العربية تتساوى في صحة القول وسلامة اللغة ، وليس أمام العقل مسوغ في تفضيل لهجة على لهجة • ومن القواعد المقررة في فقه اللغة أنه لا يحتاج بلغة قبيلة على أختها ، ولا يحكم النظير بالتخلف على نظيره • ومن يدرينا أن الظاهرة اللغوية التي روى لنا الكوفيين شاهدا واحدا ليس لها شواهد أخرى ؟ أليس من الممكن جدا أن يكون وراء هذا الشاهد الواحد عشرات الشواهد التي لم يهتم العلماء بتسجيلها ، أو التي فقدت ولم تصلنا ؟ يدل على هذا ما ينسب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قوله : « إن الشعر كان علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاعلت العرب عنه بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته • فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يثبوا الى ديوان مدون ولا كتاب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثره » • ويروى عن أبى عمرو بن العلاء قوله : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله • ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » (١) . ويقول القاضى الجرجاني في الوساطة : « أما الألفاظ التي زعموا أن الشعراء تفردوا بها فإنها م جودة عن أئمة اللغة وعن ينتهى السند إليهم • • وإنما نتكلم بما نكلهوا به • وواحدهم كالجمع ، والنفر كالقبيلة ، والقبيلة كالأمة • فإذا سمعنا عن العربى الفصيح الذى يعتقد حجة كلمة اتبعناه فيها وإن لم تبلغنا من غيره » (٢) •

فإذا سمع الكوفيون أمثلة معدودة نسب العرب فيها الى الجمع فقبلوا هذه النسبة ، واتخذوها أساساً ، وقاسوا عليها لم يكونوا حائزين عن الجادة كما يحاول بعضهم أن يصورهم ، بل يكونوا على حق • خصوصاً وأن الكثرة العددية للآلومات المفردة المنسوب إليها لا تعارض

(١) اللغة والنحو لعباس حسن ، ص ٣٦ ، ٣٧ •

(٢) المرجع السابق •

القلة العددية للكلمات المجمعة المنسوب إليها ، لأنه من الممكن أن توجد القاعدتان جنبا الى جنب وتتعايشا معاً دون تناقض ، فيقال إن أريد النسب الى المفرد رد الجمع الى مفرده ونسب إليه ، وإن أريد النسب الى الجمع نسب إليه على لفظه • وليس هذا مثلا من قبيل رفع المفعول أو نصب الفاعل • ولهذا نجد الكوفيين برغم سماعهم لمثل خرق الثوب المسمار لم يجوزوا رفع المفعول أو نصب الفاعل ، مما يدل على أن اعتدادهم بالمثال الواحد أو الأمثلة القليلة إنما يرد في مثل النسب الى الجمع مما يوسع مجال اللغة ولا يخلق فيها الفوضى والاضطراب •

٢ — أن البصريين لم يوضحوا مرادهم بالكثرة ، أهى الكثرة العددية بين أفراد القبيلة الواحدة ؟ أم القبائل جمعاء ؟ أهى الكثرة النسبية القائمة على الاستقرار التام والعد واستخراج النسبة ؟ فإذا كان الأول فما حدها ؟ أهى ثلاثة أم خمسة أم عشرة أم ماذا ؟ وإذا كانت الثانية فما نسبة الكثير ؟ وهل يمكن إجراء النسبة في كل ظاهرة لغوية ؟ وهل يدعى البصريون أنهم قاموا باستخراج النسبة في أى قاعدة نحوية استخلصوها ؟ (١) ولا أدل على غموض هذا المصطلح عند البصريين من تخطيط بعضهم في شرحه ، ومن اختلافهم في كثير من الأحكام — بعضهم مع بعضهم — من حيث القياسية أو السماعية • وما نظن أن تفسير ابن هشام — فيما نقله السيوطى عنه — يمثل اتفاقا بين النحاة ، وإنما هو مجرد اجتهاد منه لتفسير مصطلحات غامضة يكثر تردها بين النحاة ، وتفسيره مع ذلك لا يمكن تطبيقه ، كما لا يمكن أن يدعى أن النجاة — أو أيا منهم على الإطلاق — قد قاموا بتطبيقه • يقول ابن هشام : « اعلم أنهم يستعملون غالبا وكثيرا وفادرا وقليلًا ومطردا • فالطرْد لا يتخلف ،

(١) لا أدل على عدم وضوح فكرة القلة والكثرة في اذهان النحاة إن بعضهم حاول تحديدها فقال : « والفرق بين الغالب والكثير أن ما ليس بكثير نادر وكل ما ليس بغالب ليس نادرا قل قد يكون كثيرا »

والغالب أكثر الأشياء ، ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ،
والنادر أقل من القليل • فالعشرون بالنسبة الى ثلاثة وعشرين غالب ،
والخمس عشرة بالنسبة إليها كثير لا غالب والثلاثة قليل والواحد نادر » (١) •
والتحكم واضح في تعديلات ابن هشام فضلا عن عدم مطابقتها لآراء
الاحاة • وهناك من ساوى بين مصطلحات الأصل والمطرود والكثير والأكثر
والغالب ، وسأوى بين الشاذ والقليل والأقل والنادر (٢) والأمر بعد هذا
يحتاج الى تحديد دقيق من هيئة علمية لها مكانتها في ميدان البحث اللغوي
كمجمع اللغة العربية في القاهرة أو دمشق • وهو تحديد سينسحب على
ما يجد من بحوث استقرائية لمادة اللغة المسجلة ، على أيدي لغويين
محدثين ، ولا يمكن الزعم بأنه سيشمل الى جانبهم علماء اللغة القدامى •

٣ - أن البصريين قد خالفوا أصلهم في القياس على الكثير وترك
القليل ، وذلك في مسائل متعددة من مسائل النحو • فنراهم تارة يمتنعن
عن القياس على الكثير وتارة يقيسون على المثل الواحد • فمن النوع
الأول اعترافهم بأن وقوع المصدر حالا وصفة كثير ومع ذلك فهم يقصرونه
على السماع • ومن ذلك اعترافهم بأن « فعيل » بمعنى مفعول كثير في
لسان العرب وقولهم إنه مع كثرتة لم يقس عليه بإجماع (٣) • ومن ذلك
منعهم قياسية جمع ما بدى بميم زائدة من أسماء الفاعلين — جمعه
جمع تكسير مع أننى استطعت أن أجمع — بجولة سريعة في كتب اللغة —
ما يزيد على ثمانين كلمة جمعت هذا الجمع . فهل الثمانون لا تكفى
للقياس (٤) ؟ ومن نفس النوع منعهم جمع « فعل » على أفعال وادعائهم
أن جمع حمل على أحمال في القرآن شاذ ، مع أنه قد ورد عن العرب جمع

(١) في أصول اللغة ص ١٢٩ •

(٢) اللغة والنحو لعباس حسن ، ص ٣٩ •

(٣) المرجع نفسه ص ٤٤ •

(٤) راجع كتابي : من قضايا اللغة والنحو ص ١٨١ وما بعدها •

فعل على أفعال أشر من جمعه على أفعل ، فعدد ما ورد على أفعل ١٤٢ وعلى أفعل ٣٤٠ لفظة طبقاً لإحصاء أورده بعض الباحثين ^(١) . ومن النوع الثانى نسبتهم الى فعولة على فعلى مع أن ذلك لم يرد عن العرب إلا فى مثال واحد هو شنوءة وشنىء * وأيضاً قول الشاعر :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع
لم يسمع عن العرب غيره حذف فى « كان » وعوض عنها « ما » ،
ومع ذلك جعله البصريون قاعدة يقاس عليها *

٤ — أنه كان من جراء إفراط البصريين فى استخدام الأقيسة العقلية وتشددهم فى قبول التماهد النحوى ، أن وجدوا أنفسهم أمام شواهد فصيحة تخالف قياسهم المنطقى أو قاعدتهم التى استنبطوها * وهنا وجدوا أنفسهم مضطرين إما الى تأويلها وإخراجها عن ظاهرها لتتنجم مع قواعدهم ، وإما الى رميها بالشذوذ أو الخطأ * وقد أدت تأويلات النحاة الى إفساد النحو العربى وملئه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها فى تصحيح نطقنا أو تقويم لساننا * وإن أردت الدليل على ذلك فانظر الى ما قاله كل من البصريين والكوفيين فى نواصب المضارع * ذهب معظم الكوفيين الى أن النواصب عشرة ، وهى تنصب المضارع بنفسها وذلك مذهب لا التواء فيه ولا تعقيد ، ولا يحمل هذه النواصب مالا تحتمله من المعانى ، ولا يوقعنا فى تكلفات تشبه النحو وتتفر المدارس منه * أما البصريون فقد قسموا النواصب الى قسمين : قسم ينصب بنفسه وهو أن وان وإذن وكى (الأخيرة فى بعض حالاتها) وقسم ينصب بأن مضمره بعده وهو النواصب الستة الباقية * ثم تحدثوا بعد هذا عن « أن » المضمره جوازا و « أن » المضمره وجوبا * واضطروهم تقدير « أن » الى أن يبحثوا للأدوات الستة عن أعمال أخرى غير النصب ، لأن ما بعدها لا بد أن يؤول بمصدر لوجود أن المضمره ، وهذا

(١) شذا العرف ص ٦٩ ، محاضر جلسات المجمع ٥١/٤ ص ٥٢ .

المصدر لابد من إعراب يعرب به • وقد وقعوا بذلك في تكلفات لم يقع فيها نحاة الكوفة واخترعوا لنا ما سموه بالمصدر المتصيد • وقد حمل البصريين على سلوك هذا المسلك الوعر قاعدتهم المنطقية التي تقول : « إن الحروف لا تعمل إلا إذا كانت مختصة » • فمادامت هذه الحروف تدخل على الأسماء والأفعال فلا يصح أن تعمل ، وإذا كانت هذه الحروف لا تعمل في الفعل فلا بد من التفتيش عن العامل ، وقد وجدوه في « أن » المستترة • ولكن هل اللغة منطقية الى هذا الحد ؟ وانظر أيضاً الى ما قاله البصريون من عدم جواز أن يلي كان معمول خبرها ، وحين ووجهوا بقول للشاعر :

✽ بما كان إياهم عطية عودا ✽

قالوا إن في كان ضمير شأن هو اسمها ، وعطية مبتدأ وعود خبره وإياهم مفعول به لعود ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر كان • فلم كل هذا العناء ؟ ولماذا نضع القاعدة مسبقا ثم نلوي الشواهد النحوية لتخضع لها ؟ وما أثر كل هذا في تصحيح نطقنا أو تقويم لساننا ؟

وأحيانا كان البصريون يريحون أنفسهم فيرمون الشاهد بالندرة أو الشذوذ أو الخطأ ، وليست تخطئات ابن أبي إسحاق للفرزدق علينا ببعيدة • وهذا أيضاً غريب ، ويعجبني في هذا ما يقوله العكبري : « كيف نجعل ما وضعه البصريون للتقريب والتعليم مما لا أصل له ولا ثبات حجة على لسان العرب الفصحاء ؟ » (١) • وقد كان أكرم للبصريين أن يحذوا حذو شيخهم أبي عمرو بن العلاء • فقد سئل ذات يوم : « أخبرني عما وضعت مما سميتة عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقل لا • فقل له : كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟ فقل أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفني لغات » (٢) .

(١) عباس حسن : اللغة والنحو ، ص ٩٢ .

(٢) شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٥ — على الرغم مما في مذهب الكوفيين من بساطة ويسر ، وبعد عن التكلف والتأويل والتقدير — في الغالب — فأخطر ما يعيبه أنه ربما يرفع في الفوضى والاضطراب في ظواهر اللغة • لأن شرط كل لغة أن تكون لها ظواهر مطردة منسجمة مرحدة • فلو أننا جوزنا في الظاهرة الواحدة أكثر من وجه ، ولو أننا سمحنا باستخدام التعبير مجرد وجود مثال واحد ربما كان من بقايا لهجات قديمة أو لثغة أو ضرورة أو نحوها لما أصبح للغة قيود وقواعد ، ولصح قول بعضهم : « لا تتخرج من الكلام فمهما أخطأت فستجد لك وجهاً في العربية تصح به عبارتك » • وتخيّل معي شخصاً يرفع المفعول به ، أو ينصب الفاعل ، أو يلزم المثنى الألف في الرفع والنصب والجر ، أو يلزم جمع المذكر السالم الياء أو الواو ، أو يرفع الجزأين بعد كان ، أو ينصب الجزأين بعد إن ، أو يصرف المنوع من الصرف ، أو يمنع المصروف من الصرف ، أو ينعت المرفوع بمنصوب أو المنصوب بمرفوع • • أو • • فأى شيء يبقى لقواعد اللغة ؟ وأى شيء نستفيده — سوى الفوضى والاضطراب — لو تمسكنا بالشواهد القليلة التي جاءت مؤيدة لذلك ؟

وعلى هذا فمن الخير أن نتبع طريق البصريين في وضع القواعد دفعا للفوضى والاضطراب ، ولكن بدون لجوء الى تأويل وتقدير ، وبدون تمكيم للمنطق والقياس النظري ، ومع الاقتصار على اللغة النموذجية الأدبية المشتركة • أما في متن الكلمات ، وفي الجموع ، والمصادر ، والمستقات وأمثالها مما يتعلق بصوغ الألفاظ وبناء هياكلها ومادتها الأصلية وتقديرها وتأخيرها وذكرها وحذفها فنتبع طريق الكوفيين ، ونرجع الى التماس بمعناه العام الذي يبيح لنا محاكاة الكلام العربي الفصيح مهما كان قائله (١) • وبذلك نوسع أصول اللغة ونزعم مواردنا ، ونفتح طرقاً يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته • ومن أمثلة ذلك :

(١) عباس حسن : اللغة والنحو ، ص ١١١ ، ١١٢ •

(أ) حين تذكر كتب اللغة بعض مشتقات المادة اللغوية وتترك بعضها فالتوسع في القياس يكمل هذا النقص (١) .

(ب) أننا إذا وجدنا العرب يشتقون وزنا معينا ويستعملونه للدلالة على شيء خاص أمكننا أن نقيس عليه ما لم يذكر . فإذا وجهناهم يصوغون فُعَّال للدلالة على محترف الحرفة كنجار وحداد أمكننا أن نقيس عليها أصحاب المهن الأخرى فنقول براب وفنان ... وإذا وجدناهم يستخدمون فَعَّيل (بكسر الفاء وتشديد العين) للدلالة على ملازمة الشيء والمبالغة فيه مثل شريب وزميت وسكيت وصميت وخمير وسكير ... أمكننا أن نقيس عليها ما شئنا من ألفاظ . ومثل هذا يقال في صيغة فُعَّال للمبالغة (بضم الفاء وتشديد العين) فقد ورد منها : عجاب وكبار وظراف وجمال وكرام وحسان وطياب . ويمكننا كذلك أن نقيس صيغة فَعَّلة (بضم الفاء وسكون العين) للمبالغة في المفعول — وهى صيغة فريدة لا نظير لها في اللغة العربية لأن سائر صيغ المبالغة للمبالغة في الفاعل — فقد ورد من ذلك كلمات مثل : لعنة وسخرة وهزأة وسبة ونهبة .. وغيرها (٢) .

(ج) تصحيح كثير من العبارات والألفاظ التي تشيع على ألسنة المتكلمين وأقلام الكتاب في العصر الحديث ، والتي يمكن أن نلتبس لها وجهها في العربية تصح به . وهذا باب واسع بدأ مجمع اللغة العربية في مصر في فتحه على مصراعيه كما يتبين لمن يراجع محاضر جلسات المجمع ومجلته ومنشوراته اللغوية مثل « في أصول اللغة » و « مجمع اللغة العربية في خمسين عاما » . ومن أمثلته تصحيح كلمات صحفي ، ودولى ، ونضوج وإدخال « آل » على « كل » و « بعض » .

(١) انظر رسالتنا للماجستير : الفارابي اللغوى تحت عنوان « كلمات ناقصة الاشتقاق » ص ٢١١ وما بعدها .
(٢) انظر بحثا لنا بعنوان : صيغ أخرى للمبالغة في كتابنا « من قضايا اللغة والنحو » ص ١٩٣ وما بعدها .
(م . ١ — البحث اللغوى)

دعوات التجديد والإصلاح للنحو العربى :

شاب النحو العربى منذ نشأته شوائب ، وارتفعت شكوى المتعلمين من صعوبته وتعقده • ويرجع ذلك لأسباب متعددة منها :

١ — أن النحويين القدماء حين قعدوا قواعدهم أقحموا اللهجات العربية بصفتها وخصائصها المتباينة ، ونظروا إليها على أنها صور مختلفة من اللغة المشتركة ، مما خلق مشاكل معقدة أيسرها اختلاف الأقوال فى المسألة الواحدة ، ومحاولة التوفيق بين المذاهب والشواهد المتناقضة ، والإكثار من الأمور الجائزة ، وكثرة التقسيمات والتشعيبات ، والإسراف فى وضع الشروط (١) •

وقد كان الواجب عليهم إسقاط كل هذه الأمثلة اللهجية ، وترك غيرها مما يمثل مراحل التطور اللغوى ، كما كان الواجب عليهم أن يفرقوا بين القواعد النحوية التى غايتها احتذاء الصواب وصيانة اللسان عن الخطأ ، وبين دراسة ما نطق به العرب وما جرى على ألسنة قبائلهم وما نقله الرواة من شعر أو نثر تضمن خصائص لهجية معينة (٢) • أما الأولى فتبنى على اللغة النموذجية الأدبية الممثلة فى القرآن الكريم (دون قراءاته) ، والحديث النبوى الشريف ، والآثار الأدبية الرفيعة من أشعار

(١) يكفى أن أحيل القارئ الى شروط الفعل التفضيل ، التى حينما أعاد مجمع اللغة العربية فى مصر بحثها رأى إسقاط معظمها • فأسقط شرط تجرد الفعل الثلاثى أخذا برأى سيبويه والأخفش ، وأسقط شرط البناء للمعلوم عند أمن اللبس ، وتخفف من شرط كون الفعل تاما أخذا بقول الكوفيين وتخفف من شرط ألا يكون الوصف منه على فعل فعلاء أخذا برأى الكوفيين وهشام والأخفش وتخفف من شرط عدم الاستغناء عنه بمصوغ من مرادفه ، لأن من النحاة من تركه ، ولأن من ذكره لم يورد إلا مثالا واحدا • (انظر ص ١٢١ من كتاب أصول اللغة — وفى الصفحات التالية لها أبحاث شائقة اشترك فيها كثير من أعضاء المجمع حول هذه الشروط) •

(٢) عبد الحميد حسن : القواعد النحوية ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، من أسرار اللغة ، ص ٢٨ — ٣٠ ، المدخل الى دراسة النحو ، ص ٤٩ — ٥٢ •

وخطب وأمثال وحكم ورسائل ووصايا ونحو ذلك • وأما الثانية فتضم الى هذا ما نقل عن العرب أو الأعراب من كلام عادي ، وما ينسب الى كل قبيلة أو منطقة من خصائص تعبيرية معينة ، وما سجل من قراءات قرآنية •

٢ — نظرية العامل التي بالغ النحاة فيها ، وفلسفوها ، حتى ألفوا كتباً تجمع قواعد النحو بعنوان العوامل • فألف أبو علي الفارسي كتاب العوامل ومختصره ، وألف عبد القاهر الجرجاني العوامل المائة ، ودونوا للعوامل شروطاً وأحكاماً هي عندهم فلسفة النحو وسر العربية فقالوا :

لا يجتمع عاملان على معمول واحد (ذاكر ونجح محمد) •
الحرف لا يعمل في نوع من الكلمات حتى يكون مختصاً به (النصب بأن مضمرة بعد فاء السببية) •

لا يعمل العامل في الاسم وضميره معاً (محمداً ضريته) •
الى آخر ما هو مذكور في كتبهم •

ولما تكونت للنحاة هذه الفلسفة حكموها في اللغة وجعلوها ميزان ما بينهم من جدل ، بل تجاوزوا ذلك الى تقضيل لهجات من العرب على أخرى بأصول فلسفتهم هذه ، بل تجاوزوا ذلك الى رفض بعض الأساليب العربية المنقولة •

وقد كان النحاة — في سبيلهم هذه — متأثرين بروح الفلسفة التي كانت شائعة بين المتأخرين منهم ، فهم يعللون منعهم اجتماع عاملين على معمول واحد بقولهم : « اذا اتفق العاملان في العمل لزم تحصيل الحاصل وهو محال ، وإن اختلفا لزم أن يكون الاسم مرفوعاً منصوباً مثلاً ، ولا يجتمع الضدان في محل » (١) •

(١) احياء النحو ، ص ٣١ ، ٣٢ •

٣ — الإفراط في التأويل والتقدير ، وحمل الأساليب العربية على غير ظاهرها • وقد سبق أن ضربنا مثالا لذلك تقدير « أن » مضمرة بعد الفاء ونصب الفعل « بأن » هذه ثم اعتبار الفاء حرف عطف ، عطفت المصدر المؤول من أن المقدرة ومدخولها على المصدر المتصيد من السلام السابق ! وتقدير نحو : ذاكر فتنجح ، لتكن منك مذاكرة فنجاح !! ولا أدري ماذا منع العربي أن يقول هذا إن كان هو مراده ؟ وقد بدأت مثل هذه التأويلات من اللحظة الأولى لوضع النحو ، فالتأويل السابق هو من عمل الخليل — سامحه الله — وقد فتح بذلك بابا أمام النحاة يصعب قفله الآن • ومن تأويلاتهم العجيبة ما يقوله المبرد في إعراب قوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) • يقول المبرد إن فاعل « بدا » مصدر مقدر ، وتأويل الآية : ثم بدا لهم بدو • ولكن حذف بدو من الكلام لأن « بدا » تدل عليه • ولا معنى لكل هذا الكلام لأن « ليسجننه » جملة في موضع الفاعل — على حد تعبير ابن ولاد • ويستمر ابن ولاد قائلا : « وأما قوله إنه يضر فيه البدو » ، فإنما نضمر إذا كان الكلام محتاجا إلى الإضممار ناقصا عن التمام • فأما إذا كان الكلام تاما مفيدا ، فلا حاجة بنا إلى الإضممار » (١) •

٤ — استخدام المعل المثواني والثوالت في النحو ، ذلك مثل سؤالهم عن زيد من قرئنا : قام زيد : لم رفع ، وإيجابتهم : لأنه فاعل وكل فاعل مرفوع ، ثم سؤالهم : ولم رفع المفاعل ؟ وإيجابتهم للفرق بين المفاعل والمفعول ، ثم سؤالهم : ولم لم تعكس القضية فينصب الفاعل ويرفع المفعول ، وإيجابتهم بأن السبب أن الفاعل قليل ، لأنه لا يكون للمفعول إلا فاعل واحد ، فأعطى الأثقل الذي هو الرفع للمفاعل ، وأعطى الأخف الذي هو النصب للمفعول ليقل في كلامهم ما يستثقلون (٢) !! ولا أدري بماذا يجيبون لو سألتهم : ولكن لكل فعل فاعل ، وليس لكل فعل

(١) الانتصار لسيبويه من المبرد ، ص ٢١٢ — ٢١٣ •

(٢) الرد على النحاة لابن مضاء •

مفعول ، فمن الأفعال ما هو لازم ، ومنها ما يحذف مفعوله فعدد الفاعلين قد يكون أكثر من عدد المفعولين • وتعليلات الخليل وسيبويه كثيرة كثرة لافتة للنظر ، فهما — في نظرنا — المسئولان الأولان عن فتح هذا الباب ، وسن هذه السنة • وخذ مثالا آخر من تعليقاتهم المتى حكموها حتى في المقرئات القرآنية ، يقول سيبويه : « إنه لا يجوز العطف على المضر المجرور إلا بإعادة التخافض فلا يجوز مررت به ومحمد بل لا بد من أن يقال مررت به وبمحمد (برغم قراءة حمزة وهو من السبعة : [واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام]) • وعلى ذلك بأن الضمير شبیه بالتثوين • لذلك لا يجوز العطف عليه حتى لو أكد • فلا يجوز مررت به هو ومحمد (١) !! ويحكم سيبويه بأن الفعل ثقيل والاسم خفيف ويعمل ذلك بقوله : « ألا ترى أن الفعل لا بد له من الاسم وإلا لم يكن كلاما ، والاسم قد يستغنى عن الفعل تقول : الله إلهنا ، وعبد الله أخونا » (٢) • وقد بلغ من شدة اهتمام النحاة بهذا النوع من البحوث أن ألف فيه بعضهم كتباً مستقلة ، مثل قطرب (توفي ٢٠٦) الذي ألف « العلل في النحو » والمازني (توفي ٢٣٠ أو ٢٤٨) الذي ألف « علل النحو » (٣) •

• — استخدام النحويين أنواعاً من الأقيسة النظرية التي لا تعتمد على شاهد من كلام العرب ، كمنعهم تقدم الفاعل على فعله وإعرابهم الجملة : محمد قام على أنها مكونة من مبتدأ ثم جملة فعلية مكونة من الفعل وفاعله المستتر ، وأخيراً يعربون الجملة الفعلية خبراً لهذا المبتدأ • ولم يكتفوا بذلك ، بل فلسفوا القياس ، وبحثوا عن أركانه ثم حاولوا أن يحددوا شرائط القياس النحوي (٤) • وظهر سلطان المعلم الدينية على التفكير النحوي حتى اعترف النحاة بأنهم احتذوا في أصولهم أصول

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ٥١ .

(٢) الدكتور مازن المبارك : النحو العربي ، ص ٦٢ ، ٦٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) راجع : في أصول النحو للأفغاني ، ص ١٠٨ وما بعدها .

الفقه عند الحنفية خاصة • ونجد كمال الدين بن الأنباري من أهل المائة السادسة يضع كتابه « لمع الأدلة » ليكون للنحو بمثابة « علم الأصول » للفقه ، عقد فيه فصولاً عدة للقياس وأنواعه كما كان فعل علماء الفقه وأصوله ^(١) • وأخذ النحاة يتنافسون في هذه الأقيسة النظرية والافتراضات غير الواقعية • وممن تبادوا فيها الرمانى المولود سنة ٢٧٦ هـ ، وفيه يقول الفارسي : « إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء » ^(٢) • وبلغ من اعتداد النحويين بالقياس أن قال ابن الأنباري : « إن إنكار القياس في النحو لا يتحقق ، لأن النحو كله قياس • • فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو » ^(٣) • ونحن لا نستطيع — ولا غيرنا — أن نطالب بإغلاق القياس أو الحد منه وإنما نطالب بإلغاء ما ليس قياساً حقيقة • لقد قسم اللغويون القياس الى :

(أ) حمل كلمة على نظائرها في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب •
(ب) إعطاء كلمة حكماً ثبت لغيرها من الكلم المخالف لها في نوعها ، ولكن توجد بينهما مشابة من بعض الوجوه كترخيم المركب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بقاء التانيث •

(ج) القياس النظري الذي لا يعتمد على شاهد من كلام العرب كقول بعضهم : « ولا أمنع أن يجيء الفعل على فَعَلْنَ وإن كان المتقدمون لم يذكروه • لأن الاسم إذا جاء على ذلك وجب أن يجيء عليه الفعل إذ كان الاسم أصلاً والفعل متفرع عنه • وقد قالوا ناقة رعشن • • وامرأة خلبن • »

(د) أطلقوه كذلك على نوع من التعليل المنطقي كقولهم إن الفعل

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ ، ١٠١ •

(٢) نشأة النحو ، ص ١٧٣ •

(٣) الاقتراح ، ص ٤٦ •

المضارع أعرب لشبهه بالاسم أو قياساً على الاسم ، وما ادعوه في باب
المنوع من الصرف من أن الاسم يمنع من الصرف حملاً على الفعل
أو قياساً على الفعل (١) .

وليس منها ما يعد قياساً لغوياً على وجه الحقيقة سوى النوع الأول
الذي نتمسك به ونبقيه لأن النحو — كما يقول ابن الأنباري — قياس ،
ومن أنكر القياس فقد أنكر النحو . أما الأنواع الأخرى فلا يضر إلغاؤها .

٦ — تناولهم أموراً لا علاقة لها بالنحو ، ولا فائدة تؤدي إليها ،
لأنها لا تفيد نطقاً ولا تعصم لساناً ولا تمنع خطأ . وذلك مثل اختلافهم
في الناصب بعد الفاء والواو أهو هذه الأدوات نفسها ؟ أم « أن »
مضمرة ؟ أم أن الفعل منصوب على الخلاف ؟ ومثل خلافهم في رافع
المبتدأ والخبر ، فقل إن المبتدأ يرتفع بالابتداء والخبر بالابتداء كذلك
أو بالابتداء والمبتدأ معاً ، وقل إن المبتدأ والخبر يترافعان فيرفع المبتدأ
الخبر والخبر والمبتدأ . وكذلك خلافهم في رافع المضارع فقل هو
المتجرد من الناصب والجازم وقل وقوعه موقع الاسم وقل المضارعة
وقيل حروف المضارعة (٢) .

ومن ذلك أيضاً تناولهم مسائل غير عملية بل عقدهم أبواباً كاملة غير
عملية مثل أبواب الاشتغال والتنازع وتفريعتهم للمسائل وتشقيقتها .
ولنأخذ باب الاشتغال على سبيل المثال . فقد اضطرب النحاة في صور
تعبيره اضطراباً شديداً ، وقسموا صورته إلى ما يجب رفعه ، وما يجب
نصبه وما يترجح فيه الرفع أو النصب ، وما يجوز فيه الأمران . وتبحث
في كلام العرب عن أمثلة أو شواهد لكل هذا الذي قالوه ، فلا تجد
لعظمه وجهاً ، بل لا تجد له ذكراً .

(١) انظر : الخضر حسين : القياس في اللغة ، ص ٢٥ ، ٢٧ ، وشرح
الحماسة لأبي العلاء المعري ، ص ٢٦٣ .

(٢) راجع : الإنصاف ٣١/١ ، الكافية ١٩/١ ، ٢٢٤/٢ ، الاثموني
٢٩٩/٣ — ٣٠٠ ، ٢٨١ — ٢٨٢ .

ومن ذلك المسائل الافتراضية التي عالجها النحاة ، والمتمارين غير العملية التي فتح الخليل وسيبويه بابها على مصاريعه — على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف — ومن ذلك ما ذكره سيبويه من أنه سأل الخليل عن رجل سمى « أولو » من قوله عز وجل : (نحن أولو قوة) أو سمى « ذوو » من قولهم : ذوو عزة ، وكيف يجرى إعرابهما بحسب مواقع الكلام . وكذلك سؤال سيبويه أستاذه عن رجل يسمى « يرمى » أو « أرمى » ^(١) . ومن ذلك قول سيبويه : « وإن سميت رجلا ضربوا فيمن قال : أكلوني البراغيث قلت : هذا ضربون قد أقبل » . ومن خير ما يصور ذلك عنده « باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ولم يجرى في الكلام إلا نظيره من غير المعتل » ، ويأخذ في عرض ذلك عرضا يطول حتى يشغل أكثر من أربع صفحات طويلة . وكأها في صينج من بنات أفكاره يحاول أن يقيسها على صينج معروفة ^(٢) . ومن أمثلة ذلك في كلام المبرد قوله : « فإذا قال لك ابن من ضرب مثل جعفر فقد قال لك : زد على هذه الحروف الثلاثة حرفا . فحق هذا أن تكرر لامه فتقول : ضرب ولو قال لك ابن لى من ضرب على مثال صمصح لقلت : ضرب (٣) . ومثل هذا نجده في قوله : « ولو قلت افعلعل من القول لقلت اقوول ومن البيع اببيع وكان أصلها ابيريع » ^(٤) .

وقد ضاق طلاب النحو من قديم بطريقة النحاة هذه ، وظهرت دعوات متعددة على طول تاريخ النحو العربى ، منها ما يدعو الى تهذيب النحو ، وإصلاحه ، ومنها ما يدعو الى تركه والتخلى عنه بالكلية ، ومنها ما كان يعبر عن سخط وضجر . كما ظهرت محاولات عملية لتأليف النحو تأليفا تعليميا سهلا يطرح الخلافات ويتخلص من الأبواب غير العملية والمسائل التدريجية . وانتهاز الشعوبية فرصة الضجر من النحو والنحاة

(١) المدارس النحوية ، ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٣) المقتضب (مخطوط) ، ص ٣٧ .

(٤) المرجع نفسه ص ١١٩ . وانظر ص ١٢٠ ، ١٢٨ .

فأخذوا يصيدون في المساء العكر وينتصون من قعر هذه الدارسة
ويتلمسون الأدلة والأسباب لتقولاتهم • ويحكى لنا أبو جعفر النحاس
(من نحاة القرن الرابع بمصر) طرفا من هذه القضية في كتاب له بعنوان
« صناعة الكتاب » لم يصلنا ، ولكن اقتبس القلقشندي في كتابه « صبح
الأعشى » • ونص عبارته : « قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر
الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجون بما
يزعمون أن المقاسم بن مخيمرة قال : (النحو أو له شغل وآخره بنغى)
قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل وأول الحساب شغل ،
وكذلك أوائل العلوم • أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أزلها
شغل ؟ قال : وأما قوله : (وآخره بنغى) إن كان يريد به أن صاحب
النحو إذا حذقه صار فيه زهو واستحقر من يلحن فزدا موجود في غيره
من العلوم ، من الفقه وغيره في بعض الناس وإن كان مكروها • وإن
كان يريد بالبنغى التجاوز فيما لا يحل ، فهذا كلام محال ، فإن النحو
إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن ، وهي لغة النبي ﷺ وكلام
أهل الجنة وكلام أهل السماء • ثم قال بعد كلام طويل : وقد كان الكتاب
فيما مضى أرغب الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل
فيهم من لا يستحق هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب
الحساب وبعدت عليهم معرفة الهمزة التي ينضم ويفتح ما قبلها » (١) •
وقد ظهر ضيق الناس بالنحو حتى قبل استفحال أمر الشعوبية ،
وحتى من طلاب النحو المتفرغين • فالجاحظ يقول في حيوانه : « قلت
للأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك
مفهومة كلها ؟ وما بالناس نفهم بعضها ، ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك نقدم
بعض العويص ، وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضغ كتبى
هذه لله ، وليست هي من كتب الدين • ولو وضعتها هذا الوضع الذي
تدعوني إليه قلت حاجاتهم إلى فيه • وإنما قد كسبت في هذا التدبير ،
إذ كنت إلى التكسب ذهبت • » (٢) ويروى عن دماذ صاحب أبى عبيدة

(٢) الحيوان ٩١/١ ، ٩٢ •

(١) صبح الأعشى ١٧١/١ •

أنه قرأ من النحو الى بابى الفاء والواو ، فلما استمع الى قول الخليل وأصحابه أن ما بعدهما ينتصب بأن مضمرة وجوبا نبا فهمه عن ذلك وكتب الى المازنى يشكو إليه ما لقيه من عنت فى أبيات ختمها بقوله :

لقد كدت يا بكر من طول ما أفكر فى بابه أن أجن (١)

وأخذ رد الفعل الإيجابى لهذا الضجر شكلين منتجين :

أحدهما : الكتب الميسرة التى تلبى حاجة الطلاب والمتعلمين .

ونكتفى بضرب المثليين الآتيين :

(أ) « مقدمة فى النحو » تأليف خلف الأحمر البصرى المتوفى سنة ١٨٠ هـ . وقد استهل المؤلف كتابه قائلا : « لما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل ، وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلم المتبلف فى النحو من المختصر .. والمأخذ الذى يخف على المبتدئ حفظه ويحيط به فهمه ، فأمنت النظر والفكر فى كتاب أولفه ، وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين ليستغنى به المتعلم عن التطويل ، فعملت هذه الأوراق ، ولم أدع فيها أصلا ، ولا أداة ، ولا حجة ، ولا دلالة إلا أمليتها فيها . فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علم أصول النحو كله » .

ومن عناوين هذا الكتاب وأبحاثه :

— باب الحروف التى ترفع كل اسم بعدها :

وهى إنما وكأما وهل وهل وهو وأين ...

— باب الحروف التى تنصب كل شيء أتى بعدها :

وهى رأيت وظننت وحسبت ووجدت ...

(١) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

— باب الحروف التى تخفض ما بعدها من اسم وأخبارها مرفوعة ،
ويقال لها حروف المصفات وهى :

من والى وعن وعلى وتحت ودهون ووراء •• وكذا وبعض وغير ••
وأطيب وأكذب وأفرس وأشجع ••• (١) •

(ب) « التفاحية فى النحو » لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ (٢)
والكتاب يتناول موضوعات النحو وحدها (ولا يتناول أى موضوعات
صرفية) ، ويحتوى على واحد وثلاثين فصلا منها : باب أقسام العربية —
باب الإعراب — باب رفع الاثنين — باب أقسام الفعل — باب المفاعل
والمفعول به — باب الابتداء — باب حروف الخفض — باب الحروف التى
تنصب الأسماء وترفع الأخبار — باب الحروف التى تنصب الأفعال المستقبلة •
وتنصب الأخبار — باب الحروف التى تنصب الأفعال المستقبلة •

والكتاب صغير الحجم جداً إذ يقع فى ثمانى ورقات من مخطوطة
المكتبة المتوكلية بصنعاء ، ولكنه مفيد جداً لأنه يحوى جميع مبادئ النحو
وقواعده الرئيسية • وقد ساعده على الاختصار طرحه الخلافات النحوية ،
واعتماده على اللغة الأدبية المشتركة وترك الخلافات اللهجية ، وحذفه
المشواهد وأسماء النحاة ، واستبعاده المناقشات المنطقية والفلسفية •

وقد خلا الكتاب — الى جانب ذلك — من الأبواب غير العملية مثل
باب الاشتغال ، وباب التنازع ، بل تجاهل صيغة « أفعل به » فى التعجب
وذلك لعدم اشتهاها •

وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفى فى تقعيد القواعد ، ومن أجل ذلك
عد فى باب حروف الخفض كثيراً من الكلمات التى يعتبرها النحو التقليدى

(١) مقدمة فى النحو — أماكن متفرقة •

(٢) ينسب الكتاب خطأ الى الخليل بن أحمد ، انظر فهرست المخطوطات

لفؤاد سيد ٧١/١ •

ظروفا ، مثل أسفل وخلف وقدام ووراء وفوق وتحت ووسط وبين •
والسر في ذلك أنه نظر الى وظيفة الكلمة في الجملة فوجدوها لا تختلف في
« على » عنها في « فوق » مثلا • فلماذا لا يجعلها كلها في فصل واحد ؟
وأى فرق — في الحقيقة — بين قولنا : الكوب على المائدة ، والكوب
فوق المائدة حتى نعد الأول من قبيل حرف الجر والمجرور ، والثانى
من قبيل الظرف والمضاف إليه ؟

وواضح من عنوان الكتاب ، ومن طريقته في تناول المسائل أنه وضع
لكتاب مدرسى يلبنى حاجة طلاب العربية ودارسى النحو المتعجلين •
ولذلك فللكتاب قيمة كبيرة من الناحية التعليمية •

والآخر : تقديم المقترحات لإصلاح النحو أو تيسيره ، ونقد النحو
ومناهج النحاة • ومن أقدم من تصدى لذلك :

١ — أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المصرى (القرن الرابع)

٢ — أبو العلاء المعرى الشاعر المعروف (القرن الخامس)

٣ — ابن حزم الأندلسى (القرن الخامس)

٤ — ابن مضاء الأندلسى (القرن السادس)

أما ابن ولاد فهو أقدم الأربعة ، وقد نادى بالمبادئ الآتية :

(أ) لا يصح الطعن على العربى أو رميه باللحن أو الخطأ أو تقديم
المقياس النظرى على المادة اللغوية المسموعة • وفى هذا يقول ردا على
المبرد : « إن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب ، فهذا رجل يجعل
كلامه فى النحو أصلا ، وكلام العرب فرعا ، فاستجاز أن يخطئها إن
تكلمت بفرع يخالف أصله » ، ويقول : « الذى للغوى أن يفعل أن يمثل
ويقتل ما جاء عن العرب فأما أن يرده فليس ذلك له » •

(ب) أنه يجب الوقوف عند المادة اللغوية المسموعة ، ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس المنطرى فهناك من الأساليب والكلمات ما يصح فى القياس ولكنه لم يسمع ، فيجب أن نقف عند ما قالته العرب ولا نغيره • يقول ابن ولاد : « لا ينظر الى القياس فقط دون ما تتكلم به العرب • فإن العرب يمتنعون من التكلم بالشئ وإن كان القياس يوجب ، ويتكلمون بالشئ وإن كان القياس يمنعه » • ويقول « سبيل النحويين اتباع كلام العرب إذ كانوا يقصدون الى التكلم بلغتهم • فأما أن يعملوا قياسا — وإن حسن — يؤدى الى غير لغتها فليس ذلك لهم ، وهو غير ما بنوا عليه صناعتهم » •

(ج .) كذلك هاجم ابن ولاد التأويل والتقدير فى النحو ، وادعاء الحذف والإضمار ، وقد سبق أن مثلنا لذلك بإعراب قوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) (١) •

وأما أبو العلاء المعرى فتتمثل دعوته الى الإصلاح فى ثورته العارمة على مبدأ التأويل والتقدير • ولم يكن هناك ما يغيظه أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأويلات النحاة ، وتكلفاتهم ، وتخريجهم بعض الآيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة • وكثير من نقده ينصب على هذا الجانب من نحو النحاة • وقد سدد المعرى معظم سهامه الى نحاة البصرة الذين أكثروا من التأويل والتقدير ، وتعسفوا غاية التعسف فى تخريج كثير من الشواهد لتستقيم مع أصول مذهبهم • وقد أمتلأت مؤلفات المعرى بأمثلة لذلك ولكننا سنكتفى بعرض نماذج منها :

(١) يمنع سيبويه وكثير من النحويين أن يلى كان معمولا الخبر • وهم يؤولون ما ورد كذلك ويقدرّون ما يستغنى الكلام عنه ، كما قالوه فى قول الشباعر :

(١) انظر أيضا مقالنا عن كتابه « الانتصار » فى مجلة كلية المعلمين ، الجامعة الليبية ، العدد الأول .

قنافظ دراجون حول خباثتهم بما كان إياهم عطية عودا

فيقدرون ضمير الشأن في « كان » محله الرفع على أنه اسمها ، ويعربون « عطية » متبداً ، وجملة « عود » خبره ، و « إياهم » منصوبة بـ « عود » وجملة المتبداً وخبره خبر « كان » • أو يعربون « ما » موصولة واسم « كان » ضميراً مستترا يرجع الى « ما » و « عطية » مبتدأ « وعود » خبره « وإياهم » مفعولاً مقدياً والمائد محذوف • الى آخر ما قالوه في توجيه البيت • ولكن المعري بخوفه العربي يرفض هذه الأعراب قائلاً : والإشبه بمذاهب العرب أن يكون عطية مرفوعاً بـ « كان » « وإياهم » منصوباً بـ « عود » (١) •

(ب) وأبدع خيال المعري مشهداً لطيفاً وقف فيه أبا على الفارسي في الجنة موقف المتهم : « وكنت رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي على الفارسي ، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا • منهم يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول : ويحك ! أنشدت عنى هذا البيت برفع الماء ، يعنى قوله :

فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى
ولم أقل إلا الماء بالنصب • وكذلك زعمت ••• وإذا رجل آخر يقول : ادعيت على أن الماء راجعة الى الدرس في قولى :

هذا سراقه للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلحقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك •• » (٢) •

وأما ابن حزم الأندلسي فقد هاجم عال النحو ورأى أنها « كلها فاسدة لا يرجع منها شيء الى الحقيقة ألبتة • وإنما الحق من ذلك أن

(١) عبث الوليد ، ص ٨٠ •

(٢) رسالة الغفران ، ص ١٥٢ — ١٥٤ •

هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم في ضبطها ، وما عدا هذا فهو — مع أنه تحكم فاسد متناقض — فهو أيضاً كذب ، لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل الى كذا . . . شيء يعلم كل ذى حس أنه كذب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت الى ما سمع منها بعد ذلك » (١) . كما كان من رأيه أن التعمق في بحث مسائل النحو إفساد وأنه يجزىء في النحو كتاب الواضح للزبيدي أو الموجز لابن السراج . أما « التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها » بل هي مشغلة عن الأوكد ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هي نكاذيب » (٢) .

وأما ابن مضاء القرطبي فقد ألف كتاباً في شرح آرائه الهجومية أسماء « الرد على النحاة » . وقد قام الأساذ الدكتور شوقي ضيف بتحقيقه وكتابة مقدمة وافية له يجب الرجوع إليها لمن يريد أن يعرف منهج ابن مضاء في نقد النحو والنحاة . وكانت غاية ابن مضاء أن يحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأن ينبه على ما اجتمعوا على الخطأ فيه . وتتحقق هذه الغاية في رأيه بإلغاء نظرية العامل ، وإلغاء العمل الثرائى والثوالث ، وإبطال القياس ، وترك المسائل النظرية ، وإسقاط كل مالا يفيد في المنطق (٣) .

قيمة الدراسات النحوية عند العرب :

على الرغم مما شاب النحو العربى من شوائب ، وما وجه إليه من نقد ، فلا أحد يستطيع أن ينكر قيمة النحو العربى ، ومقدرة النحاة الفائقة التى تصل أحيانا الى حد الإعجاز . يقل الأستاذ عباس حسن : « أينما لا تبهره تلك العناية المعجزة التى بذلها الأولون في جمع أصول

(١) نظرات في اللغة عند ابن حزم الاندلسى ، ص ٤٤ — ٤٦ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) النحو العربى للدكتور مازن المبارك ، ص ١٥٣ . وقد نبه المؤلف الى بعض الأفكار التى نادى بها ابن مضاء ولها نظير عند السابقين . وانظر بحثنا : دعوات الإصلاح للنحو العربى قبل ابن مضاء .

اللغة ، ولم تستأنها ، واستتباط أحكامها العامة والفرعية وحياطتها بسياسج
من اليقظة الواعية والحيطة الوافية » (١) • بل إن ابن مضاء — برغم
عدائه الشديد للنحاة — يقول : « وإننى رأيت النحويين •• قد وضعوا
صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن •• فبلغوا من ذلك الغاية
التي أموا » (٢) • وهذا ما دعا أحد المستشرقين الى قوله : « إن علم
النحو أثر من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة فى الملاحظة ونشاط
فى جمع ما تفرق • وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب
أن يفخروا به » (٣) وحمل يوهان فك على أن يقول : « ولقد تكفلت
القواعد التى وضعها النحاة العرب — فى جهد لا يعرف الكلال ، وتوضحية
جديرة بالإعجاب — بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها ••
حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يمح
بزياء •• مستزيد » (٤) ويقول فيشر فى مقدمة معجمه : « إذا استثنينا
الصين لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ،
وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها حسب أصول وقواعد
غير العرب » (٥) •

(١) رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية ، ص ١٠ •

(٢) الرد على النحاة ص ٨٠ •

(٣) مجلة الأزهر ، رمضان سنة ١٣٩١ هـ ، ص ٤٠ •

(٤) العربية ، ص ٢ •

(٥) المعجم اللغوى التاريخى ، ص ٤ •

الفصل الرابع

المعجم

١ - مقدمات للموضوع

صعوبة العمل المعجمي :

يعد العمل المعجمي من أصعب مجالات النشاط لعلم اللغة * فهو أولا يتطلب مواصفات خاصة في صانعه يندر توافرها الآن ، وهو ثانيا يتطلب دقة وصبرا متناهيين ولذا يقول Gleason : « إن عمل المعاجم عمل مضجر الى أقصى حد * إنه الدقة * إنه عبء عظيم لا يمكن تصديقه » * والى جانب هذا وذاك فإن العمل المعجمي يستلزم معرفة كل شيء عن اللغة المعنية ، والخصائص الملائمة لوحدها المعجمية ، والنظام العام للغة ، كما يستلزم تكوين صورة واضحة عن مستعمل المعجم وهدفه وتفكيره .

وبالإضافة الى هذه الصعوبات فهناك صعوبتان أخريان هما :

١ - أن المعجمي يعالج ظاهرة مفتوحة لا تستقر على حال * ولذا فإن أى محاولة لحصر كلمات أى لغة حية تعد مطلبا عزيز المنال إن لم يكن مستحيلا ويظل المعجمي في حالة تساؤل دائم عن مدى تحقيق معجمه للشمول ومقدار قربه أو بعده من الجمع الكامل لمادة اللغة .

٢ - أن المعنى هو المحل الأول لاهتمام المعجمي ، وهو يمثل صعوبة في حد ذاته بل عده بعضهم واحدا من أصعب حقول الدراسة (١) .

(١) Manual of lexicography ص ١٥ - ٢٣ .

تعريف المعجم :

عرف اللغويون المعجم بأنه « كتاب يضم بين دفتيه مفردات لغة ما ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة ، وكيفية نطقها ، وكتابتها ، مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب التي غالبا ما تكون الترتيب الهجائي » • وعرفه المعجم الوسيط بأنه « ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف المعجم » •

المعجم اللغوى والموسوعة :

يتمثل الفرق بين المعجم اللغوى والموسوعة في اختلافات ثلاثة ، أولها أن الموسوعة معجم ضخم يشغل مجلدات كثيرة في حين أن المعجم اللغوى يتفاوت حجمه تبعا للغاية المنشودة ولتنوعية مستعمله • وثانيها أن المعجم اللغوى لا يهتم كثيرا بالمواد غير اللغوية ، وإذا ذكرها فبصورة مختصرة جدا لأنه يترك تفصيلاتها للموسوعات • ومن أمثلة المواد غير اللغوية التى لا يهتم بها المعجم أسماء الأعلام ، والأسماء الجغرافية مثل الأقطار والمدن والأنهار والجبال والبحار والمحيطات •• ، والأحداث والعصور التاريخية ، والتنظيمات الحكومية وغير الحكومية ، والمؤسسات العلمية وغيرها • وثالث الاختلافات أن المعجم اللغوى يهتم بالوحدات المعجمية للغة وبالمعلومات اللغوية الخاصة بها في حين أن الموسوعة الى جانب اهتمامها بالمعاني الأساسية للوحدات المعجمية تعطى معلومات عن العالم الخارجى غير اللغوى ، فالمعجم اللغوى يشرح الكلمات ، أما الموسوعة فتشرح الأشياء •

ولو أخذنا كلمة bridge أو جسر على سبيل المثال ونظرنا إليها في عملين معجميين أحدهما لغوى ويمثله معجم أكسفورد الإنجليزى ، والآخر موسوعى ويمثله دائرة المعارف البريطانية لتبين الفرق بين العاملين في علاج المسألة •

فمعجم أكسفورد يذكر معناه وهو : طريق مرتفع فوق نهر أو واد • الخ أو ممر يصل نقطتين مرتفعتين عن سطح الأرض • كما يتحدث عن اختلافات أشكال الجسور ومواد بنائها ، ويقتبس بعض الأمثلة من عصور مختلفة • في حين أن دائرة المعارف البريطانية بعد أن عرفت الجسر أردفت التعريف بمعلومات تتناول أشكال الجسور وتعدد نماذجها (جسور ثابتة — جسور متحركة • الخ) كما تتناول إنشاء الجسور من ناحية تاريخية ، وتذكر أسماء الجسور المشهورة بنماذجها ، ومواد بناء الجسور ، وتصميم الجسور ، بالإضافة الى بعض الجداول والرسوم •

ولكن لأن الكلمات لا تظهر معانيها إلا بالنظر الى الأشياء التي تدل عليها فإنه من غير الممكن تأليف معجم دون الإشارة الى الأشياء الخارجية ، ودون ربط الكلمات بالموجودات التي تدل عليها •

أنواع المعاجم :

عادة ما تطلق كلمة « معجم » على المعاجم الشاملة أحادية اللغة ، أى التي تتطابق فيها لغة المدخل مع لغة الشرح •

ولكن الكلمة قد تطلق كذلك على ما يسمى بالمعاجم الخاصة ذات المجال المحدود فيقال معجم مصطلحات — معجم مترادفات — معجم ألفاظ القرآن الكريم • الخ كما تطلق على المعاجم ثنائية (أو متعددة) اللغة ، وهى المعاجم التي تختلف فيها لغة الشرح عن لغة المدخل ، وتهتم بتقديم المعلومات عن اللغة المشروحة أكثر مما تهتم باللغة الشارحة ••

معنى كلمة معجم واشتقاقها :

تفيد مادة « عجم » فى اللغة معنى الإبهام والغموض ؛ ففى اللسان : « الأعجم الذى لا يفصح ولا يبين كلامه » ، وفيه : « ورجل أعجمى وأعجم اذا كان فى لسانه عجمة » ، وفيه « سميت البهيمة عجماء لأنها

لا تتكلم » • وسمى العرب بلاد فارس بلاد العجم لأن لغتها لم تكن واضحة ولا مفهومة عندهم •

فإذا أدخلنا الهمزة على الفعل « عجم » ليصير « أعجم » اكتسب الفعل معنى جديداً من معنى الهمزة (أو الصيغة) الذى يفيد هنا السلب والنفي والإزالة • ففى اللغة أشكيت فلاناً : أزلت شكايته ، وفيها : أقذيت عين الصبى : أزلت ما بها من قذى • ومثلها « قسط » و « أقسط » حيث تنفيذ الأولى « ظلم » والثانية « عدل » (أو أزال الظلم) • ولهذا ذم الله المتأسطين : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » ومدح المقسطين : « إن الله يحب المقسطين » •

وعلى هذا يصير معنى أعجم : أزال المعجمة أو الغموض أو الإبهام • ومن هنا أطلق على نقط الحروف لفظ « الإعجام » لأنه يزيل ما يكتنفها من غموض • فمثلاً حرف « ب » يحتمل أن يقرأ ب أو ت أو ث • • فإذا وضعنا النقط أى أعجمناه زال هذا الاحتمال وارتفع الغموض •

ومن هنا أيضاً جاء لفظ « المعجم » بمعنى الكتاب الذى يجمع كلمات لغة ما ويشرحها ويوضح معناها ويرتبها بشكل معين • ويكون تسمية هذا النوع من الكتب معجماً إما لأنه مرتب على حروف المعجم (الحروف الهجائية) ، وإما لأنه قد أزيل أى إبهام أو غموض منه ، فهو معجم بمعنى مزال ما فيه من غموض وإبهام •

وقد فهم من هذا أن لفظ « معجم » يعد اسم مفعول من الفعل « أعجم » ويحتمل من ناحية أخرى أن يكون مصدرأ ميمياً من نفس الفعل ، ويكون معناه الإعجام أو إزالة المعجمة والغموض •

جمعها :

تجمع كلمة « معجم » جمع مؤنث سالماً على « معجمات » وهذا محل اتفاق بين جميع اللغويين •

وهناك جمع آخر لهذا اللفظ وهو « معاجم » الذى يعد جمع تكسير • وقد اختلف فى صحة هذا الجمع ، فالمتشددون يمنعون قائلين : إن سيبويه قد نص على أنه لا يصح أن يجمع جمع تكسير كل ما بدىء بميم زائدة من أسماء الفاعلين والمفعولين • وغير المتشددين يسمحون به بناء على وجود ألفاظ كثيرة من هذا القبيل جمعت جمع تكسير مثل محرّم ومحارم ، ومترسك ومراسل ، ومجسّد ومجاسد ، ومسنّد ومساند ، ومصعّب ومصاعب ، ومهرع ومهارع ^(١) وقد اتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤخراً قراراً بصحة هذا الجمع •

شروط المعجم :

هناك شرطان لا بد من توافرها فى أى كتاب يجمع مفردات اللغة ويشرحها • هذان الشرطان هما :

(أ) الشمول •

(ب) الترتيب •

ويعد الشمول أمراً نسبياً تتفاوت المعاجم فى تحقيقه • أما الترتيب فلا بد من توفيره ، وإلا فقد المعجم قيمته • وقد كان تعدد طرق الترتيب المعجمى عند العرب ، وتفاوت هذه الطرق صعوبة وسهولة سبباً فى موت معاجم وحياة أخرى ، وخمول بعضها وشيوع أخرى •

وظيفة المعجم :

هناك مجموعة من الوظائف يجب أن يؤدّيها المعجم وهى :

(أ) شرح الكلمة وبيان معناها أو معانيها ، إما فى العصر الحديث فقط أو مع تتبع معناها أو معانيها عبر العصور •

(١) انظر كتابنا : من قضايا اللغة والنحو ، ص ١٨١ وما بعدها •

- (ب) بيان كيفية نطق الكلمة .
- (ج) بيان كيفية كتابة الكلمة .
- (د) تحديد الوظيفة الصرفية للكلمة .
- (هـ) بيان درجة اللفظ في الاستعمال ، ومستواه في سلم القنوعات اللهجية .

(و) تحديد مكان النبر في الكلمة . والنبر باختصار هو إعطاء بروز معين لأحد مقاطع الكلمة دون المقاطع الأخرى . ولما كان النبر في اللغة العربية الفصحى لا يؤدي انتقاله من مقطع الى مقطع الى تغيير المعنى ، فإننا نجد المعجميين العرب يهتمون ببيان موقع النبر في الكلمة ، وإن كنا نرى أن بيان موضعه ضرورى لمن يريد تحقيق النطق العربى الفصحى ، كما أنه ضرورى بالنسبة لمن يريد أن يتعلم كيفية النطق الحديث للهجات العربية .

أما المعاجم الأجنبية ، وبخاصة مع اللغات التى يختلف فيها معنى الكلمة تبعاً لموقع النبر ، فقد اهتمت ببيان موضع النبر عن طريق علامة تضعها فوق المقطع المنبور . ومثال ذلك كلمة import الإنجليزية فإذا وضعنا النبر على المقطع الأول كانت اسماً ، وإذا وضعناه على المقطع الثانى كانت فعلاً ومثلها كلمات : Present, subject وغيرها (١) .

وبالنسبة للهجات العربية المعاصرة فإنه لابد لأى معجم لها أن يحدد موضع النبر فى الكلمة لأنه يختلف من منطقة الى منطقة . فمثلا كلمة « كتب » تنطق فى القاهرة بنبر الأول وفى منطقة الصعيد بنبر الثانى ، وكلمة « مطر » تنطق فى مصر بنبر الأول وفى ليبيا بسكون اليمم وتشديد الراء .. وهكذا .

(١) انظر موضوع النبر فى كتابنا « دراسة الصوت اللغوى » ..

الخطوات الإجرائية لإعداد المعجم :

أصبح للمعجم الحديث مواصفات عالية يجب توافرها في كل معجم ، كما استقرت منهجيته في جملة من الإجراءات التي أهمها :

أولاً : التقديم بين يدي المعجم بمقدمة تحدد منهجه ، وطريقة ترتيبه ، ووسائل ضبط الهجاء والنطق فيه ، وكيفية تصنيفه المعاني والدلالات ، ووسائل التعريف المتبعة ، وشرح الرموز والعلامات والاختصارات المستعملة في المعجم • كما تشمل المقدمة عرضاً سريعاً لتاريخ اللغة وأنظمتها الصوتية والصرفية والدلالية ••

ثانياً : السير في تأليف المعجم على الخطوات الآتية :

(أ) جمع المادة ، ويتم عن طريق الاستخلاص من النصوص التي تقع في دائرة اهتمام المعجمي مع وضع كل مفرد في بطاقة • ولا يهم أن تكون المادة مكتوبة أو شفوية • ولكن ينبغي الحذر في تسجيل المادة الصحفية لأنها كثيراً ما تستعمل تعبيرات متكررة في مناسبات خاصة ، كما تستخدم مفردات ابداعية سريعة ، ويندر أن تلتزم بمستوى لغوي معين • ولكن مسح النصوص الصحفية هام لأنها في أخبارها ومقالاتها الافتتاحية تحتوي على أحدث مادة معاصرة بالنسبة للموضوعات التي تعالجها •

والنص الذي يجب اقتباسه في كل بطاقة لابد أن يشتمل على جزء السياق اللغوي الذي يسمح باستنتاج المعنى الأساسي للكلمة ، وبعض من ملامحها الدلالية ، وخصائصها النحوية • إنه يجب أن يكون مختصراً ، ولكنه يجب كذلك أن يكون واضحاً •

وقد يستعان في جمع المادة بوسيلتين أخريين أولاهما ما يمكن أن يسمى بالدليل اللغوي Informant الذي يلجأ إليه في تمثيل اللغة كما ينطقها ويستمعها أبناءها ، وفي تكملة بعض الثغرات التي لم يملأها

الجمع اللغوى • والأخرى استشارة المعاجم الأخرى فى اللغة موضوع
الدراسة • بل قد يحدث أحيانا أن يكون أحد المعاجم هو الأساس
لعمل المعجم الجديد •

(ب) الخطوة الثانية من عمل المعجم اختيار المداخل أى الوحدات
المعجمية التى سيتضمنها المعجم •

ويؤثر فى هذا الاختيار جملة من العوامل منها ما سبق اتخاذه من
قرارات عن نموذج المعجم والهدف من تأليفه • ومنها حجم المعجم
المقترح ، فمعجم كبير أو متوسط لا يصح أن يهمل ذكر التنوعات العامة
للغة • ومعجم كبير أو متوسط يجب أن يهتم بمصطلحات العلوم والفنون
وأن يذكر منها ما يشيع فى اللغة العامة • ومعجم كبير أو متوسط لابد أن
يعطى إشارات لأسماء الأماكن ذات الأهمية الخاصة ، وأعلام الأشخاص
إذا اشتهرت ، أو حملت معنى عاما ، أو كان لاشتقاقها أهمية خاصة •

وأهم من هذا يأتى السؤال : ماذا يأخذ المعجمى من المادة وماذا
يترك حتى بعد أن يحدد نموذج المعجم وهدفه وحجمه ؟ فليس هناك
عدد معين من المواد يمكن تصديده مسبقا بالنسبة لأحجام المعاجم
الثلاثة : الصغير والمتوسط والكبير • وإن كان هناك أعداد تقريبية تطرح
لكل نوع • فالصغير يبدأ من ١٢٠ ألف كلمة الى ١٥٠ ألف كلمة ، والمتوسط
من نصف مليون كلمة الى مليون (وقد احتوى المعجم الرسيط على مليون
كلمة أو ثلاثين ألف مادة) والكبير فى حدود ثلاثة ملايين كلمة •

وقد يلجأ المعجمى فى اختيار مداخله الى نسب تردد الكلمات حين
يتيسر له ذلك (كثير من اللغات يخلو من هذه النسب) وإن كان بعضهم
يشكك فى قيمة هذا العامل ، ويرى عدم الاعتماد على الإحصاء فى اختيار
كلمات المداخل لأنه لا يوجد عد دقيق تحت أيدينا حتى الآن ، ولأن أى

عد يعتمد على العينات لا على مسح المادة اللغوية ، ولأن أى عد لم يتضمن حتى الآن تجمعات الكلمات •

(ج) أما الخطوة الثالثة من عمل المعجمى فهى تأليف المداخل أو معالجة المادة من نواحيها المختلفة كالمعنى ، والنطق ، والهجاء ، والاشتقاق ، ودرجة الاستعمال •

ويقع المعنى فى بؤرة اهتمام المعجمى ومع ذلك فهو يمثل أكبر صعوبة تواجهه لصعوبة تحديده أولا ، ولاعتماد دقة تفسيره على جملة من القضايا الدلالية التى تتعلق بمنهج دراسة المعنى ، وشروط التعريف ، والتغير الدلالى ، وتخصيص المعنى أو تعميمه ، والمعانى المركزية والهامشية والإيحائية ، وصعود المعنى أو هبوطه ، والتلطف فى المخاطبة أو البدائل الدلالية المهذبة ، والاتساع المجازى ، والترادف ، والاشتراك اللفظى ، وتعدد تطبيقات الاستعمال ، وغيرها •

ويلجأ المعجمى الى طرق مختلفة لعرض المعنى أو تفسيره ، فقد يلجأ الى المرادف كأن يقول : الجود : الكرم ، السببات : النوم • وقد يلجأ الى ذكر المضاد كأن يفسر العدل بأنه ضد الظلم ، أو اللجهل بأنه ضد العلم ، وقد يلجأ الى الشرح فى جملة أو عبارة • وهناك شروط حددها العلماء للتعريف الجيد الذى يعطى خصائص واضحة وشرحا محددا لمعنى الكلمة أو معانيها كأن يخلو الشرح من أى كلمة تعتمد على جذرها حتى لا يخرج القارئ من قراءة التعريف صفر اليدين •

وقد فسر معجم انجليزى كلمة negro بقوله of the Negro race وقد كان يقبل هذا التعريف لو أن المعجم خصص مدخلا لـ Negro race ولكنه لم يفعل ذلك مع الأسف • وكان المطلوب فى مثل هذه الحالة إعطاء خصائص هذا الجنس كالسواد ، والمواطنة الأصلية فى إفريقيا ، والشفة الغليظة ، والشعر المجعد • الخ •

كما يشترط في التعريف أن يكون محددا فلا يقال مثلا عن « القَدَم »
أو « المتر » إنه وحدة لقياس الطول ، بل لابد من تحديد قياسه لتحديد
الفرق بينه وبين غيره من مقاييس الطول • وقد يلجأ المعجمي الى
وسيلتين أخريين إضافيتين لتحديد المعنى كالاستعانة بالصور أو
الرسوم ، أو الاستعانة بما يسمى « بالتعريف الظاهري » « أو التمثيل
الواقعي » الذي يعطى مثالا أو أكثر من العالم الخارجى • فبدلا من
الاكتفاء في تفسير « البياض » بأنه لون « الأبيض » كما تفعل كثير من
المعاجم يتبع ذلك بقوله : وهو لون الثلج النقى ، أو ملح المسائدة المكرر •

ولا يستغنى توضيح المعنى عن شيئين آخرين هما التمثيل بجمل
مفيدة قصيرة ووضع الكلمة في سياقاتها المتعددة التى تقع فيها مثل الفعل
« أدرك » الذى يستعمل في سياقات متعددة ويختلف معناه تبعاً لذلك
فيقال : أدرك القطار : اذا لحقه ، وأدرك حاجته : اذا حققها وحصل
عليها ، وأدرك الصبى : اذا راهق وبلغ حد البلوغ • ويمكن للتمثيل
الجيد أن يوظف لخدمة المعنى فيقوم بتوضيح ظلال المعانى ، والمجالات
التي ترد فيها الكلمة ، والصفات المصاحبة ، ونوع المفعول مع الفعل ،
والمصاحبات الظرفية • الخ • فإذا نحن عرفنا « الجميل » بأنه ما يعطى
بهجة أو رضا للعقل أو الحس فلا شك أن التمثيل سيزيد المعنى وضوحا
كأن نقول : وجه جميل — زهرة جميلة — صوت جميل — طقس جميل —
موسيقا جميلة • الخ •

ولا يكتفى المعجمي بشرح المفردات بل لابد كذلك أن يشرح التعبيرات
وبخاصة اذا لم يكن من الممكن فهمها من أجزائها المكونة • مثل : الكتاب
الأسود ، الراية البيضاء ، ركوب الرأس ، طول اليد •

كما لابد أن يعالج الكلمات ذات الوحدات المتعددة (المركبة)
مثل : الماء الثقيل — السروق السوداء — الهواء الطلق — بيضة الديك —
بقرة بنى اسرائيل — قميص عثمان — كبد السماء • الخ • ومن الممكن

في مثل هذه الوحدات أن توضع تحت الكلمة الأولى منها ، أو تحت أسبق الكلمتين في ترتيب المعجم ، أو تحت الكلمتين مع الربط بين الموقعين ، أو تحت أبرز الكلمتين •

وهناك قضية أخرى هامة بالنسبة للمعنى ماتزال مريض جدل بين المعجميين ، وهي معيار الحكم على كلمة بأنها ذات معنى واحد أو عدة معان • وإذا كانت ذات عدة معان أي من باب المجاز أم من باب المشترك اللفظي ؟

ويترتب على اعتبار الكلمة ذات معنى واحد وضعها في مدخل واحد حتى لو تعددت تطبيقاتها في الاستعمال ، أو حملت بعض المعاني المجازية • ويكتفى في هذه الحالة بترتيب المعاني داخليا بصورة من صور الترتيب المتفق عليها • أما إذا اعتبرت ذات معان متعددة فسيفرد لكل معنى مدخل ، وتتعدد المداخل بتعدد المعاني •

الفعل « شحذ » مثلا يأتي لمعنيين :

شحذ السكين : إذا أحده •

وشحذ الفقير الناس : سألهم •

فهل يمكن رد المعنيين الى معنى واحد هو « الإلحاح » و « التكرار » فيكون المدخل واحدا ؟ أو أن التماس هذا المعنى الواحد لا يتم إلا بتكلف وتمهل ولا يظن اليه مستعمل اللغة العادي ، فيكون للفظ معنيان مختلفان فينظر إليه على أنهما لفظان مختلفان يستحق كل منهما مدخلا مستقلا ؟

ومثل هذا يمكن أن يطرح بالنسبة لكلمات مثل :

﴿ حميم ﴾ في قوله تعالى : « كأنه ولي حميم » مع قوله تعالى

« وسقوا ماء حميما » • فالأولى بمعنى : صديق قريب والثانية بمعنى

حار مغلي •

✽ قبيلة : فقد ذكر القاموس المحيط أنها واحدة قبائل الرأس للقطع المشعوب بعضها الى بعض وأن منه قبائل العرب وهم بنو أب واحد • وعلق صاحب التاج قائلا : ظاهره أنه مجاز وصرح بعضهم بخلافه فادعى الاشتراك •

وحين ينتهى المعجمى من مشكلة المعنى تظل أمامه مشكلات أخرى أقل أهمية مثل اختيار النطق الصحيح والنص عليه (ويتم ذلك فى اللغة العربية بوسيلة من ثلاث : إما ضبط الكلمة بالشكل ، وإما النص على ضبطها بالكلمات ، وإما ذكر وزنها أو مثالها) ومثل تبين رسم الكلمة وطريقة هجائها وبخاصة اذا كان يختلف نطقها عن رسمها (ويتعين ذلك بالنسبة للغة العربية فى أربعة أنواع من الكلمات : ما يزداد فيه حرف مثل مائة وأولو ، وما ينقص فيه حرف مثل هذا وذلك والسموات والرحمن ، وما ينتهى بألف مقصورة مثل الضحى والربا ، وما يشتمل على همزة متوسطة أو متطرفة) •

أما ذكر المعلومات الصرفية أو الاشتقاقية فيتوقف على حجم المعجم والغرض منه • فإذا كان المعجم موجها للمستعمل العادى فإنه يكفى فيه الاشارات السريعة الى المعلومات الوظيفية أو العملية ، والتغيرات التصرفية التى تلحق الكلمة عند الإسناد • أما المتتبع التاريخى لاشتقاق الكلمة أو ذكر أصله مما يدخل تحت فرع « الاتيمولوجيا » فليس موضع اهتمام المعاجم الصغيرة أو المتوسطة •

ويظل بعد ذلك أن يبين المعجمى درجة اللفظ فى الاستعمال ويحدد مستواه فى سلم التنوعات اللهجية كأن يبين ما اذا كان اللفظ قديما أو حديثا ؟ دارجا أو فصيحيا ؟ من لغة الشعر أو النثر ؟ عاما أو مقيدا ؟ مهجورا أو مماتا ، نادرا أو شائعا ؟ رسميا أو عاميا ؟ محترما أو مبتذلا ؟ من لغة الكبار أو الصغار ؟ وغير ذلك •

(د) وأخيرا لا يبقى على المعجمى إلا أن يرتب مداخله بطريقة من طرق الترتيب الهجائى أو الموضوعى التى ستعرض لها فيما بعد •

أول من استخدم لفظ معجم :

لم يكن اللغويون أول من استعمل هذا اللفظ في معناه الاصطلاحي ، وإنما سبقهم الى ذلك رجال الحديث النبوي (١) فقد أطلقوا دلمة معجم على الكتاب المرتب هجائياً الذي يجمع أسماء الصحابة ورواة الحديث . ويقال إن البخاري كان أول من أطلق لفظاً معجم وصفاً لأحد كتبه المرتبة على حروف المعجم (ولد البخاري سنة ١٩٤ هـ وتوفي ٢٥٦ هـ) ووضع أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى (٢١٠ — ٣٠٧ هـ) « معجم الصحابة » ، ووضع البغوي (توفي ٣١٧ هـ) « معجم الحديث » .. وهكذا .

ويلاحظ أن اللغويين القدماء لم يستعملوا لفظ « معجم » ، ولم يطلقوه على مجموعاتهم اللغوية ، وإنما كانوا يختارون لكل منها اسماً خاصاً به . فهذا « العين » ، وذاك « الجهرة » ، وآخر المصاحح « ... » وهكذا . أما إطلاقنا للفظ « المعجم » على هذه الكتب فإطلاق متأخر .

معجم وقاموس :

من استعمالات العصر الحديث إطلاق اسم « القاموس » على أى معجم سواء كان باللغة العربية أو بأى لغة أجنبية : أو مزدوج اللغة . ولفظ « القاموس » في اللغة لا يعنى هذا ولا شيئاً قريباً من هذا . فالقاموس هو قعر البحر ، أو وسطه ، أو معظمه . وقال أبو عبيد : القاموس أبعد موضع غوراً في البحر (٢) ومرجع هذا المعنى الذى ألصق بلفظ « قاموس » أن عالماً من علماء القرن الثامن ، واسمه « الفيروزابادى » ألف معجماً سماه « القاموس المحيط » وهذا وصف للمعجم بأنه بحر واسع أو عميق . كما نسمى بعض كتبنا : الشامل ، أو الكامل : أو الوافى ، .. أو نحو ذلك .

(١) انظر عدنان الخطيب : المعجم العربى ، ص ٣٠ — ٣٤ .

(٢) انظر : اللسان : قمى .

وقد حقق معجم الفيروزابادى لنفسه شهرة وشيوعاً ، وصار مرجعاً لكل باحث . وبمرور الوقت ومع كثرة تردد اسم هذا المعجم على ألسنة الباحثين ظن بعضهم أنه مرادف لكلمة معجم ، فاستعمله بهذا المعنى . وشاع هذا الاستعمال ، وصار يطلق لفظ القاموس على أى معجم . وظل هذا اللفظ محل خلاف بين العلماء ، فمن مهاجم له ، ومن مدافع عنه حتى أقر مجمع اللغة العربية هذا الاستخدام وذكره ضمن معانى كلمة « قاموس » فى معجمه المسمى بالمعجم الوسيط . واعتبر إطلاق لفظ « القاموس » على أى معجم من قبيل المجاز ، أو التوسع فى الاستخدام^(١) .

(١) انظر عدنان الخطيب : المعجم العربى ، ص ٤٨ — ٥٠ ، المعجم

الوسيط (قهس) .

٢ — الترتيب المعجمى عند العرب

لا تعرف أمة من الأمم فى تاريخها القديم أو الحديث قد تفننت فى أشكال معاجمها ، وفى طرق تبويبها وترتيبها كما فعل العرب • وقد تعددت طرق وضع المعجم العربى حتى كادت تستنفد كل الاحتمالات الممكنة • وقد كان العرب منطقيين حينما لاحظوا جانبى الكلمة ، وهما اللفظ والمعنى ، فرتبوا معاجمهم — إجمالاً — إما على اللفظ ، وإما على المعنى ، وبهذا وجد قسمان رئيسيان هما :

(أ) معاجم الألفاظ •

(ب) معاجم المعانى •

وقد كان مجال تنافسهم واضحاً بالنسبة للقسم الأول حيث وجدت فى داخله طرق متعددة بخلاف القسم الثانى حيث لم يوجد فيه إلا طريقة واحدة • وما أظنهم كانوا سيكتفون بهذه الطريقة الواحدة لو أمكن — عقلاً — الاهتداء الى طريقة أخرى •

وبالنسبة لمعاجم الألفاظ كان هناك عدة أشكال لترتيب الأحرف الهجائية هى :

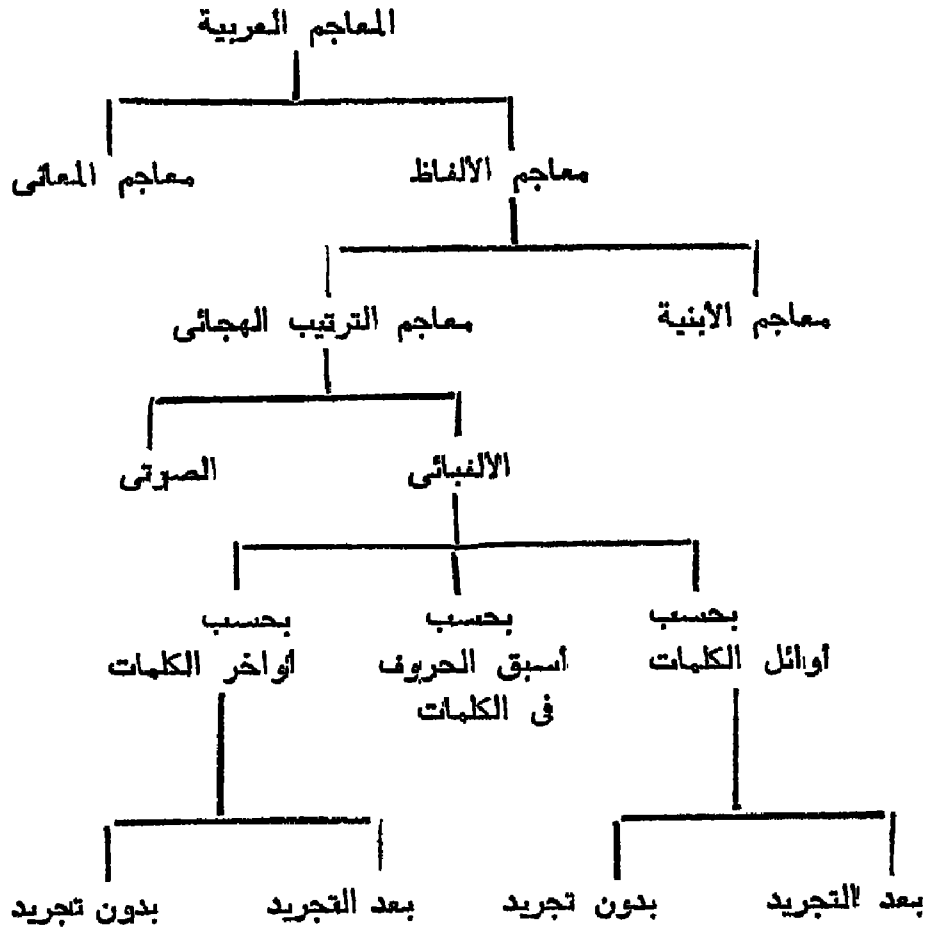
(أ) الترتيب الصوتى الذى يراعى التشابه الصوتى للأحرف وتدرج المخارج •

(ب) الترتيب الألفبائى الذى يراعى التشابه الكتابى للأحرف فيضع الثلاثيات متجاورة ثم الثنائيات وينتهى بالأحرف المفردة •

(ج) الترتيب الأبجدي وهو أقدم ترتيب عرفه العرب ، وهو ترتيب
فينيقي •

ولم يستخدم العرب في معاجمهم الترتيب الأبجدي ، وإنما استعملوا
الترتيب الصوتي والترتيب الألفبائي •

وقبل أن نتناول أنواع المعاجم العربية بصورة مفصلة نلخص
مدارسها في الشكل التالي :



القسم الأول

(معاجم الألفاظ)

سنتناول معاجم هذا النوع على الترتيب التالى :

• (أ) مدرسة الترتيب الصوتى (أو المخرجى)

• (ب) مدرسة الترتيب الألفبائى

وقد أخذت الأخيرة صوراً خمسة هى :

١ — وضع الكلمة تحت أسبق حروفها الأصلية فى الترتيب الألفبائى •

٢ — وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية •

٣ — وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد •

٤ — وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد •

٥ — وضع الكلمة تحت حرفها الأسمى الأخير (الباب والفصل) •

(ج) مدرسة الترتيب بحسب الأبنية •

وإليك تفصيل ذلك :

١ — مدرسة الترتيب المخرجى

معجم المين للخليل :

رائد هذه المدرسة هو الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) الذى امتاز بعقلية رياضية ، وبراعة فى الموسيقى والنغم • وخبرة واسعة بأمور اللغة ومشكلاتها •

وقد صب الخليل كل خبراته هذه فى معجمه الذى سماه « العين » ، والذى يعد أول معجم من أى نوع عرفته اللغة العربية •

وأهم ما يميز هذا المعجم — عدا نظامه — أن مؤلفه لم يجمع مفرداته عن طريق استقرار ألفاظ اللغة ، وتتبعها في مؤلفات السابقين ، وجمعها من شفاه الرواة ، وإنما جمعها بطريقة منطقية رياضية ، حيث لاحظ أن الكلمة العربية قد تكون ثنائية وقد تكون ثلاثية وقد تكون رباعية وقد تكون خماسية . وفي كل حالة إذا أمكن تبديل حروف الكلمة الى جميع احتمالاتها (بالانتقال من حرف هجائي الى الذي يليه) وأمكن تقليب أماكن هذه الحروف الى جميع أوجهها الممكنة يكون الحاصل معجماً يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية . ولكن لا توجد لغة تستخدم جميع إمكانياتها النظرية ، ولهذا كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل من هذه الصور والمهمل ^(١) . وقد فعل ذلك ، واستفاد في تمييز المستعمل من المهمل بثقافته اللغوية الخصبة ، وبخبرته الصوتية الباهرة ، ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية . وبذا حكم القرائين الصوتية الى جانب تحكيمة للمادة اللغوية المسجلة .

وإذا تصورنا كيفية حصر الخليل للمادة اللغوية في أبواب الثنائي والثلاثي الصحيح ، فإننا نفترض أنه قام بصنيع يشبه الجداول الآتية ^(٢) لجمع مواد اللغة (الترافيق) ، ثم قام بتقليب أصوات كل مادة ليحصل على الصور العقلية الممكنة (المتباديل) :

(١) يكاد يتطابق مفهوم « المستعمل » عند الخليل مع مفهوم « المورفيم » عند المحدثين (المورفيم : أصغر وحدة ذات معنى) أما مفهوم المهمل فيشمل ما يسمى بالمصطلح الحديث « مورف » ويشمل غيره . وذلك لأن المهمل إذا كانت قوانين اللغة الصوتية تسمح به ولكن حدث بمحض الصدفة أن أهمل يسمى « مورفا » . أما إذا كانت قوانين اللغة الصوتية لا تسمح به ولا يتصور أن يستخدم في وقت ما فلا يسمى « مورفا » ولكنه هو و « المورف » داخلان في مفهوم المهمل عند الخليل .

(٢) أهملت العين مع الحاء والهاء والخاء والغين من الثنائي وبدأت بالعين والقاف . وأهملت العين والحاء مع ما يثلثهما ، وبدأت أبواب الثلاثي الصحيح بالعين والهاء والقاف .

كتاب العين من الثنائى المضعف

ع ح ه خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م				
الحرف الأول	الحرف الثانى	التقلبات المستعملة	مددها	ملاحظات
(ع)	ح	مهمل	—	١ — توافيق العين من الثنائى = ٢٤
	ه	مهمل	—	
	خ	مهمل	—	٢ — المستعمل من صور التوافق = ٢٠
	غ	مهمل	—	
	(ق)	عق — قع	٢	(تتبع الصور المستعملة عن طريق تجميع العين
	(ك)	عك — كع	٢	كأول مع الأحرف التى بين قوسين فى العمود الثانى)
	(ج)	عج — جع	٢	
	(ش)	عش — شع	٢	
	(ض)	عض — ضع	٢	
	(ص)	عص — صع	٢	٣ — صور التباديل المعقولة = ٢٤
	(س)	عس — سع	٢	
	(ز)	عز — زع	٢	٤ — كل تجمع من الثنائى ينتج صورة عن طريق التوافيق وصورة أخرى عن طريق التباديل ليكون المجموع صورتين
	(ط)	عط — طع	٢	
	(د)	عد — دع	٢	
	(ت)	عت — تع	٢	
	(ظ)	مظ	١	
	(ذ)	ذع	١	
	(ث)	عت — ثع	٢	
	(ر)	عز — رع	٢	
	(ل)	عل — لع	٢	
	(ن)	عن — نع	٢	
	(ف)	عف — فع	٢	
	(ب)	عب — بع	٢	
	(م)	عم — مع	٢	

مجموع المستعمل = ٣٨

مجموع المهمل = ١٠

المستعمل ٢٠

المهمل ٤

كتاب العين بن الثلاثي الصحيح

ع ح خ غ / ق ك / ج ث ص / ر / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م				
العين والآباء الصور العظيمة ٢٢ x ٦ = ١٣٢				
١	٢	٣	التقلبات المستعملة	معددها
(ع) (ج) (ح) (خ) (ق) (ك) (ج) (ث) (ص) (ر) (ط) (د) (ت) (ظ) (ذ) (ث) (ر) (ل) (ن) (ف) (ب) (م)	(ع) (ج) (ح) (خ) (ق) (ك) (ج) (ث) (ص) (ر) (ط) (د) (ت) (ظ) (ذ) (ث) (ر) (ل) (ن) (ف) (ب) (م)	(ع) (ج) (ح) (خ) (ق) (ك) (ج) (ث) (ص) (ر) (ط) (د) (ت) (ظ) (ذ) (ث) (ر) (ل) (ن) (ف) (ب) (م)	ع ح خ غ / ق ك / ج ث ص / ر / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م	٢٨
المستعمل ١٣	المستعمل ١٣	المستعمل ١٣	مجموع المستعمل = ٢٨	٢٨
المهمل ٦	المهمل ٦	المهمل ٦	مجموع المهمل = ٣٦	٣٦

ملاحظة : يجب تتبع الروى التى تقع بين التواضع الى التواضع المستعملة .
(أ) أرقام الأول يشير الى امكانيات التواضع في العهود الثالث والثانى الى صور التواضع .
(٢) مجموع المستعمل في تهذيب اللغة ٣٦ والمهمل ٦٦ .

كتاب العين من اللسان الصحيح

العين والالف					العين والفاء				
الصور المثلية ٢٠ x ٦ = ١٢٠					الصور المثلية ٢١ x ٦ = ١٢٦				
مدها	التعليقات المستعملة	٢	٢	١	مدها	التعليقات المستعملة	٣	٢	١
		ح	ح	(ع) (ع)		ح	ح	(ع) (ع)	
		خ	خ			خ	خ		
		ق	ق			ق	ق		
		ك	ك			ك	ك		
		ج	ج		١	ج (ش)	ج		
		ش	ش		١٢	ش (ش)	ش		
		س	س			س	س		
		س	س			س	س		
		ز	ز		١	ز (ز)	ز		
		ط	ط			ط	ط		
		د	د		١	د (د)	د		
		ت	ت		١	ت (ت)	ت		
		ظ	ظ			ظ	ظ		
		ذ	ذ		١	ذ (ذ)	ذ		
		ث	ث			ث	ث		
		ر	ر		١	ر (ر)	ر		
		ل	ل		٢	ل (ل)	ل		
		ن	ن		٢	ن (ن)	ن		
		ع	ع		١	ع (ع)	ع		
		ف	ف		٢	ف (ف)	ف		
		ب	ب		٢	ب (ب)	ب		
		م	م		١	م (م)	م		
المستعمل ١٢ مجموع المستعمل = صفر					المستعمل ١٢ مجموع المستعمل = ١٦				
المهمل ٢٠ مجموع المهمل = ١٢٠					المهمل ٩ مجموع المهمل = ١١٠				

وقد أثرت شكرك حول كتاب العين شملت المؤلف نفسه أهو الخليل أم غيره • كما شملت احتمال وجود تأثير أجنبي على معجم العين • وسنترك قضية التأثير الأجنبي لمكانها في الباب الثالث من هذا البحث • ونتحدث الآن عن مؤلف العين أهو الخليل أم غيره • ولن نتناول القضية بالتفصيل ، فقد سبقنا إليها الدكتور عبد الله درويش الذي خصص باباً بعنوان « الخلاف حول كتاب العين » ^(١) في كتابه المعاجم العربية •

ولكننا سنكتفى بالعرض السريع المركز •

نتلخص الآراء في مؤلف العين فيما يأتي :

- ١ — أن المؤلف هو الخليل •
- ٢ — واضع الفكرة هو الخليل والمنفذ هو الليث •
- ٣ — المؤلف هو الليث •
- ٤ — واضع الفكرة ، ومؤلف قسم منه هو الخليل • أما الذي أكمله فهو الليث •

أما من نفوا نسبة « العين » لل خليل كلياً أو جزئياً — وهذا يجمع الآراء الثلاثة الأخيرة — فقد بنوا رأيهم على ما يأتي :

١ — اختفاء معجم العين منذ عصر المؤلف حتى منتصف القرن الثالث الهجري • وحين ظهر على أيدي أحد الوراقين الخراسانيين أنكره أبو حاتم السجستاني (٢٥٥ هـ) •

٢ — وجود فجوة بين معجم « العين » وثاني معجم يظهر في اللغة العربية وهو معجم الجمهرة لابن دريد (٣٢١ هـ) • مما يشكك في تأليف العين في القرن الثاني الهجري • فلا بد أن يكون مؤلفه لغوياً متأخراً •

(١) صفحة ٤٥ وما بعدها •

٣ — لم يذكر أحد من تلامذة الخليل أو معاصريه هذا المعجم ولم يحكه عنه ، مما يدل على أنه ليس من مصنفات الخليل .

٤ — تشكك كثير من العلماء في نسبته للخليل أو إنكارهم هذه النسبة . ومن هؤلاء الأزهرى (٣٧٠ هـ) الذى قال فى كتابه التهذيب : « كان الليث رجلاً صالحاً عمل كتاب العين ونسبه الى الخليل لينفق كتابه باسمه ويرغب فيه » . ومن هؤلاء أبو الطيب اللغوى (ت بعد سنة ٣٠٥) الذى يرى أن ترتيب الأبراب للخليل والحشو لغيره .

٥ — استخدام العين لبعض المصطلحات الكوفية مع أن الخليل أستاذ مدرسة البصرة . ومن ذلك إدخاله الرىاعى المضعف فى باب الثلاثى المضعف .

٦ — ما يوجد من خلاف فى الترتيب الصوتى ومخارج الحروف بين ما جاء فى العين وما جاء فى كتاب سيبويه . فلو كان المؤلف هو الخليل لتطابق ما فى الكتابين لأن سيبويه حامل علم الخليل .

٧ — كثرة الأخطاء والمآخذ فى العين .

٨ — النقل عن علماء متأخرين أو معاصرين للخليل ، والاستشهاد بالمرذول من شعر المحدثين .

٩ — نسخ العين التى عثر عليها كلها حديثة .

١٠ — لا إسناد لكتاب العين .

ويبدو أن منكرى نسبة العين للخليل — لكى يجعلوا إنكارهم مقنعاً — قد نسجوا من خيالهم قصصاً شائقة وإن لم تكن فى جملتها مقنعة . فمن ذلك ما يحكيه ابن المعتز عن ذهاب الخليل الى خراسان ونزوله عند الليث . وقد لاقى الخليل حفاوة وترحيباً وإكراماً بالغاً من الليث فقام بإهدائه معجمه « العين » . وأعجب الليث بالمعجم وانكب

عليه دراسة حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب • وطاب الليث يوما أن يشتري جارية حسناء ، مما أحفظ قلب زوجته عليه ، وهداها تفكيرها الى الانتقام منه في أغلى شيء لديه فأحرقت نسخته من العين • ولم يتوان الليث عن التفكير في طريقة يحيى بها الكتاب من جديد ، فأخذ يكتب مرة أخرى ما كان يحفظه من الكتاب حتى أتم نصفه تقريبا • ثم جمع بعضاً من اللغويين المعاصرين فعاونوه على إتمام الكتاب •

وقد أفاض الأستاذ الدكتور عبد الله درويش في مناقشة هذه الأدلة وأبطلها جميعها بما ملخصه ، مع بعض إضافات لى أو لغيرى :

١ — يبدو أن عزلة الخليل ، وانصرافه عن أن يدون كتبه بنفسه قد ساعد هو وغيره على أن يختفى كتاب العين بعضاً من الوقت فلم يظهر هذا الكتاب إلا بأخرة على يد وراق من خراسان ، وربما كان مصير « العين » مثل مصير « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى ، إذ يرون أن أبا عمرو بعد أن أتم تأليفه صن به على الناس ، ولهذا لم تكثر نسخه ، ولم يشتهر أمره بين المتأخرين من العلماء ^(١) •

٢ — أن هناك بعض معاجم ظهرت بين « العين » و « الجهرة » ، وأشهرها « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى (٢٤٦ هـ) •

٣ — ليس من الغريب أن يروى العين عن الخليل الليث وحده ، فقد حدث ما هو أغرب من هذا بالنسبة لصاح الجوهري ، ومع ذلك لم يشك أحد في نسبته ، حيث لم يروه — كما يقول القفطى — أحد من أهل خراسان •

٤ — أما إنكار الأزهرى فلا اعتبار له ، لأنه كان دائب التجريح لغيره من اللغويين ، والانتقاص من قدر الكتب التى ألقت قبله حتى يرفع من قيمة معجمه •

(١) دلالة الألفاظ ، ص ٢٢٣ ، المعاجم للدكتور عبد السميع ، ص ٣٨ •

٥ — أما ما يوجد من خلاف في الترتيب الصوتي ^(١) بين الخليل وسيبويه أو ما يوجد من وفاق بين مصطلح الخليل ومصطلح الكوفيين ، فلا شيء يمكن أن يؤخذ منه . وقد سبق أن عرضنا في فصل « النحوى والصرف » تحت عنوان : « هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ؟ » أمثلة كثيرة من هذا النوع فأرجع إليها . بالإضافة الى أن تصنيف الكلمات التى تكرر بعض حروفها محل خلاف كبير بين اللغويين ، إذ لم يتفقوا فيه على رأى ^(٢) .

٦ — أما الأخطاء أو المآخذ الموجودة فى العين فلا دلالة لها كذلك حتى مع التسليم بها . وهل هناك من يزعم أن الخليل منزّه عن الخطأ أو التصحيف أو التحريف ؟ ومنَ منَ اللغويين قد سلم من أمثال هذه الهفوات ؟ ويكفى أن يراجع القارئ كتاب « التنبية على حدوث التصحيف » لحمزة الأصفهاني (ت حوالى ٤٦٠ هـ) ليرى مصداق ذلك . وأكتفى بأن أشير الى الباب الأول من كتابه وعنوانه : « فى تصحيقات العلماء فى شعر القدماء وهم (أى العلماء) ستة وعشرون » ، ذكر منهم : أبو عبيدة ، الأصمعى ، أبو زيد ، أبو عمرو بن العلاء ، عيسى بن عمر ، الخليل بن أحمد ، سيبويه ، أبو الخطاب الأخفش . وبالإضافة الى هذا فقد سبق أن ذكرنا أن الخليل قد وجه كل اهتمامه الى الطريقة الرياضية التى جمع بها مادته اللغوية ، وأنه لم يفعل كما فعل غيره من الرجوع الى الرواة والأعراب ليسمع منهم ويسجل لهم . وهذه طريقة ربما كانت أكثر عرضة للخطأ من غيرها ، وإن كانت أدق من الناحية الإحصائية .

(١) ورد فى المزمهر للسيوطى ما يفسر هذا الاختلاف حيث ذكر ابن كيسان أنه سمع من يذكر أن الخليل قال : « لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالالف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى الاسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفيفة لا صوت لها . فنزلت الى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن فى التأليف ... » (المزمهر ١/٩٠) .

(٢) انظر ديوان الادب ٢٥/١ مقدمة المحقق .

٧ — أما ما عثر عليه من نقول ، سواء من المعاصرين أو المتأخرين ،
فيمكن تفسيره بسهولة على النحو التالي :

(أ) ما ذكره أهل ررات — حين عثر على قطعتين مخطوطتين لا عنوان
عليهما — ووجد فيهما نقولا عن ثعلب (ت ٢٩١) والدينورى (ت ٢٨١)
وكراع (ت ٣٠٧) والزجاج (ت ٣١٠) وغيرهم — لا قيمة له مطلقا لأن
القطعتين ليستا من كتاب العين كما زعم وإنما من كتاب المحكم لابن
سيده كما حقق الدكتور عبد الله درويش .

(ب) أما نقوله عن المعاصرين فلا شئ فيها ، وقد كانت هذه طريقة
القدماء ، يجلس أحدهم الى من يجد عنده علما دون نظر الى سنه أو
بلده ولا نظن أن نقل المؤلف عن هو أصغر منه سناً — مادام في سن
تسمح بالأخذ عنه — يعد أمراً غريباً ، أو شيئاً مثيراً للشبهة .

(ج) وأما نقوله عن المتأخرين فتفسيرنا لها أنها كانت أول الأمر
بمثابة حواش أو تعليقات كتبها أحد التلامذة على نسخته من العين . وبمرور
الوقت أدخلت هذه الزيادات في صلب الكتاب بفعل النساخ . وقد حدث
هذا لكثير من الكتب ، فليس « العين » بدعا من بينها .

٨ — وأما الزعم بأن كتاب العين ظل بلا إسناد ولا رواية فليس من
الرائع في شئ فعندنا ثلاث سلاسل لإسناد الكتاب وهى :

(أ) السلسلة الموجودة في النسخة التى طبعت وهى : قال أبو معاذ
عبد الله بن عائد ، حدثنى الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل
بجميع ما في هذا الكتاب ...

(ب) سلسلة ذكرها ابن فارس في أول المقاييس ، وهى عن على بن
إبراهيم القطان عن أبى العباس أحمد بن إبراهيم المعدانى ... عن الليث
عن الخليل .

(ج) سلسلة ذكرها السيوطي في المزهرة وهي عن أبي علي الغساني عن أبي عمر بن عبد البر عن عبد الوارث بن سفيان عن القاضي منذر بن سعيد عن أبي العباس أحمد بن محمد بن ولاد النحوي عن أبيه ، عن أبي الحسن علي بن مهدي عن أبي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الميث عن الخليل . وقراءة كتاب العين على ابن ولاد ثابتة في عدة مراجع . بل إن الروايات نفسها تتحدث عن وجود نسخة أخرى من العين عند أبي جعفر النحاس (وهو معاصر لابن ولاد) كان يقرؤها لمن يحب من تلاميذه . وتمضي الروايات قائلة : إن منذر بن سعيد حينما ذهب الى مصر قصد أبا جعفر النحاس أولا ، ولكن نشأ بينهما نوع من الجفوة نتيجة تصحيح منذر بن سعيد خطأ وقع فيه النحاس ^(١) ، ولذلك أبي النحاس أن يقرئ منذر بن سعيد معجم العين ، فانتقل ابن سعيد من مجلس النحاس الى مجلس ابن ولاد وقرأ عليه ونسخ من نسخته كتاب العين .

وننتهي من هذا الى أن معجم « العين » من عمل الخليل — جزئيا على الأقل — وإن كان الأرجح أنه كله من عمله . ويبدو أن الدكتور إبراهيم أنيس — برغم تشككه في نسبة العين — يميل مع الرأي الذي ينسبه الى الخليل وهو يدعم رأيه بقوله : « وفي رأينا أن مثل هذا الترتيب الصوتي الموسيقي لا يمكن أن يقرم به إلا الخليل الذي عرف أنه موسيقى وعنى غاية خاصة بالأصوات . والدليل اختراعه علم العروض وتأليفه كتباً في الموسيقى . فمثله يمكن أن يعنى بهذا الترتيب المخرجي » .

وقد طبع الجزء الأول من العين عام ١٩٦٧ ، وقام بتحقيقه الدكتور عبد الله درويش على ثلاث نسخ مخطوطة . ولكنه توقف عن تحقيقه فتقدم لهذه المهمة الدكتوران إبراهيم السامرائي ، ومهدي الخزومي . وقد

(١) راجع معجم الادباء ١٤/١٨٣ ، ٤/٢٢٦ — ٢٢٧ ، واللفظي ١/١٠٣ ، والزبيدي ص ٢٤ .

نشرنا الجزء الأول عام ١٩٨٠ ثم تتابع نشر بقية الأجزاء حتى اكتمل المعجم في ثمانية أجزاء ظهر آخرها عام ١٩٨٥ •

أما ترتيب الخليل للعين فقد أخذ الصورة الآتية :

١ — رتب كلمات معجمه على الحروف ترتيبا مخرجيا • وقد وجد أعمق الحروف هي حروف الحلق فبدأ بها • ولم يكتف بذلك ، بل رتب حروف الحلق فيما بينهما فوجدها ذات مخارج ثلاثة هي : المهمزة والهاء — ثم العين والحاء — ثم الغين والخاء — وقد كان من المتوقع إذن أن يبدأ الخليل معجمه بحرف المهمزة وأن يسمى كتابه بـ « المهمزة » ، ولكنه عدل عن ذلك وبدأ بحرف العين وسمى كتابه « العين » ، والسر في ذلك أن الخليل قد وجد — بحسه الصوتي — أن المهمزة صوت معرض للتغيرات مثل التسهيل أو الحذف ، فلم يشأ أن يبدأ بها ، ووجد أن الهاء صوت مهموس خفى فلم يشأ أيضاً أن يبدأ بها • وانتقل الى الحيز الثاني من حروف الحلق فوجد فيه العين والحاء فبدأ بالعين لأنها « أنصح » أى أوضح لأنها مجهورة •

٢ — كان يلتزم تجريد الكلمة من زوائدها ، ثم يضعها في مكانها بعد ذلك • ومعنى ذلك أنه بنى معجمه على « الجذور » أو « الأصول » وأهمل حروف الزيادة • وقد ظل هذا دأب معظم معاجمنا حتى الآن •

٣ — رتب الأصوات على الوجه الآتى :

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت /
ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ي ^(١) •

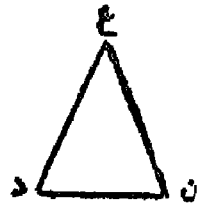
(١) نظمها بعضهم في قوله :

العين والحاء ثم الهاء والخاء	والغين والقاف ثم الكاف اكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها	صاد وسين وزاى بعدها طاء

٤ — خصص لكل حرف كتاباً أم ما به باسمه • فالملجم عبارة عن كتب بعدد حروف الهجاء هي كتاب العين — كتاب الحاء — كتاب الهاء ... وهكذا •

٥ — وفي كل كتاب كان يضع الكلمات التي تشتمل على الحرف الذي يحمل الكتاب اسمه أيما كان موضع هذا الحرف في الأول أو الوسط أو الآخر •

٦ — حين يتناول كلمة ما كان يقلبها على جميع أوجهها الممكنة • وكان في كثير من الأحيان يلتزم ببيان الأوجه المستعملة ، والأوجه المهملة • فكلمة مثل « قد » تقرأ برجهين إما مع البدء بالقاف أو مع البدء بالذال • وكلمة مثل « عند » إذا قلبت على أوجهها تنتج ست صور هي ع ن د — ع د ن — ن د ع — د ع ن — د ن ع • ولتوضيحها بالنسبة للثلاثي رسم ابن دريد مثلاً وضع عند كل زاوية منه حرفاً من الحروف الثلاثة للجذر وتحرك من كل زاوية في الاتجاهين ، فحصل على التقليلات الستة :




ولتوضيحها بالنسبة للرباعي رسم الدكتور محمد سالم الجرح جدولاً ذا قوائم أربعة • فإذا وضعنا في القائمة الأولى أحد الأصول جاز لنا أن نضع في الثانية كلا من الثلاثة الباقية • ويتبادل مع كل واحد من حروف القائمة الثانية الحرفان الباقيان في الثالثة والرابعة • أي أننا نحصل على ست صور في القائمة الرابعة مع حرف بعينه في القائمة

بالظاء ذال وئاء بعدهما راء
والميم والواو والمهموز والياء

والذال والفاء ثم الظاء متصل
واللام والنون ثم الفاء والباء

الأولى • فإذا ضربنا ذلك في الاحتمالات الأربعة بالنسبة للحرف الأول حصلنا على ٢٤ صورة • فإذا كان الأصل الرباعي مثلاً هو دخرج كان الجدول كما يأتي :

الصور	٤	٣	٢	١
١ دخرج	ج	ر	ح	
٢ دحجم	ر	ج	ح	
٣ دوجج	ج	ح	ر	
٤ درحج	ح	ج	ر	
٥ دججج	ج	ح	ر	
٦ دججج	ح	ج	ر	

وتتكرر نفس العملية مع كل من الحاء والراء والجيم بوضعها في القائمة الأولى مكان الدال •

فإذا كان الجذر خماسياً ضرب هذا الرقم في خمسة فتبلغ صور الخماسي العقلية ١٢٠ تقليباً •

وقد طبق الخليل التقليلات مع جميع كلمات الثنائي والثلاثي وكان ينص على المستعمل من هذه الصور والمهملة • ولكن مع الرباعي والخماسي وجد أن العملية طويلة والاحتمالات كثيرة والصور المستعملة فعلاً — بالنسبة للمهملة — قليلة جداً ، ولذا اكتفى بالتقليلات العملية فقط لا الممكنة عقلاً •

٧ — نتيجة لنظام التقليلات فإن كل كتاب لا يشتمل على كلمات فيها حروف سابقة : فكتاب « الحاء » لا يشتمل على أى كلمة فيها « عين » ، لأن جميع الكلمات التي تشتمل على حرف العين قد سبقت في كتاب العين ، وكتاب الهاء لا يشتمل على أى كلمات فيها عين أو حاء لأنها سبقت • • وهكذا • ومعنى هذا أن الكتب الأولى أكبر من الكتب المتأخرة • وكلما تأخرنا قلّت كلمات الكتاب • ولهذا فإن كتاب العين يعد أكبر كتب المعجم وحين نصل إلى كتاب الميم نجده لا يتجاوز بضع عشرة صفحة ،

لأنه لم يبق لهذا الحرف ليوفق معه إلا أحرف العلة الثلاثة • أما كتاب الحروف المعتلة وهو آخر الكتب فلم يتجاوز بضع صفحات •

٨ — خضع تبويب الكلمات لنظام الكمية • فمثلا في باب العين نجد الكلمات مسجلة بحسب التقسيم الآتى :

الثنائى — الثلاثى الصحيح — الثلاثى المعتل — اللفيف — الرباعى — الخماسى • أما الثنائى فقد قصد به الخليل ما وجد فيه حرفان من الحروف الصحيحة ، ولو مع تكرار أحدهما فى أى موضع طبقا لنظرية العناصر ، فيشمل مثل قدّ وقدّ وقدقد • كما يشمل مثل ددن وقلق وجل • ولذلك يقول ابن القطاع : الثنائى ما كان على حرفين من حروف السلامة ، ولاقبال أن تتكرر فائوه أو عينه « ^(١) وواضح أن اصطلاح الخليل هذا ناتج عن نظام التقليليات الذى اتبعه • لأن مثل ددن وقلق وجل ستتماثل فى صورة من صور تقليلياتها وتشتترك فى موضع التكرير فيها • أما سائر اللغويين ممن لم يثابوا ، فيعتبرون مثل قدّ وجل من مضعف الثلاثى ، ويعتبرون مثل قدقد من مضعف الرباعى ، ويعتبرون مثل قلق من السالم ^(٢) •

وأما الثلاثى الصحيح فهو عنده — كما عند غيره — ما اجتمع فيه ثلاثة حروف صحيحة • وأما الثلاثى المعتل فما وجد فيه حرفان صحيحان وحرف علة واحد سواء جاء أولا (مثال) أو وسطا (أجوف) أو آخر (ناقص) • وأما اللفيف فقد عنى به ما وجد فيه حرفا علة سواء كانا مفروقين مثل وعى ، أو مقرونين مثل كوى •

أما طريقة الكشف فى العين فتتقضى أولا تجريد الكلمة من زوائدها لتحديد الجذر ، ثم يبحث عن أعمق أصواتها لتحديد الكتاب • فإن كان من بينها « ع » أيا كان موضعها فإن مكان الكلمة كتاب العين وإن لم

(١) ابنية الاسماء والمصادر ، ص ١٢ •

(٢) شرح الشافية ٣٤/١ •

يكن بها « ع » ووجد بها « ح » فمكانها كتاب الحاء ... ولهذا لابد أن يعرف الباحث الترتيب المخرجي للحروف ، ويفتش عن أقصى حرف في المخرج . فإذا حددنا الكتاب الذي سنبحث فيه عن الكلمة نظرنا الى ناحية الكم ، وحددنا نوع الكلمة أهى من الثنائى أم الثلاثى الصحيح أم الثلاثى المعتل .. وبذا نضيق دائرة البحث . ويعد ذلك نحدد مادة الكلمة عن طريق إعادة ترتيبها صوتيا . وأخيرا نقرم بالتقليبات الممكنة ، وسنجد جذر الكلمة المطلوبة ضمن هذه التقليبات .

تهذيب اللغة للأزهري :

كان الأزهري محظوظا في مقدمة معجمه فنشرت أكثر من مرة ، قبل أن تتعهد المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر بتحقيق المعجم بأكمله ونشره . ويرجع الاهتمام بالمقدمة الى أنها — كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون — « من أهم الوثائق في تاريخ التأليف اللغوى وتاريخ المدارس اللغوية الأولى » (١) .

ويبدو أن الأزهري — وقد امتد به العمر من ٢٨٢ الى ٣٧٠ هـ — قد ألف معجمه هذا بعد السبعين كما يفهم من عبارة له وردت في المقدمة (٢) وأنه حشد له خبرات هذه الأعوام الطوال ، وأمدّه بكثير مما سجله وقيده وسمعه سواء من الأساتذة أو الأعراب أو القوم الذين وقع في أسرهم ، وكانوا عربا عامتهم من هوازن .

وقد ذكر الأزهري في مقدمة معجمه أن من الروافد التى أمدت معجمه :

١ — تقييد نكت حفظها ووعاها من أفواه الأعراب الذين شاهدتهم وأقام بين ظهرانهم سنين . إذ كان ما أثبتته كثير من أئمة اللغة في الكتب لا ينوب مناب المشاهدة ، ولا يقوم مقام الدربة والمعادة .

(١) مقدمة المحقق ، ص ١٧ .

(٢) يقول : وكنت منذ تعاطيت هذا الفن في حداثتى الى أن بلغت السبعين مولعا بالبحث فى المعانى والاستقصاء فيها وأخذها من مظانها ...

٢ — المسادة التي جمعها حين وقع في أسر القرامطة • وكان القوم الذين وقع في سهمهم عربا عامتهم من هوازن ، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد • وقد كانوا قوما « لا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش » • وقد أقام بينهم — على حد تعبيره — دهرا طويلا واستفاد من مخاطباتهم ، ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمّة ونوادير كثيرة أوقع أكثرها مواقعها في الكتاب (١) •

ومن يراجع تهذيب اللغة بأجزائه الخمسة عشر يجد مئات الأمثلة لهذه المسادة التي رواها الأزهري عن طريق المشافهة والنقل المباشر • ولهذا فنحن لا نقر الدكتور عبد الله درويش على تشككه في قيمة المسادة المسجلة من هذا الطريق ، ووصفه لها بالندور (٢) • ومن أمثلة هذه المشافهة :

١ — وسمعت الأعراب من بنى عقيل يقولون : جارية فارهة و غلام فاره اذا كانا مليحي الوجه • (٢٧٩/٦) •

٢ — وخطأ بعض الناس قول القائل : فلان يستأهل أن يكرم بمعنى يستحق الكرامة • قال ولا يكون الاستئصال إلا من الإهالة ، وأجاز ذلك كثير من أهل الأدب • وأما أنا فلا أنكره ، ولا أخطيء من قاله لأنى سمعته • وقد سمعت أعرابيا فصيحاً من بنى أسد يقول لرجل أولى كرامة : أنت تستأهل ما أوليت ، وذلك بحضرة جماعة من الأعراب فمسا أنكروا قوله (٤١٨/٦) •

٣ — سمعت صبيا من بنى عقيل يقول : وجهي زين ووجهك شين أراد أنه صبيح الوجه وأن الآخر قبيحه • والتقدير : وجهي ذو زين ، ووجهك ذو شين (٢٥٥/١٣) •

(١) المصدر نفسه ٦ ، ٧ •

(٢) المعاجم العربية ، ص ٢٩ •

ولم يكن للأزهري طريقة معينة في تسجيل مشافهاته :

١ — فتارة يعتمد على الدليل السلبي (أى عدم سماعه عن العرب)
في نفى وجود اللفظ أو التعبير * ومن ذلك قوله :

(أ) ولم أسمعهم يقولون في الغراب نعق ولكنهم يقولون نعب
(٢٥٧/١) *

(ب) لم أسمع الوصح في شيء من كلامهم (٨٤/٣) *

٢ — وتارة ينص على القبيلة أو الجماعة اللغوية التي سمع منها *
وأكثر من سمع عنهم *

* بنو تميم (١٢٩/١ ، ٢٦٣/٣ ، ١٦٩/٥ ، ٢٢٨/٩ ، ٥٦٢/١٠)

* بنو عقيل (٣٢٧/٤ ، ٢٧٩/٦ ، ٢٥٥/١٣)

* بنو كلاب — الكلابيون (٢٣٨/٢ ، ٤٤٦/١٥ ، ٦٥٠)

* بنو كليب (٣٧٦/١ ، ١٤٤/٧)

* بنو نمير (١٥٨/١٣ ، ٦٥٠/١٥)

* بنو سعد (٢١٩/٢ ، ١٧٨/٧) *

* قيس (٣٢٦/٣ ، ٥٦٢/١٠) *

* بنو أسد (٩٤/١٠ ، ١١٠) *

ثم طيء (٣٥٩/١٤) ، وبنو مضر (١٢٤/١٥) ، وبنو فزارة

(١٥٥/١١) ، وبنو سليم (٥٤٦/١٠) ، والهجريون (٣٤٤/١) ،

والبحرانيون (٦٢/١) *

٣ — وهو في معظم حالاته يسجل سماعه دون أن ينسبه ومن ذلك :

(أ) سمعت بعض العرب (٧٤/١ ، ١٠٦ ، ١٢٥/٢ ، ٢٨٤ ، ١٠٠٠)

(ب) سمعت العرب (١١٣/١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨ ، ٠٠٠)

(ج) سمعت غير واحد من العرب (٢١٢/١ ، ٢٦٧ ، ٠٠٠)

(د) سمعت أعرابيا يقول (٢٤١/١ ، ٣٧٧ ٠٠٠)

(هـ) هذا سماعى من العرب (٢٦٣/١ ، ٠٠٠)

(و) سمعت امرأة من العرب (٥٨/٣ ، ٠٠٠)

(ز) هكذا سمعت من العرب (٣٣١/٣ ، ٠٠٠)

ومهما يكن من شيء فإن « تهذيب اللغة » يعد تابعا في منهجه « للعين »
تبعية كاملة ، بل بلغ من اتخاذه نموذجا له أن نقل مقدمة العين في مقدمته
نقلا يكاد يكون حرفيا ، بعد أن اعترف أن هذه المقدمة — بإجماع
اللغويين — من عمل أبى عبد الرحمن الخليل بن أحمد (١) .

أما من ناحية المادة اللغوية فحجم التهذيب ضخم جداً بالنسبة
لحجم العين . وقد أبدى الأزهرى كذلك اهتماماً كبيراً بأسماء البلدان
والأماكن والمياه . واهتم بإيراد الشواهد من القرآن والحديث بالإضافة
إلى الشعر ، كما عنى بإيراد القراءات المختلفة في مكانها المناسب (٢) .

البارع للقالى :

مؤلف هذا المعجم أبو على إسماعيل بن القاسم القالى المولود عام ٢٨٠
هجرية والمتوفى عام ٣٥٦ هجرية بالزهراء صاحبة من ضواحي قرطبة .

ويعد البارع أول معجم أندلسى ، وإن لم يكن له من الأندلسية
إلا مكان التأليف .

وقد دخلت نسخة من كتاب « العين » الأندلسى ، ولم تكن موثقة
فأوعز الحاكم الأموى إلى مجموعة من العلماء منهم « القالى » بمقابلة

(١) تهذيب اللغة ٤١/١ .

(٢) الجرح ، ص ٤٦ .

الكتاب ولم يكن القالى يطمئن قبل ذلك الى صحة نسبة العين للخليل ، ولكنه بعد المقابلة اقتنع بصحة نسبته ، ولم ينسبه لليث كما فعل غيره ، ولا تحفظ فقال « صاحب العين » كما فعل آخرون .

ويقول الأستاذ هاشم الطعان محقق البارع : « ولقد أتيح لى وأنا أحقق النص الذى بين يدى من (البارع) أن أقارن ما ورد فيه عن الخليل وهو أعظم الكتاب بنسختين مخطوطتين من العين فإذا بالكتابين متطابقين حذوك القذة بالقذة • وبهذا يكون البارع أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب العين » (ص ٦٦) •

وقد أدخل القالى بعض زيادات وأجرى بعض تعديلات فى كتاب العين « فقدم لكل مادة لغوية بما ورد عنها فى مروياته • وارثنأى أن يخالف فى ترتيب الحروف بعض الشئ » ، وأضاف بعض ما ظنه مهملا ، ونسب الشواهد غير المنسوبة الى قائلها — متى استطاع الى ذلك سبيلا — وأكمل الشواهد المبتورة فكان من ذلك كله البارع • فالبارع إذن ليس إلا كتاب العين (موصولا) • (مقدمة المحقق ص ٦٥ ، ٦٦) •

والى جانب هذه التعديلات والزيادات نجد خلافتين آخرين أحدهما يتعلق بترتيب الأصوات ، والآخر يتعلق بالأبواب • فترتيب الخليل قد سبق ذكره ، أما ترتيب القالى فهو : ه ح خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و أ ي •

أما اختلاف الأبواب فيتمثل فى تسمية القالى للفيف : الحواشى أو الأوشاب . وفى إطلاقه على الثنائى اسم : الثنائى فى الخط والثلاثى فى الحقيقة • والخلاف كما يبدو خلاف لفظى لا حقيقى •

ولم يطبع « البارع » كله لأن المحقق لم يعثر على نسخة كاملة منه ،

وإنما عثر على قطعتين إحداهما في المتحف البريطاني والأخرى في مكتبة
بباريس ، وهما قطعتان مختلفتان • ومازال هناك أمل في العثور على نسخة
كاملة في إحدى خزائن الشمال الإفريقي •

مختصر العين للزبيدي :

والكتاب كما هو واضح من عنوانه اختصار لمعجم العين مع تعديلات
طفيفة وتصرف ليس بالكثير • ومؤلفه في غنى عن التعريف فهو مؤلف
طبقات النحويين واللغويين ، ولحن العامة ، والاستدراك على أبنية سيديويه
والواضح في علم العربية ، وجميعها قد طبع وحقق (١) •

وقد اطلعت على الجزء الأول من المطبوع ويقع في ثمانين صفحة ،
وهي تعادل ست عشرة صفحة من مخطوطة بغداد البالغ عددها ٢٣٢
صفحة • وقام بتحقيق هذا الجزء علال الفاسي ، ومحمد بن تاريت
الطنجي ، ونشر التحقيق في السلسلة اللغوية التي تصدرها وزارة الدولة
في المملكة المغربية •

وأهم ما قام به الزبيدي في مختصر العين :

(أ) التنظيم والتبويب : وقد شمل ذلك زيادة باب « للمضاعف
الثنائي المعتل » وهو عند الخليل مدمج في باب « اللفيف » • كما شمل
فصل أحرف العلة والهمزة وعدم دمجها كما فعل الخليل • وقد بدأ
الزبيدي بالهمزة يليها الياء فالواو •

(ب) تصحيح ما ورد من خلل أو تصحيف في العين مثل : جاء في

(١) حقق الطبقات الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ونشره بمصر • أما
لحن العامة فقد حققه كل من الدكتور رمضان عبد التواب وعبد العزيز مطر •
وأما الاستدراك فقد طبع في روما عام ١٨٩٠ • وأما الواضح فقد حققه
الدكتور أمين السيد ونشرته دار المعارف عام ١٩٧٥ • وقد توفي الزبيدي
عام ٣٧٩ هـ •

العين : رجل عقيم ورجال عقماء • منصوب الزبيدي هذا الجمع بقوله :
ورجال عقمى •

ومثل إيراد الزبيدي كلمة « الانقاعى » وهو الأحمر يخالطه بياض
فى مادة (فقح) وكانت فى كتاب العين فى مادة (ققع) لتصحيحها •

(ج) الاختصار : وذلك عن طريق حذف الصيغ القياسية كالمصادر
والأفعال المضارعة والجموع القياسية ، وحذف القواعد والأحكام اللغوية
وأسماء اللغويين والرواة • وإسقاط الشواهد كلها نثرية وشعرية (فيما
عدا بعض الشواهد القرآنية القليلة ، وما فيها من قراءات) •

(د) الاستدراك : وذلك بزيادة بعض الألفاظ التى أهملها الخليل
وهى فى اللغة ، أو إضافة بعض المعانى التى تركها للكلمة • إلا أن الزبيدي
— كما ذكر فى خاتمة الكتاب — « لم يستقص جميع ما أهمله العين لأنه
اكتفى بكتابه الذى خصصه لهذا الموضوع ، ولأنه أراد أن يكون المختصر
صورة مرجزة لما فى الأصل من مراد » (١) •

المحيط للمصاحب بن عباد :

شهد القرن الرابع معجماً رابعاً يسير على طريقة الخليل وهو معجم
« المحيط » للوزير الأديب المشهور المصاحب بن عباد (٣٢٤ — ٣٨٥ هـ) •
وقد ظل هذا المعجم فى زوايا النسيان حتى قام الشيخ محمد حسن آل
ياسين بتحقيق بعض أجزاء منه • وقد رجع المحقق الى نسختين اثنتين
إحدهما نسخة المتحف البريطانى والأخرى نسخة كربلاء • وتوجد
أجزاء متناثرة منه فى مكتبات أخرى من العالم (٢) •

(١) أبو بكر الزبيدي وآثاره فى النحو واللفظ ص ٤٦٤ — ٤٨٢ •
(٢) انظر رأى الصغاني فى هذا المعجم بعد ، حين عرضنا لمعجم
العباب له •

المحكم لابن سيده :

وهو من معاجم القرن الخامس الهجرى ومؤلفه أشهر علماء اللغة في الأندلس في هذا القرن * وبرغم أنه كان كفيفاً فقد ألف هذا المعجم وألف معجماً آخر ضخماً سيرد فيما بعد وهو « المخصص » * ولم يتح للمحكم أن يطبع جميعه بعد ، فقد أصدر معهد المخطوطات بالقاهرة جزءه الأول عام ١٩٥٨ وتتابع الأجزاء حتى صدر السابع عام ١٩٧٣ ووصل الى مادة (ش هـ م) * .

ونظام المحكم هو هو نظام العين مع فروق طفيفة ، مثل إدماج الخليل الهمزة في حروف العلة ، وإفراد ابن سيده الهمزة بالذكر ، ومثل احتساب الخليل الألف اللينة حرف علة ، وتجاهلها من ابن سيده تماماً ، لأن الألف الممدودة في العربية ترد — اذا كانت أصلية — إما الى الواو أو الياء .

ويعتبر صاحب المحكم بأنه حذف منه أموراً لا غناء فيها ، ونبه فيه على أشياء لابد من التنبيه عليها .

(أ) فقد حذف مثلاً المشتقات القياسية لأطرادها .

(ب) وميز بين المشتبهات كالجمع واسم الجمع وجمع الجمع .

ومات ابن سيده عام ٤٥٨ هـ .

مثالان تطبيقيان على معاجم الترتيب الصوتي :

المثال الأول : اذا أردنا أن نبحث عن كلمة « مريد » في قرله

تعالى : « وإن يدعون إلا شيطاننا مريدا » نسير على الخطوات الآتية :

• الجذر : مردا •

• المكتاب : الدال •

• القسم : الثلاثي الصحيح •

• المادة : درم •

التقليبات : درم — دم ر — ر دم — رم د — م د ر — م ر د

المثال الثاني : اذا أردنا ترتيب عدد من الكلمات في معجم العين أو

أحد توابعه فإننا نسير على الخطوات التالية حين يكون المراد ترتيب

الكلمات الآتية :

(أ) غربال — رفرف — ظنين — تل — تروية — فدان — دبابة —

موعودة — دندنة — غيم •

١ — نحدد أعمق الأصوات في كل كلمة ونكتبه فوقها (بعد تجريدتها

من الزوائد) :

غ ر ظ ت ر د د د

غربل — رفرف — ظنن — تلك — روى — فدن — دبب — وأد —

د غ

دندن — غيم •

٢ — تقسم الكلمات الى مجموعات حسب أعمق الأصوات هكذا :

مجموعة الغين [غربل — غيم] •

مجموعة الدال [فدن — دبب — وأد — دندن] •

مجموعة التاء [تلك] •

مجموعة الظاء [ظنن] •

مجموعة الراء [رفرف — روى] •

٣ — ترتب كل مجموعة تشتمل على أكثر من كلمة حسب القسم :

الغين : غيم / غربل •

الذال : دبب / دندن / فدن / وأد •

التاء : تلك •

الظاء : ظنن •

الراء : رفر / روى •

- ٤ — اذا وجد لفظان ينتميان الى نفس القسم يرتبان حسب المادة •
وينطبق ذلك على لفظي دندن ودبب اللذين يقعان في قسم الثنائي •
وبالحصول على المادة وهي دن ودب نجد دندن تسبق دبب •

وعلى هذا يكون الترتيب النهائي على النحو التالي :

غيم — غربال — دندن — دبابة — فدان — موعودة — تل —
ظنين — رفر — تردية •

(ب) دائرة — غضنفر — براثن — دريئة — تمثال — غرنوق —
فرند — ورم — ثلاثة — تأييد — غاية •

الترتيب : (غ) غاية — غرنوق — غضنفر •

(د) دائرة — دريئة — تأييد — فرند •

(ث) ثلاثة — تمثال — براثن •

(ر) ورم •

والترتيب النهائي : (١) غاية (٢) غرنوق (٣) غضنفر (٤) دائرة
(٥) دريئة (٦) تأييد (٧) فرند (٨) ثلاثة (٩) تمثال (١٠) براثن (١١) ورم •

(ب) مدرسة الترتيب الألفبائى

١ — وضع الكلمة تحت أسبق حروفها (١) :

الجمهرة لابن دريد :

سار ابن دريد فى معجمه الجمهرة على الترتيب الألفبائى العادى ، ووضع الكلمات تحت أسبق حروفها فى الترتيب الهجائى ولكن عقد نظامه أن المؤلف اتبع المنهج الآتى :

١ — قسم أبينية الكلام الى ثنائى وثلاثى ورباعى وخماسى وسداسى (٢) ولفيف ، وبدأ بهذا التقسيم • ولم يكتف بهذه القسمة السداسية فعقد الموضوع بتقسيمات فرعية ، فالثنائى تحته :

(أ) ثنائى صحيح مثل أبب وأزز •

(ب) ثنائى ملحق بببناء الرباعى ودو المكرر أو الذى ضعف فيه حرفان مثل زل زل •

(ج) ثنائى معتل وما تشعب منه مثل باء وثوى (اعتبر الهمزة من حروف العلة) • والثلاثى تحته :

(أ) ثلاثى صحيح مثل ب ك ل •

(ب) ثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلاً ب ت ت •

(ج) ثلاثى عين الفعل منه أحد حروف اللين مثل باب •

(د) ثلاثى معتل الآخر ب ت (و — ا — ي) •

وهكذا • وقد تتبع الدكتور عبد السميع أبواب الجمهرة فحصرها

فى سبعة عشر باباً (٣) •

(١) أسبق حروفها فى الترتيب الهجائى مهما كان موضعه فى الكلمة •

(٢) عبر عنه بقوله : هذه أبواب الحقت بالخماسى بالزوائد التى فيها — وبقوله : الملحق بالسداسى — وبقوله : السداسية وان كان الأصل غير ذلك • وذكر له الأمثلة الآتية : سحنك ومبرنشق .. الخ •

(٣) المعاجم العربية ، ص ٥٥ •

٢ — رتب الكلمات تحت كل باب على الترتيب الهجائي العادى .
لأنه اعتبر الترتيب الصوتى مسلكا وعرا لا يقدر على السير فيه إلا
المتخصصون ، يقول : « وقد ألف أبو عبد الرحمن بن أحمد الفرهودى
كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته ، وعنى من سما الى نهايته ، ...
ولكنه رحمه الله ألف كتابه مشاكلا لثقرب فومه وذكاء فطنته وحدة أذهان
أهل دهره وأملينا هذا الكتاب والنقص فى الناس فاش » (١) ، ويقول :
« وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة ، إذ كانت بالقلوب أعقب ، وفى
الأسماع أنفذ ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة » (٢) .

٣ — اتبع نظام التقليليات كالخليل * ومعنى هذا أننا لا نجد
الكلمة تحت حرفها الأول ، وإنما تحت أسبق حروفها فى الترتيب الهجائي
مهما كان مكان هذا الحرف . فكلما عبد ترجد فى الباء لأنها أسبق
الحروف فى الترتيب ، وكلمة سمع توجد تحت السين وهكذا .

ويوجد بين العين والجمهرة وجها شبه رئيسيان هما :

١ — التقسيم الكمى .

٢ — التقليل .

كما يتردد بينهما وجها خلاف رئيسيان هما :

١ — الترتيب الصوتى فى العين ، والهجائي فى الجمهرة .

٢ — بدء العين بمرحلة الترتيب الهجائي (الصوتى) ثم تقسيم كل
حرف تقسيما كميا ، أما الجمهرة فتبدأ بالتقسيم الكمى ، ثم تقسم كل
نوع الى أبواب بعدد حروف الهجاء .

وهناك جملة مأخذ أخذت على ابن ديريد منها :

١ — التكرار حيث جعل قسما للثنائى الصحيح ، وهو ما ضعف فيه
الحرف الثانى مثل أزز ، ثم جعل قسما للثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلان
فى أى موضع ، وذلك يشمل الثنائى الصحيح وزيادة .

(١) الجمهرة ٣/١ .

(٢) المرجع السابق .

٢ — اعتباره الهمزة من أحرف العلة •

٣ — من أبوابه باب سماه اللفيف ^(١) وهو يضم الدلّات التي جاءت على أوزان قليلة • وقد حشدّها بدون ترتيب وبعضها سبق توزيعه على الأبواب •

٤ — في أبواب الثلاثي الصحيح نجده يذكر أمثلة للثلاثي المعتل مثل :
ب ن و — ب و هـ مع أن للمعتل بابا خاصا به •

٥ — اعتباره تاء التأنيث أحيانا من بنية الكلمة وعدّها ضمن حروفها ومن ذلك ذكره كلمة « عجة » في مادة ج ع هـ وقال : « العجة ضرب من الطعام عربية صحيحة » • وحققا أن تذكر في الثنائي الصحيح • والغريب أن ابن دريد ذكرها مرة ثانية في « باب من الثلاثي يجتمع فيه حرفان مثلان في أى موضع » • ومن ذلك ذكره كلمة « ثبرة » في الرباعي وتعليقه ذلك بأن الهاء لازمة • بل ذكره كلمات ثلاثية لا تلزمها التاء في قسم الرباعي مثل « جلبة » و « جنبه » ^(٢) •

٦ — مناقضته اسم معجمه وما نبه عليه في المقدمة من إيثاره للجمهور من كلام العرب ، وتجاهله للوحشى والمستنكر ، فأكثر من الألفاظ الغريبة ، حتى انفرد بأشياء لم ترد في معاجم غيره • ويتضح ذلك من مراجعة المادة اللغوية التي احتواها المظهر للسيوطي في الفصل الخاص بمعرفة الضعيف والمنكر والمترك من اللغات ، فمعظمها مأخوذ من الجمهرة ^(٣)

(١) قال : وسميناه لفيفا لقصر أبوابه والثقافت بعضها الى بعض •

(٢) هذه المأخذ وردت في المعاجم العربية للدكتور عبد السميع ص ٥٩ وما بعدها • وجلبة الجرح التظلة الرقيقة من الجلد التي تركبه عند البرء • أما الجنبه فهي علبة تتخذ من جلد جنب البعير •

(٣) الجرح : ص ٤٣

٧ — وأخطر من هذا ، تلك التهمة التي ألصقتها به الأزهري وذلك في قوله : « وممن ألف في عصرنا الدائب فوسم بالافتعال وتوليد الألفاظ .. وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد وتصفحت كتاب الجهرة له فلم أراه دالا على معرفة ثاقبة وعثرت منه على حروف كثيرة أنكرتها ولم أعرف مخارجها » (١) .

٨ — ويبدو أن معظم أخطاء ابن دريد قد نتجت عن عدم خبرته بعلم الصرف وفي ذلك يقول ابن جنى : « وأما كتاب الجهرة ففيه أيضاً من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر . ولما كتبته وقعت في متونه وحواشيه جميعاً من التنبية على هذه المواضع ما استحسنت من كثرتة . ثم إنه لما طال على أو مأت إلى بعضه وأضربت البتة عن بعضه » (٢) .

ويبدو أن ابن دريد كان يحس بالنقص في عمله ويعتذر بأنه أمله الكتاب ارتجالاً « لا عن نسخة ، ولا تخليد في كتاب قبله . فمن نظر فيه فليخاصم نفسه بذلك فيعذر إن كان فيه تقصير أو تكرير » (٣) .

ولكننا من ناحية أخرى نجد من العلماء من يشهد له ويقدمه على منافسيه . يقول المسعودي : « وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر ، وانتهى في اللغة ، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها ، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين » (٤) . ويقول

(١) ٣١/١ .

(٢) المزهري ٩٣/١ نقلًا عن الخصائص .

(٣) الجهرة ٢٦٨/٣ .

(٤) وفيات الأعيان ٤٤٨/٣ .

أبو الطيب اللغوى : « هو الذى انتهى إليه علم لغة البصريين • وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما وأقدرهم على الشعر • وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحاما في خلف الأحمر وابن دريد » (١) • ويدافع عنه السيوطى قائلا : « معاذ الله هو برىء مما رُمى به ، ومن طالع الجمهرة رأى تحريره فى روايته • ولا يقبل فيه طعن نفطويه لأنه كان بينهما منافرة عظيمة » (٢) •

وكانت وفاة ابن دريد عام ٣٢١ هـ عن نيف وتسعين سنة • وكان قد أصيب بالفالج على رأس التسعين ثم شفى ثم أصيب به مرة ثانية • وقد طبع معجم الجمهرة فى حيدر آباد بالهند عام ١٣٤٤ هـ فى ثلاثة مجلدات ألحق بها مجلد خاص للفهارس • وقد قام على تصحيحه رجالان هما الشيخ محمد السورتى والمستشرق الألمانى فريتنس كرنكو •

ويبدو أن تعقد منهج الجمهرة • وتمسك ابن دريد بنظام التقليات برغم طرحه لترتيب الخليل الصوتى كانا من أسباب انصراف المعجميين عن اتباع نظام الجمهرة ، ولذا يقف ابن دريد وحده دون أتباع أو مریدين (٣) •

(١) مراتب النحويين ص ٨٤ •

(٢) المزهى ١/ ٩٣ •

(٣) ولكن هذا لم يمنع تأليف بعض الكتب حوله مثل : فائت الجمهرة لأبى عمر الزاهد ، وجوهرة الجمهرة للصاحب بن عباد ، وشرح شواهد الجمهرة لأبى العلاء المعرى •

مثالا تطبيقيان على معجم الجمهرة :

المثال الأول : البحث عن دلّة « ربابة » في الجمهرة :

- الجذر : ر ب ب
- القسم : الثنائى
- الباب : الباء
- المادة : ب ر
- التقلبيات : ب ر — ر ب •

المثال الثانى : ترتيب الكلمات الآتية حسب ورودها في معجم الجمهرة :

علقم — سبابة — ابتلاء — توبيخ — دلال — عصفور — دقيق —
انبثاق — ركود — شتمة •

١ — مجموعة الثنائى بعد التجريد : [سبب — دال — دقق] •

• مجموعة الثلاثى الصحيح : [بثق — ركد — شتم] •

• مجموعة الثلاثى المعتل : [بلو — وبخ] •

• مجموعة الرباعى : [علقم — عصفر] •

٢ — ترتيب كل مجموعة حسب أسبق الحروف :

(أ) سبب — دال — دقق •

(ب) بثق — شتم — ركد •

(ج) بلو — وبخ •

(د) علقم — عصفر •

٣ — ترتيب ما اتفق أسبق الحروف فيه حسب المسادة :

(أ) ب س — د ق — د ل •

(ب) ب ث ق — ت ش م — د ر ك •

(ج) ب خ و — ب ل و •

(د) ر ص ع ف — ع ق ل م •

٤ — الترتيب النهائي :

سبابة — دلال — دقيق — انبثاق — شتيمة — ركود — ابتلاء —
توبيخ — عصفور — علقم •

٢ — وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية :

ظهر هذا النوع من المعجم منذ وقت مبكر لا يتجاوز النصف الثانى
من القرن الثانى الهجرى • وأقدم معجم سلك هذا النظام هو :

معجم الجيم لأبى عمرو الشيبانى :

وتوجد من المعجم نسخة مصورة فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة •
كما قام المجمع بطبعه فى ثلاثة أجزاء حقق الأول منها إبراهيم الإبيارى
(١٩٧٤) والثانى عبد العليم الطحاوى (١٩٧٥) والثالث عبد الكريم
العزباوى (١٩٧٥) وألحق بالمعجم جزء رابع يشتمل على المفهرس
(١٩٨٣) •

ويعد الشيبانى من المعمرين فقد ولد قبل الخليل (٩٤ هـ) ، وتوفى
بعده (٢٠٦ هـ) • ولهذا يطرح بعضهم احتمال أن يكون الشيبانى سابقا
للخليل فى وضع معجمه (١) •

وأبو عمرو راوية كوفى أخذ اللغة مشافهة عن الأعراب ورحل الى
البادية ، وكانت له مشاركة فى رواية الحديث •

(١) انظر : فى علم اللغة العام لشاهين ، ص ١٩٧ • وانظر فى ذكر
الخلاف حول مولده ووفاته : مقدمة المحقق لكتاب الجيم ، ص ١٠ وما بعدها •
ويختار ديم أن يكون مولده حوالى سنة ١٢٠ ووفاته سنة ٢١٣ (ص ١٩٦/١٨) •

ويقولون : إن مؤلف الجيم كان ضنينا به ، ولم ينسخ في حياته ،
فنفق بعد موته إلا يسيرا . وحين أراد مجمع اللغة العربية تحقيقه لم
يعثر إلا على نسخة واحدة ومع ذلك يقول المحقق عن الكتاب : « ولكنه
لاشك ليس على صورته النهائية التي أرادها له واضعه ، كما أنه لا يحمل
مقدمة تعرف بمنهجه وتعلل تلك التسمية » ويقول أيضاً : « هذا الى أن
ورود بعض الأبواب مبتورة يكاد يؤكد لنا أن الكتاب لم يتم استصفاء
على يدى صاحبه أبى عمرو وأن الموت عجل به عن ذلك » (١) .

ويبدو أن عدم تداول الكتاب جعل العلماء يظنون أن سبب التسمية
أنه انتهى بحرف الجيم كما ذكر كرنكو أو أنه بدأ بها كما ذكر كثيرون
لكن قال أبو الطيب اللغوى : « وقفت على نسخة منه فلم نجده مبدؤا
من الجيم » . وكلام أبى الطيب حق ، فالمعجم لا يبدأ من الجيم وإنما
يسير على الترتيب الهجائى العادى بحسب أوائل الكلمات بعد تجريدها
من الزوائد ، ولكنه لم يدخل فى الترتيب ثوانى الكلمات وثوالثها . ولهذا
نجد كلمات حرف الألف تتتابع هكذا : أوق — ألب — أفق — أرح —
أنف — أرب — أخذ الخ .

وربما كانت أهم ميزة لهذا المعجم أن ألفاظه خلاصة استصفاء لشعر
شعراء قبائل تربي على الثمانين يكاد جل شعرهم يكون مجهولا يعز
نتبعه فى المراجع التى بين أيدينا . كما أن هذه الكلمات تحمل شروحا
لا تتطوى عليها معاجمنا ، وتكاد تكون غريبة عليها (٢) .

ولهذا فإن كتاب الجيم يمكن تسميته معجما على سبيل التجوز ،
لأنه يهتم بالألفاظ الغريبة التى لا يكاد يعرفها غيره ، والتى تنسب الى
قبائل معينة قديمة ، ويبدو أن المؤلف — لجريه وراء الغريب — قد أطلق
على معجمه لفظا وأراد به معناه الغريب . فالجيم فى اللغة الديباج ،

(١) ص ٣٥ ، ٤٦ .

(٢) مقدمة المحقق ص ٤٧ ، وفرنر ديم ص ٥٧ .

وهذا هو المعنى الذى ربما عناه المؤلف تشبيها لعمله بالديباج لحسنه (١) .
ولكن يعكر على هذا التخريج أن تفسير الجيم بالديباج لم يرد فى معجم
الجيم نفسه .

وهناك احتمال آخر هو أن يكون المؤلف قد بدأ معجمه بالجيم
فعلا ، ولكن جاء بعده من أعاد ترتيب الكتاب على الترتيب الهجائى
المعروف ويبقى السؤال : لماذا اختار الجيم على هذا الاحتمال ؟
الإجابة يلخصها الأستاذ إبراهيم الإبيارى محقق الكتاب فى قوله :

(أ) إما لأنه كره أن يبدأ بالباء أول الحروف لأنه لا بد معها من
النص على نقطها حتى لا تلتبس بالتاء والتاء . وهذا يطول العنوان ،
ولذا بدأ بالجيم الذى لا يلتبس فى اسمه بحرف آخر .

(ب) أو لأن الجيم أحد حروف خمسة تجمع بين الجهر والشدة (٢) .

وقد كان أول من نوه بمعجم الجيم وأشار الى أهميته المستشرق ف .
كرنكو ولكنه هو ومن جاء بعده من المستشرقين أخفقوا فى تحقيقه .

وفى عام ١٩٦٨ صدرت أول دراسة علمية مفصلة عن المعجم برسالة
أعدها فرنر ديم لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لودفيك ماكسيميليان
فى ميونيخ . وترجم بحث فرنر ديم الى العربية ونشر عام ١٩٨٠ . وقد
أثبت ديم أن كثيرا من مادة « الجيم » لم يرد فى المعاجم الأخرى ، وأن
علماء اللغة المتأخرين لم يأخذوا منه إلا قليلا . كما ذكر أن فى الجيم

(١) هذه المعلومات مأخوذة من بغية الوعاة — كشف الظنون — الاعلام
للزركلى — دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم انيس . (ص ٢٢٣) — محاضرات
فى علم اللغة للمؤلف (ص ٢٠٧) .

وقد ذكر الدكتور عدنان الخطيب أن لآبى عمرو الشيبانى معجما سماه
« الحروف » رتبته على الترتيب الهجائى العادى (المعجم العربى ، ص ٢٩) .
وراجع ما ذكره فى ص ٣٢ ، ٣٣ كذلك .

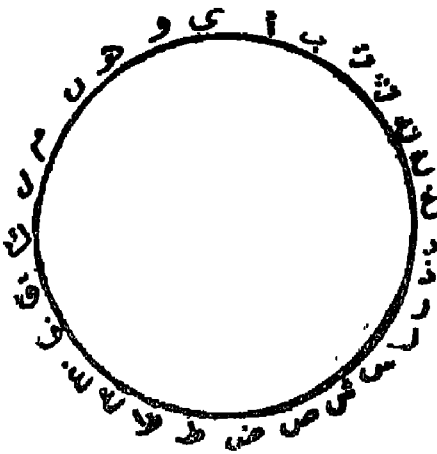
(٢) مقدمة الجيم ص ٣٨ ، ٤٠ .

عددا ضخما من الشواهد الشعرية التي يصعب العثور عليها في مراجع أخرى • وهذا وذاك يعطى المعجم أهمية كبيرة (١) •

المقاييس لابن فارس :

ولد ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني) وعاش ومات في القرن الرابع الهجري قرن النهضة المعجمية الشاملة • وكانت ولادته عام ٣٢٩ هـ (٢) ووفاته عام ٣٩٥ هـ • وآثار ابن فارس اللغوية عديدة منها « صاحبى في فقه اللغة » ومنها « المجمل » بالإضافة الى معجمه مقاييس اللغة الذى معنا • وقد أقيم نظام المقاييس على أساسين هما :

١ — اتباع الترتيب الهجائى العادى • ولكنه لم يكن يبدأ ثوانى الكلمات من أول الألفبائية ولكن من الحرف الذى يلي الحرف الأول • وحينئذ فقوله : باب الحاء وما بعدها يعنى به الحاء مع الخاء ، ثم يسير الى نهاية الألفبائية ، ويبدأ من الهمزة ويقف عند المجيم • وقد شرح الدكتور عبد الله درويش الفكرة قائلا : فإذا تصورنا أن الأبجدية منتظمة فى شكل دائرة فإن الترتيب يبدأ من الحرف المعين مبتدئا بتأليفه مع



(١) ديم ص ١٤٨ ، ١٥٨ •

(٢) ذكر ذلك عدنان الخطيب ص ٣٩ ، وأكد الاستاذ هلال ناجى انه ولد سنة ٣١٢ والأرجح انه ولد خلال العقد الأول من القرن الرابع أو بداية العقد الثانى (مقدمة التحقيق لمجل اللغة) •

ما يليه في الدائرة ثم ينتقل الى الحرف الثاني وهكذا حتى تعود الدائرة من حيث بدأت وهكذا :

وفعل مثل ذلك في الحروف الثلاثة (١) . وعلى هذا فكلمة مثل « عبد » توضع في المقاييس بعد كلمة « عقد » لأن القاف تلي العين بحرفين أما الباء فلا يأتي دورها إلا بعد الانتهاء من جميع حروف الهجاء ثم البدء بالهمزة ثم الباء (٢) .

٢ — تقسيم كل حرف من حروف الهجاء أقساما ثلاثة (إن وجدت الثلاثة) أو بعضها (إن لم توجد كلها) . وهذه الأقسام هي : (أ) المضاعف . (ب) الثلاثي الأصول . (ج) ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف .

وأهم ما يميز المقاييس الى جانب ذلك شيئان :

١ — محاولة ربط المعانى الجزئية للمعانى بمعنى عام يجمعها أو معان عامة . وخير مثال لذلك مادة « جن » التي ردها الى معنى الستر والتستر ، وفرع على ذلك : الجنة لأنها ثواب مستور عنهم اليوم — والجنة بمعنى البستان لأن الشجر بورقه يستر — والجنين الولد في بطن أمه — والجنان القلب — والمجن الترس ، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة — والجنة المجنون ، وذلك أنه يغطي العقل — وجنان الليل سواده وستره الأشياء — والجن سموا بذلك لأنهم مستترون . (٣) .

٢ — مذهبه الخاص في الرباعي والخماسي الذي شرحه بقوله :

(١) المعجم العربي ص ١٢٤ .

(٢) يبدو أن ابن فارس أخذ فكرته البدء في الثواني بما يلي الاوائل وفي الثالث بما يلي الثواني — أخذهما عن معاجم التقليلات . ولكن معاجم التقليلات فعلت ذلك تجنباً للتكرار ، ولا حكمة في صنيع ابن فارس .

(٣) ٤٢١/١ ، ٤٢٢ .

« اعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس يستتبطه النظر الدقيق .
وذلك أن أكثر ما تراه منحوت . ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتحت
منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ . والأصل في ذلك ما ذكره
الخليل من قولهم : حيل الرجل إذا قال حي على . . فعلى هذا الأصل
بنينا ما ذكرناه من مقاييس الرباعي فنقول : إن ذلك على ضربين :
أحدهما المنحوت الذي ذكرناه . والضرب الآخر الموضوع وضعاً لا مجال
له في طرق القياس . . » (١) .

ومن يراجع مادة المقاييس يجد ابن فارس يضيف الى هذين الضربين
ضرباً ثالثاً وهو : « ما يجيء على الرباعي وهو من الثلاثي على ما ذكرناه
لكنهم يزيّدون فيه حرفاً لمعنى يريدونه من مبالغة » (٢) .

وأمثلة هذه الأنواع الثلاثة كما يلي :

١ — بحتر : القصير المجتمع الخلق من بتر وحتر : فالأول كأنه حرم
الطول فبتر خلقه ، والثاني لأنه ضيق عليه ولم يعط ما أعطيه الطويل .

٢ — أما ما وضع وضعاً فمثل لسه بالبخنق والبرغز والبرذن
والبرشم (٣) . . الخ .

٣ — أما ما زيد فيه حرف فمثاله بلعوم من البلع ، وبرقع ، بزيادة
الباء ، وبلسم بزيادة الميم وبلقع بزيادة اللام .

وقد طبع معجم مقاييس اللغة في مصر بتحقيق الأستاذ الكبير
عبد السلام هارون في ستة مجلدات وزود بفهارس دقيقة وافية .

(١) ٣٢٩/١ .

(٢) ٣٣٥/١ .

(٣) البخنق : برقع يغطي العنق والصدر . والبرغز : ولد البقرة
الوحشية . والبرشم : البرقع .

مجلد اللغة لابن فارس :

عده بعضهم أفضل ما ألف ابن فارس وأشهره ، وقد قام بتأليفه —
كما ذكر في مقدمته — ليتلافى تعقيدات المعاجم السابقة مثل العين
والجمهرة • ولذا ألفه مختصرا قريبا ، قليل اللفظ ، كثير الفوائد (١) •

ويكشف عنوان الكتاب عن منهجه ، وهو الإجمال الشديد ، والتقليل
من الشواهد والتصاريف • كما أن المؤلف يكشف عن جوانب أخرى من
المنهج في مقدمته حين يصف المعجم بصغر الحجم وحسن الترتيب •
وفي أوائل الأحرف قد يتحدث المؤلف عن جوانب أخرى من منهجه كقوله
في أول حرف الجيم : « هذا باب الجيم من مجلد اللغة وقد ذكرنا فيه
الواضح من كلام العرب والصحيح منه دون الوحشى المستنكر • ولم
نأل جهدا في اجتناء المشهور الدال على غريب آية أو تفسير حديث أو
شعر • والمتوخى من كتابنا هذا من أوله الى آخره : التقريب والإبانة
عما اختلف من حروف اللغة فكان كلاما ، وذكر ما صح من ذلك سماعا ،
ومن كتاب لا يثبك في صحة نسبه » (٢) •

أما ترتيبه فهو نفس ترتيب المقاييس أى الترتيب الهجائى مع بدء
الثانى مما يلى الأول والثالث مما يلى الثانى والتقسيم الكمى الى مضاعف
وثلاثى وما زاد على ثلاثة أحرف •

بين المقاييس والمجلد :

رغم اتفاق المعجمين فى الترتيب فهما يختلفان فى عدة جوانب منها :

١ — يقوم المقاييس على جملة من الأقيسة تتعلق بالثلاثى والرباعى
كما سبق أن ذكرنا أما المجلد فمعجم عادى همه إيصال معانى الألفاظ
الى القارئ •

(١) مقدمة التحقيق للمجلد ص ٩٦ •

(٢) مجلد اللغة ٣٨٢/١ •

٢ — ينفرد المجلد بذكر مواد كثيرة لم يشر إليها في المقاييس (١) .

وقد طبع المجلد طبعتين محقتين ، أولاهما بتحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، في أربعة أجزاء ، والأخرى بتحقيق هادي حسن حمودي في خمسة أجزاء ، من منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت .

مثالان تطبيقيان على معجمي المقاييس والمجلد :

المثال الأول : البحث عن كلمة « متكلف » في أحد المعجمين :

الجزر : كلف

البسب : الكاف .

القسم : الثلاثي .

المسادة : الكاف واللام ومايثلثهما .

المثال الثاني : ترتيب الكلمات الآتية حسب ورودها في أحد المعجمين :

بهو — حيثان — أتان — تدبير — درهم — بثور — أزيز —
صيام — صنبور — برزخ — دخان — صحراء — دهان .

(أ) تقسم الكلمات الى مجموعات حسب حرفها الأول بعد التجريد :

* أتن — أزر .

* بهو — بثر — برزخ .

* حوت .

* دبر — درهم — دخن — دهن .

* صوم — صنبر — صحر .

(ب) ترتب كلمات كل حرف حسب حجمها :

- * أزر / أتن •
- * بهو — بثر / برزخ •
- * حوت •
- * دبر — دخن — دهن / درهم •
- * صوم — صحر / صنبر •

(ج) ترتب كلمات كل قسم حسب الثوانى والثوات :

- * أزر — أتن •
- * بثر — بهو — برزخ •
- * حوت •
- * دهن — دبر — دخن — درهم •
- * صوم — صحر — صنبر •

فيكون الترتيب النهائى :

أزیز — أتان — بثور — بهو — برزخ — حوت — دهان — تدبير —
دخان — درهم — صيام — صحراء — صنبور •

أساس البلاغة للزمخشرى :

ولد الزمخشرى عام ٤٦٧ ، وتوفى عام ٥٣٨ • وهو أول من اكتمل
على يديه نظام الترتيب الألفبائى • وقد ذكر فى سبب اختياره له
مايأتى : « وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول ، وأسهله متناولا ،
يهجم فيه الطالب على طلبته — موضوعه على طرف الثمام وحبل الذراع » •
ونظام الزمخشرى هو النظام الحديث الذى ينظر الى الأوائل فإذا اتفقت
ينظر الى الثوانى فإذا اتفقت ينظر الى الثوات •• ويشرح الزمخشرى

خطته قائلاً : « من خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى في استعمالات المفلّحين من التراكيب التي قملح وتحسن .. »

« ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف .. بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلّة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا .. »

« ومنها تأسيس قوائين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح .. » (١) .

ولعل أهم ما يميز الكتاب — الى جانب سهولة ترتيته — ما التزمه المؤلف من التفريق بين المعانى الحقيقية والمعانى المجازية للكلمة ، وبدئه بالمعنى الحقيقي * ومن أمثلة ذلك قوله :

١ — سيف وسنان ذَرَبَ .. وفيه ذَرَبٌ وذَرابة : حدة .. ومن المجاز : لسان ذرب .. وسم ذرب ..

٢ — مَجَّ الماء من فيه * وشيخ وبعير ماجَّ : هرم لا يمسك ريقه .. ومن المجاز : مزج الشراب بمجاج الزن وبمجاج النحل .. وهذا كلام تمجه الأسماع .. وإذا كان الزمخشري قد وفق في الأمثلة المسابقة وغيرها فهو لم يوفق في بعض آخر مثل :

١ — .. يقال أشد من وخز الإبر .. ومن المجاز : إبرة القرن لطرفه .
٢ — .. أرتج الباب : أغلقه إغلاقاً وثيقاً .. ومن المجاز : أرتجت الناقة : حملت فأغلقت رحمها على الماء .. وأرتجت الدجاجة : امتلأ بطنها بيضا .

٣ — كتب الكتاب .. انتسخه .. ومن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه .. وكتب البغلة وكتب عليها اذا جمع بين شفريرها بحلقة .. وكتب النعل والقربة : خرزها بسيرين .

وأهم ما نلاحظه على هذه الاقتباسات شيئان :

(أ) أنه ثبت المعانى الحقيقية والأخرى المجازية مع أن المجاز والحقيقة في حركة دائبة ويتبادلان مراكزهما •

(ب) أنه عكس الوضع بالنسبة لكلمات « إبرة » و « أرتج » و « كتب » فاعتبر المجاز حقيقة والحقيقة مجازا •

المصباح المنير للفيومي :

وهو من المعاجم الموجزة ، ومؤلفه من علماء القرن الثامن الهجرى ^(١) . وقد اهتم فيه المؤلف بالاصطلاحات النحوية ، لأنه هدف من تأليف معجمه الى شرح ألفاظ « شرح الوجيز » الذي كتبه الرافعى ^(٢) على « الوجيز » ^(٣) للغزالي وفيه أكثر من الاستشهاد بالحديث النبوى ^(٤) .

والكتاب — كما ذكر الفيومي في خاتمة معجمه — قد جمع أصله من نحو سبعين كتابا ما بين معاجم وموسوعات وكتب تفسير ونحو ودواوين شعر • ويزيد في قيمة المعجم أن المؤلف ألحق بكتابه دراسة موجزة ضمت قواعد من النحو والاشتقاق والتصريف والمصادر والجموع والتذكير والتأنيث والتفضيل والنسب •

(١) لم تحدد المراجع تاريخ مولده ، واستنتج بعضهم أن يكون قد ولد قبيل عام ٧٠٠ . أما تاريخ وفاته فقيل في حدود ٧٦٠ وقبيل ٧٧٠ هـ •

(٢) هو إمام الدين عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الرافعى القزوينى (٥٥٧ — ٦٢٣ هـ) وشرح الوجيز يسمى كذلك : « الشرح الكبير » و « وفتح العزيز في شرح الوجيز » .

(٣) الوجيز كتاب في فقه الشافعية .

(٤) من ذلك قوله في مادة « ثنى » : « اثنت عليه خيرا وبخير واثنت عليه شرا وبشر .. وفي الصحيحين : مروا بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال عليه الصلاة والسلام وجبت . ثم مروا بأخرى فاثنوا عليها شرا فقال عليه الصلاة والسلام وجبت » .

ملاحظة : سارت معاجم هذه المدرسة على اعتبار الأوائل ثم الثوانى ثم الفوائث ، ولكن هناك طريقة غريبة سار عليها أبو حيان في معجمه « تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب » حيث اعتبر الأوائل ثم الثوائث (١) .

٣ — وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد :

لم تظهر — في الحقيقة — معجمات قديمة كاملة اتبعت هذا النظام . وإنما ظهرت مجموعة من الكتب اللغوية التي اهتمت بنوع معين من المفردات وأهم هذه الكتب هو :

١ — « المقصور والمدود » لابن ولاد المصرى المتوفى عام ٣٣٢ هـ . وهو معجم يحصر كلمات المقصور والمدود في اللغة العربية ، وسار فيه المؤلف على النحو التالى :

١ — وضع الكلمات تحت أوائلها بدون تفريق بين الأصلى والزائد .
٢ — اتباع نظام الترتيب الهجائى العادى وطرح نظام الخليل الصوتى .

٣ — عدم إعطاء أى اعتبار لثوانى الكلمات أو ثوائثها .

وقد طبع كتاب ابن ولاد حتى الآن طبعتين غير محقتين ، إحداهما بإشراف الدكتور بول برونل فى لندن — ليدن عام ١٩٠٠ ، والأخرى بإشراف السيد محمد بدر الدين الحلبي فى القاهرة عام ١٩٠٨ — وكلتاهما مليئة بالتحريفات والأخطاء .

(ب) « غريب القرآن » لأبى بكر محمد بن عزيز السجستانى المتوفى عام ٣٣٠ هـ .

(ج) وقد لاقى هذا النظام رواجاً بصفة خاصة بين المؤلفين في غريب القرآن وغريب الحديث ، لأن عملهم في الحقيقة كان يخاطب الجمهور المسلم قبل المتخصصين في البحث اللغوي ، ولا شك أن هذا النظام أيسر على القارئ العادي . ونشير بوجه خاص الى « المفردات في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني ، و « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير .

(د) كذلك سلك الجواليقي هذا السبيل في كتابه عن الكلمات المعربة في اللغة العربية والذي يحمل اسم « المعرب » .

والسر في عدم شيوع هذا النظام بين المعجميين القدماء أنه يمزق كلمات المادة الواحدة ، ويفرقها في أماكن متعددة . فمادة « كتب » مثلاً ستوزع مشتقاتها على النحو الآتي :

كتاب وكتاب و ... في الكاف

مكتب ومكتب و ... في الميم

تكتب وتكتب و ... في التاء

اكتب اكتب و ... في الألف وهكذا

وبذلك ضحى المعجميون بالسهولة في سبيل لَمّ المتفرق وجمع الشمل .

٤ — وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد :

التقنية في اللغة :

مؤلف هذا المعجم أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنجي ، الذي ولد عام ٢٠٠ هـ وتوفي عام ٢٨٤ هـ . والبندنجي نسبة الى بلد يدعى ببندنجين على طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد في أرض السواد ، قرب الحدود العراقية الإيرانية .

رتب المؤلف كتابه على حسب أواخر الكلمات ، بغض النظر عن كونها حروفا أصلية أو زائدة ، مع أخذه في الاعتبار قوافي الشعر وكيفية ترتيبها هجائياً • ومن أجل هذا — ولأن المؤلف هدف الى خدمة الشعراء — لم يرتب الكلمات داخل القافية أى نوع من الترتيب ، وإنما اكتفى بتجميع الكلمات تحت الحرف الأخير (حرف الروى فى القافية) ، مع ما يسبقه حين يكون التزامه ضرورياً فى القافية •

ومما يدل على أن هدف المؤلف لفظى يتمثل فى تقديم القوافي المتماثلة — أنه كثيراً ما كان يسرد الكلمات سرداً متتابعاً دون توضيح معانيها ، وتكراره الكلمة فى أكثر من موضع بحسب ما يلحقها من زوائد تغير القافية • « فكبير » فى قافية و « كبيرة » فى قافية أخرى • • • وهكذا • وقد أفصح المؤلف عن هذا حين قال إنه « اختار الكلام الفصيح الذى لا يجهله العوام » ، وحين أطلق على الفروع داخل الحرف الواحد « قافية » •

ولنمثل لذلك بباب الرء • فقد بدأ بكلمات : المجر — النجر — البشر — العسر • • • ثم قال : « قافية أخرى » اشتملت على كلمات مثل : الميرة — كبيرة — صغيرة — جبيرة • • • ثم « قافية أخرى » اشتملت على كلمات مثل : قماطر — عذاقر — تصافر — تظاهر • •

ومما يؤكد سيطرة فكرة القافية على تقسيمات المؤلف أنه قسم حرف الألف الى : باب الألف الممدودة مثل : أباء — خباء — هباء — حرباء — شتاء • • ثم باب الألف المهمزة مثل : نبأ — ظمأ — كلاً • • • وتحت هذا الباب فروع متنوعة • ففرع يشمل : الظماء — الفناءة — الجراءة • • وفرع يشمل : اللألاءة — الصأصأة — الدأداة • • وأخيراً ذكر باب الألف المقصورة ويشمل كلمات مثل : القفا — البلى — الطلى — العلى • •

ومادام هدف المؤلف تقديم القوافي للشعراء ، وليس هدفه تقديم

المعون لمن يريد ضبط كلمة أو معرفة معناها فإنه لم ير أى داع لترتيب الكلمات داخل القافية الواحدة • لأن من يبحث عن قافية معينة لا يهمه ترتيب الكلمات تحت هذه القافية إذ لابد له أن يقرأ كلمات القافية المرادة كلها • وهذا هو السر فى أن المؤلف لم يرتب الكلمات أى ترتيب آخر على الأوائى أو الثوائى مثلاً • ولهذا فلا معنى لقول محقق « التقفية » : « فلم يدر بخلاذه ارتضاء ترتيب هجائى يوفر على المراجع الجهد ، مما يدل على عدم اختمار المسألة فى ذهنه » (انظر ص ٢٤ من المقدمة) •

وقد طبع المعجم عام ١٩٧٦ باسم « التقفية فى اللغة » وقام بتحقيقه الدكتور خليل إبراهيم العطية ، ونشر فى العراق بمساعدة وزارة الأوقاف •

٥ — وضع الكلمة تحت حرفها الأصلى الأخير •

رائد هذه الطريقة التى يطلق عليها نظام الباب والفصل أو الترتيب بحسب القافية هو الفارابى اللغوى وعنه أخذها تابعون كثيرون •

ومن الباحثين من ينسب الريادة للبندنيجى مؤلف « التقفية » ومن هؤلاء محقق التقفية الدكتور خليل العطية وكذلك الدكتور عبد الصبور شاهين ^(١) • وفى رأى أن كتاب التقفية لا يمكن اعتباره من معاجم الباب والفصل لما يأتى :

(أ) أنه مرتب بحسب الأواخر دون تجريد من الزوائد •

(ب) أنه لم تعتبر فيه الأوائى فى حال اتفاق الأواخر •

(ج) أن مهمته تختلف عن مهمة المعجم ، لأنها تتركز فى عرض كلمات اللغة مبيوبة على حسب تقسيمات القافية فى الشعر العربى • أما مهام المعجم الأساسية التى تتلخص فى شرح الكلمات وضبطها بالشكل

(١) انظر : فى علم اللغة العام ، ص ٢١٥ •

وبيان كيفية كتابتها وتحديد وظيفتها الصرفية •• فتكاد تختفى من هذا الكتاب •

صاحح الجوهري :

يعد الجوهري تابعاً لطريقة الفارابي ، ولكنه أدخل تعديلاً جوهرياً عليها إذ اطرَح الخطوات الكثيرة التي سارت عليها معاجم الأبنية ، واختار من منهج الفارابي المعقد فكرة الباب والفصل وحدها وأدار عليها معجمه • ولذا فإن مزيته — على حد تعبير المستشرق الألماني كرنكو — « تنحصر في أنه رتب المادة اللغوية برمتها في ترتيب هجائي واحد » •

والاسم الكامل لمعجم الجوهري هو « تاج اللغة وصاحح العربية » ولكنه اشتهر باسم « الصحاح » • وتضبط إما بكسر الصاد جمع صحيح وإما بفتح الصاد فتكون مفرداً بمعنى صحيح مثل براء وبريء • وأفضل طبعة للصحاح تلك التي حققها الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار •

وقد سار كتاب الصحاح في الآفاق وبلغ في الشهرة مبلغاً عظيماً ، ويقول القفطي : إنه لما دخلت نسخة منه مصر نظرها العلماء فاستجودوا قرب مأخذها • ويقول إن أهل مصر يروون كتاب الصحاح عن ابن المقطاع الصقلي متصل الطريق إلى الجوهري ، ولا يرويه أحد من أهل خراسان (١) •

وفي رأيي أن كتاب « الصحاح » نال من الشهرة أكثر مما يستحق ، وأن الجهد الحقيقي يعود إلى الفارابي لا إلى الجوهري ، وأن أصابع الاتهام تشير إلى الجوهري بالأخذ والاعتراف من « ديوان الأدب » بدون أن يشير إلى ذلك أو يلمح حتى إليه •

ولما كانت هذه التهمة خطيرة وتمس مكانة الجوهري العلمية فسنعطيها شيئاً من البسط حتى يتضح فيها وجه الحق •

(١) مقدمة العطار لتعذيب الصحاح للزنجاني ، ص ٤٢ •

بين الصحاح وديوان الأدب : كان كرنكو ^(١) أول من تنبه الى العلاقة بين الصحاح وديوان الأدب ، وأشار الى وجود التشابه بل التماثل بينهما ولكنه تحدث عن ذلك في إيجاز شديد وسطحية ظاهرة ، إذ قال إنه عقد مقارنة بين المعجمين « وكم كانت دهشتي أن أكتشف أن الجوهري لم يكتف بأن عب من ديوان الأدب ، بل وجدت — قدر ما استطعت الاستقراء والمقابلة — أن الصحاح لا يحتوى على أى شيء لا يوجد في ديوان الأدب » .

ولم يحاول أحد من الباحثين منذ نشر المقال (عام ١٩٢٤) حتى الآن أن يتوفر على درس القضية ويناقشها مناقشة واعية فكل ما وجه إليها ما قاله الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار : « ولقد أسرف كرنكو في دعواه ولا سند له » . فديوان الأدب للفارابي وصحاح الجوهري موجودان . . والفارق بين المعجمين كبير . وبعد كل هذا نجد عمل الجوهري أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابي « ، وما قاله : « والتقاء الفارابي والجوهري في نقطة أو نقاط ليس دليلا على أن الثاني سطا على الأول » ^(٢) . وحاول الدكتور عبد السميع محمد في أسطر قليلة أن ينفى عن الجوهري دعوى السرقة من خاله الفارابي ، وكان أهم ما اعتمد عليه عدم تحدث أحد من العلماء عن دعوى النقل هذه ^(٣) .

أما نحن فیتلخص رأينا فيما يأتي :

١ — هناك اتفاق بين المؤرخين على أن هناك صلة نسب بين الجوهري والفارابي . فمعظم المؤرخين على أن الفارابي خال الجوهري ، وروى بعضهم رواية أخرى ضعيفة تقول إن الجوهري هو خال الفارابي ^(٤) .

(١) في مقال له بعنوان The Beginning of Arabic lexicography

(٢) مقدمة الصحاح ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) المعاجم العربية ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انباء الرواة ٥٢/١ ، ومعجم الأدباء ٦١/٦ وما بعدها ، ونزهة

الأدباء ، وبغية الوعاة وغيرها .

٢ — كما أن من المتفق عليه تاريخياً وجود صلة علمية بين الفارابى والجوهري ، فقد ذكر المؤرخون أن الجوهري تتلمذ على خاله الفارابى ، بل منهم من ذهب الى تعميق هذه الصلة وقال إنها هى السبب فى تسمية الجوهري بالفارابى ، وأنه سمي بذلك نسبة الى خاله وأصله هو من فارس (١) .

٣ — من الروايات التاريخية الموثقة أن الجوهري قرأ ديوان الأدب على خاله ، وأنه دأن يحتفظ بنسخة منه عنده كتبها بخطه . بل أكثر من هذا يقول ياقوت : إنه بعد أن قرأه على مؤلفه بفاراب أعاد قراءته على أبى السرى محمد بن إبراهيم الأصبهاني بأصبهان ، ثم عرضه على أستاذه أبى سعيد السيرافى ببغداد فقبله ولم ينكره فصار عنده من صحاح اللغة (٢) .

فكل هذه العوامل تجعلنا نقول إن الجوهري قد استفاد ولا شك من ثقافة خاله وعلمه ، وإنه تأثر بشخصيته اللغوية ، واستعان بكتاب « ديوان الأدب » فى تأليف معجمه الصحاح .

ولكن الى أى حد بلغ هذا التأثير ؟

والى أى مدى استفاد الجوهري من ديوان الأدب ؟

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه الآن :

١ — وأول شئ ثابت لا يقبل النقاش أن الجوهري أخذ عن ديوان الأدب نظام الباب والفصل . وهذه قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها أو ينكرها . فأما ديوان الأدب وأمانا الصحاح . ولا شك أن ديوان الأدب أسبق فى التأليف من الصحاح ، ولاشك أن الفارابى هو السابق بهذا النظام .

(١) معجم الادباء ٦/٦٢ ، وبغية الوعاة ، واضاءة الراموس ١/٤٥ .

(٢) معجم الادباء ٦/٦٣ .

وهذه نقطة التقاء هامة لأنها النقطة الجوهرية التي حققت للصاحح الشهرة وأنزلته من المعاجم منزلا حسنا • ومعظم صفات المدح التي وصف بها الصاحح ترجع الى هذا النظام ، مثل وصفه بأنه قريب التناول — حسن الترتيب — سهل المطلب لما يراد منه •

ولا أظن أن الأستاذ العطار ^(١) على حق حين يصر على نسبة الفضل في هذا النظام للجوهري مع اعترافه بأن الفارابي هو السابق • ولا أفهم كيف يمكن التوفيق بين قوله : « ولعل من الحق والإنصاف أن نذكر أن بين الفارابي والجوهري نقطة التقاء وهي تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول » ، وقوله : « والذي نراه أن منهج الجوهري في ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تيسير الأمر على الشعراء والكتاب •• أما المنهج الذي اتبعه فهو من ابتكاره (١١) » وهداه إليه علمه الراسع بالصرف واشتغاله به « (١١) » •

٢ — أما المادة اللغوية ، فلتحقيق صلة الصاحح فيها بديوان الأدب لجأت الى ثلاثة طرق :

أولها : أنى رتبت بعض مواد ديوان الأدب على ترتيب الصاحح ثم قارنت بين النوعين من المادة •

ثانيها : أننى قابلت مادة ديوان الأدب على الصاحح لأرى مدى اتفاقهما في معالجة الألفاظ ، وطريقة تناولهما ، وبيان معانيهما ، وأقف على مازاده أو نقصه كل منهما عن الآخر •

وثالثها : أنى عقدت موازنة بين الكتابين شملت أعلام العلماء وأسماء المراجع ، والأبحاث النحوية ، والشواهد ، والمآخذ اللغوية •

وأظننا — بعد هذه الموازنات — نستطيع أن نصدر حكما ونحن مطمئنون :

(١) مقدمة الصاحح ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ •

أولا

تحليل بعض المواد اللغوية

مادة حبيب :

الصاحح	ديوان الأدب
١ — الحبة واحدة حب الحنطة ، ونحوها من الحبوب .	١ — الحبة واحدة الحب من كل الحبوب .
٢ — وحية القلب سريداؤه ويقال ثمرته وهو ذاك .	٢ — وحية القلب ثمرته .
٣ — والحبة السوداء والحبة الخضراء .	٣ — وهى الحبة الخضراء والحبة السوداء .
٤ — والحبة من الشيء القطعة منه	٤ —
٥ — ويقال للبرد حب الغمام وحب المزن وحب قر .	٥ —
٦ — ابن السكيت : وهذا جابر ابن حبة اسم للخبز وهو معرفة .	٦ —
٧ — والحبة بالكسر بزور الصحراء مما ليس بقوت . وفي الحديث : « فينبقون كما تنبت الحبة في حميل السيل » والجمع حبيب .	٧ — والحبة بزور الصحراء .
٨ — والحبة بالضم : الحب . يقال نعم وحية وكرامة .	٨ —
٩ — والحب : الخابية فارسي معرب . والجمع حباب وحببة .	٩ — والحب : الخابية ، والجمع حباب .
١٠ — والحب المحبة وكذلك الحب بالكسر . والحب أيضا الحبيب مثل خدن وخدين .	١٠ — فلان حبي أى حبيبي ، كما تقول خدن وخدين . والحب أيضا لغة في الحب (انظر ٣٣) .

الصحاح

١١ — يقال أحبه فهو محب وحبه
يحبه بالكسر فهو محبوب ، قال
الشاعر :

أحب أبا مروان من أجل تمره
وأعلم أن الرفق بالمرء أرفق
ووالله لولا تمره ما حبيته

ولا كان أدنى من عبيد ومشرق
وهذا شاذ لأنه لا يأتى فى المضاعف
يفعل بالكسر الا ويشركه يفعل
بالضم اذا كان متعديا ما خلا هذا
الحرف .

١٢ — ويقال : ما كنت حبيبا ،
ولقد حبيت بالكسر اى صرت حبيبا

١٣ — الأصمعى : قولهم حب
بفلان معناه ما أحبه الى . وقال
الفراء معناه حبب بضـم الباء ثم
أسكنت وأدغمت فى الثانية . وقال
ابن السكيت فى قول مساعدة :

هجرت غضوب وحب من بتجنب
وعدت عواد دون وليك تشعب

أراد حبب فأدغم ، ونقل الضمة
الى الحاء لأنه مدح . ومنه قولهم :

حبذا زيد . فحب فعل ماض
لا يتصرف وأصله حبب على ما قال

الفراء ، وذا فاعله . وهو اسم
مبهم من أسماء الإشارة ، جعلوا

شيئا واحدا فصار بمنزلة اسم يرفع
ما بعده . وموضعه رفع بالابتداء ،

وزيد خبره فلا يجوز أن يكون بدلا
من ذا لأنك تقول : حبذا المرأة ولو

كان بدلا لقلت :
حبذه المرأة قال الشاعر جرير :

ديوان الأدب

١١ — ذكر فى باب فَعَل يفعل :
يقال حبيته بمعنى أحبته . وهذا
شاذ لأنه لا يأتى يفعل — بالكسر —
فى المضاعف وهو واقع الا أن
يشركه يفعل .

١٢ —

١٣ —

ديوان الأدب

- ١٤ — تحبب اليه أى تودد .
١٥ — وتحبب الحمار اذا امتلأ
من الماء .

١٦ —

- ١٧ — استحببه عليه أى آثره
واستحببه أى أحبه .
١٨ — تحاببوا أى أحب كل
واحد منهم صاحبه .
١٩ — والحباب الحبيب .

٢٠ —

- ٢١ — الحباب : الحية . ومنه
سمى الرجل الحباب . وانما قيل
الحباب اسم شيطان لأن الحية
يقال لها شيطان .
٢٢ — حباب الماء معظمه
والحبابه واحدة حباب الماء .

- ٢٣ — ويقال حبابك أن تعمل
كذا أى غايتك .
٢٤ — والاحباب هو البروك .

الصاح

وحبذا نفحات من يمانيه
تأتيك من قبل الريان أحيانا
١٤ — وتحبب اليه تودد .
١٥ — وتحبب الحمار اذا امتلأ
من الماء ، وشربت الابل حتى حببت
أى قبلت ريا .

١٦ — وامرأة محبة لزوجها ،
ومحب لزوجها أيضا عن الفراء .
١٧ — الاستحباب كالاستحسان .

١٨ — وتحاببوا أى أحب كل
واحد منهم صاحبه .
١٩ — الحباب بالكسر المحابة
والموادة .

٢٠ — الحباب بالضم الحب قال
الشاعر :

فوالله ما أدري وأنى لصادق
أداء عرائى من حبابك أم سحر

٢١ — الحباب أيضا الحية .
وانما قيل الحباب اسم شيطان لأن
الحية يقال لها شيطان . ومنه
سمى الرجل .

٢٢ — وحباب الماء بالفتح معظمه
قال طرفة :

يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المغايل باليد
ويقال أيضا حباب الماء : نفاخاته
التي تعلوه وهى اليعاليل .

٢٣ — وتقول أيضا : حبابك أن
تفعل كذا أى غايتك .
٢٤ — والاحباب البروك .

الصحاح

٢٥ — والاحباب في الابل كالحران
في الخيل ، قال الشاعر :
ضربت بعير السوء اذ احبا
ابو زيد : يقال بعير محب . وقد
أحب احبابا ، وهو أن يصيبه مرض
أو كسر فلا يبرح من مكانه حتى
يموت ، وقال ثعلب :
يقال أيضا للبعير الحسير : محب
وأنشد :

جبت نساء العالمين بالسبب
فهن بعد كلهن كالمحب
٢٦ — وأحب الزرع والب إذا
دخل فيه الاكل ، وتنشأ فيه الحب
والب .

٢٧ — الحبب بالتحريك تنضد
الأسنان قال :

وإذا تضحك تبدى حبيا .

٢٨ — الحباب اسم رجل بخيل
كان لا يوقد الا نارا ضعيفة مخافة
الضيغان فضربوا بها المثل حتى قالوا
نار الحباب لما تقدحه الخيل
بحوائرها .

قال النابغة يذكر السبوت :

تقد السلوقي المضاعف نسجه

وتوقد بالصفاح نار الحباب
وربما قالوا : نار أبي حباب ،
وهو ذباب يطير بالليل كأنه نار ،
قال الكميت :

يرى الراعون بالشفرات ممتها

كنار أبي حباب والظبينا

وربما جعلوا الحباب اسما لتلك

النار ، قال الكسعي :

ما بال سهمى يوقد الحبابا

ديوان الأدب

٢٥ — ويقال للبعير محب اذا
كان لا يبرح موضعه من كسر أو
مرض .

٢٦ —

٢٧ — حبب الأسنان تنضدها .

٢٨ — نار الحباب النار التي
توربها الخبيل بحوائرها من
الحجارة . ويقال الحباب اسم
رجل كان بخيلا جدا .

الصباح

قد كنت أرجو أن يكون صائبا
 ٢٩ — حبان بالفتح اسم رجل
 موضوع من الحب .
 ٣٠ — الحباب بالفتح الصغار ،
 الواحد حباب ، قال الهذلي :
 دلجى اذا ما الليل جن
 على المقرنة الحباب
 يعنى بالمقرنة الجبال التي يدنو
 بعضها من بعض .
 ٣١ — حبى على فعلى اسم
 امرأة ، قال هذبة بن خثرم :
 فما وجدت وجدى بها أم واحد
 ولا وجد حبى بابن أم كلاب
 ٣٢ —

٣٣ — انظر رقم ١٠

٣٤ —

٣٥ —

٣٦ —

٣٧ —

٣٨ —

ديوان الأدب

٢٩ — حبان من أسماء الرجال .
 ٣٠ — الحباب الصغير الشأن
 الحقير .
 ٣١ —
 ٣٢ — الحب الخشببات الأربع
 التي توضع عليها الجرة ذات
 العروتين .
 ٣٣ — المحبة الحب .
 ٣٤ — هو الحبيب .
 ٣٥ — يقال أتانا زمن الحباب
 أى زمن تلقيح النخل .
 ٣٦ — حبان من أسماء الرجال .
 ٣٧ — حبيت الرجل اذا أطعمته
 الحب .
 ٣٨ — حبيب الله اليه الايمان وهو
 نقيض التكريه .

ومن هذه الموازنة نخرج بالنتائج الآتية :

١ — توجد في الصحاح زيادات ليست في ديوان الأدب مثل الفقرات ٥ ، ٦ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٣١ ومثل الزيادات التي نجدها داخل الفقرات على سبيل الشرح أو التفصيل أو الاستشهاد •

ونلاحظ أن بعض هذه الزيادات يحتاج الى نقل عن مرجع آخر كالفقرة رقم ١٣ وهي موجودة في تهذيب اللغة ، وبعضها موجود في العين ، والفقرة رقم ٢٦ ولم أجدها في العين ولا الجمهرة ولا تهذيب اللغة • كما أن بعضها من قبيل التطبيق أو الشرح والتفصيل الذي لا يحتاج الى مرجع •

٢ — كما توجد في ديوان الأدب زيادات ليست في الصحاح مثل الفقرة رقم ٣٢ وهي موجودة في التهذيب والعين ، والفقرتين رقم ٣٥ ، ٣٧ ولم أجدهما لا في العين ولا التهذيب ولا الجمهرة •

٣ — ولكننا الى جانب ذلك نلمح شعبها كبيراً وأحياناً تماثلاً بين بعض الفقرات مثل :

(أ) الفقرة رقم ٣ ، فالعبارة هي العبارة ، والغمرض في الغمرض هو الغمرض • والعبارة — بعد هذا — لم ترد في العين ولا التهذيب ولا الجمهرة •

(ب) ومثل رقم ٩ ، وتفسير الحب بالخابية لم يرد في العين ولا الجمهرة ولا التهذيب • وعبارة الخليل : الحب الجرة الضخمة • وعبارة الجمهرة : الحب الذي يكون فيه المساء • وعبارة التهذيب هي عبارة الخليل •

(ج) ومثل الفقرة رقم ١٨ ، ولم ينص في العين ولا في الجمهرة ولا في التهذيب على هذا المعنى لأنه مفهوم من الصيغة • ولكننا نجده عند الصحاح بعبارة ديوان الأدب • ولو لم يكن قد أخذ العبارة منه لوجدنا اختلافاً بين العبارتين • وقد كان في إمكان الجوهري أن يقول مثلاً : أي أحب بعضهم بعضاً ، أو أحب كل واحد منهم أخاه ، أو أحب كل منهم الآخر •

ثانيا

مقابلة المادة اللغوية

بمقابلة مادة ديوان الاديب على الصحاح يتبين ما يأتى :
 ١ - اتفاق المعجمين اتفاقا تاما في معالجة كثير من الصيغ والانماط مما يدل على وجود صلة بينهما . ويظهر ذلك من النماذج الآتية :

المعجم	الجمهرة	ديوان الاديب	الصحاح
وأما حسب مجزوم فمعناه كما تقول حسبك هذا أى كفاك	حسين كذا وكذا أى يكفينى	ويقال حسبك درهم أى كفاك ويقال هذا رجل حسبك اسم . وهذا رجل حسبك من رجل من رجل وهو مدح للنكرة	وحسبك درهم أى كفاك وهو
المسقب لفظة فى المسقب والمسقية	المسقب بالسين والصاد حواري الناقة وبالسین اکثر والمسقب بالصاد . . . عموذ من عهد البيت .	المسقب ولد الناقسة الذكر والمسقب لفظة فى المسقب من والشىء الطويل مع تترارة مع تترارة . . والمسقب والمسقب عموذ والمسقب عموذ البيت الأطول	المسقب الذكر من ولد الناقسة . . والمسقب الطويل من كل شىء مسعود تترارة . . والمسقب والمسقب عموذ الخباء
المسقب لفظة فى المسقب والمسقية	المسقب بالسين والصاد حواري الناقة وبالسین اکثر والمسقب بالصاد . . . عموذ من عهد البيت .	المسقب ولد الناقسة الذكر والمسقب لفظة فى المسقب من والشىء الطويل مع تترارة مع تترارة . . والمسقب والمسقب عموذ والمسقب عموذ البيت الأطول	المسقب الذكر من ولد الناقسة . . والمسقب الطويل من كل شىء مسعود تترارة . . والمسقب والمسقب عموذ الخباء

المصاح	ديوان الادب	الجمهرة	المعين
<p>الشجيب الخشبة التي ظفى عليها الثياب</p>	<p>الشجيب الخشبة التي ظفى عليها الثياب .</p>	<p>الشجيب والشجيب واحد ، ويقال الشجيب ايضا ويسمون الكلالث الخشببات التي يعانى عليها الراعى سقاه وطلود الشجيب .</p>	<p>الشجيب والشجيب خشبات موزقة تنصب وتنشر عليها الثياب .</p>
<p>الجلوية ما يجلب للبيع . والجليب الذى يجلب من بلد الى غيره .</p>	<p>لجلوية ما يجلب للبيع . ؛ الجليب الذى يجلب من بلد الى غيره .</p>	<p>الجليب والجلوب الامجر ، جلب من بذه الى بلاد الاسلام . وعبد جلب ومجروب .</p>	<p>الجلوية ما يجلب للبيع نحو النساب والنحل والقاروص وعبد جلب وعبد جلب اذا كانوا جلبيا من اياهم ويستقثم .</p>
<p>اجلبه اى اعانه .</p>	<p>اجلبه اى اعانه .</p>		
<p>انجابت السحابة اى انكسفت انجابت السحابة انكسفت</p>			

٢ — ولكننا من ناحية أخرى نجد اختلافا كبيرا بين المجهين في معالجة الفاظ أخرى وشرحها وبيان ضبطها كما يبين من النتائج الآتية :

المصاح	حيوان الادب
١ — الكثر بالكسر المنام .	١ — الكثر (بالفتح) : المنام .
٢ — وقول من قال : كل صانع عند العرب اسكاف ففعر	٢ — كل صانع اسكاف عند العرب .
معروف .	
٣ — الهادر اللين اذا خثر أعلاه وأسفله .	٣ — الهادر اللين اذا خثر أعلاه وأسفله رقيق .
٤ — ذئب أطلس وهو الذي في لونه غيرة الى السواد .	٤ — الأطلس من الذئاب الذي تساقط شعره .
٥ — السمع ولد الذئب من الضبيع .	٥ — السمع ولد الضبيع من الذئب .
٦ — البردان بالتحريك موضح .	٦ — البردان اسم موضح .
٧ — يوم سخنان (يضم السين) أى حار .	٧ — يوم سخنان (بفتح السين) أى حار .

٨ — وضع الفلرابي « تولج » في السالم الرباعي المصحح بواو بعد الغاء (تلج) ، ووضعها الجوهري في باب الجيم فصل الروا لان التاء متقلبة عن واو .

٣ — كما نجد زيادات كثيرة في الصحاح ليست في ديوان الأدب .
ولسنا في حاجة الى ضرب الأمثلة على ذلك ، فهو واضح من الموازنة
السابقة بين مادة حبيب في ديوان الأدب والصحاح ، كما يتضح من
المقارنة بين حجمي المعجمين ، فحجم الصحاح يبلغ مثلي ديوان الأدب ،
ولذلك جاء أكثر ألفاظا وأوفر مادة .

٤ — ونجد أيضاً زيادات في ديوان الأدب ليست في الصحاح ،
ولكنها قليلة بالنسبة لزيادات الصحاح قلة ظاهرة . وقد جمعت هذه
الزيادات فلم تزد على بضع صفحات (١) .

ثالثا

دراسة الظواهر المشتركة

١ — اذا قارنا بين المعجمين من حيث الأعلام نجد الجوهري أكثر
من ذكر أسماء العلماء والرواة بخلاف الفارابي الذي كان مقلا جداً .

٢ — ومن حيث المراجع ، لم يذكر الفارابي اسم أى مرجع من
المراجع التي رجع إليها في حين أن الجوهري كان أحيانا يذكر اسم
المرجع ومن هذه المراجع : الإبل للأصمعي ، والهزم لأبى زيد ، والكتاب
لسيبويه ، والفرق للأصمعي ، والغريب المصنف لأبى عبيد ، والفرس
للأصمعي .

٣ — ونجد الأبحاث النحوية كثيرة في الصحاح ، وتفوق نظيرتها
في ديوان الأدب .

(١) راجع رسالتنا للماجستير عن الفارابي اللغوي ، ص ٣١٢ .

٤ — أما الشواهد فتفوق في الصحاح عددها في ديوان الأدب ، سواء كانت قراءات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أمثالا أو أبياتاً شعرية . وهناك شواهد لم ينسبها الفارابي ونسبت في الصحاح ، أو جاءت ناقصة في ديوان الأدب ورواها الجوهري كاملة كما أن هناك أشياء خالف فيها الصحاح ديوان الأدب (١) .

٥ — وأما المآخذ اللغوية التي أخذها العلماء على الصحاح فنجد كثيراً منها مشتركاً بين الصحاح وديوان الأدب ، وبعضاً منها ينفرد بها الصحاح ، مما يدل على أن الجوهري لم يأخذها من ديوان الأدب . ومن أمثلة المآخذ المشتركة بينهما :

(أ) قال الفارابي : الشَّبَرُ العطية وأصله بالتسكين .

قال العجاج : الحمد لله الذي أعطى الشَّبَرَ .

وقال الجوهري : ومصدره الشبر (بالسكون) إلا أن العجاج حركه فقال :

الحمد لله الذي أعطى الشبر .

قال ابن بري : وقول الجوهري إن الأصل فيه الشبر بسكون الباء ... وهم لأن الشبر مصدر شبرته إذا أعطيته والشبر اسم للعطية .

(ب) ذكر الفارابي كلمة « اللفاء » في الناقص لا المهموز ، وكذلك فعل الجوهري .

(١) راجع تفصيل ذلك في المرجع السابق ، ص ٣١٣ — ٣٢٣ .

قال الصغاني ، والمهموز موضعه •

(ج) ذكر الفارابي « الزرجون » في باب فعلول على اعتبار أن نونها أصلية • وكذلك فعل الجوهري إذ ذكرها في باب النون فصل الزاي •
قال الصغاني : وموضعه « زرج » لأن وزنه فعلون والجيم لام الكلمة •

(د) قال الفارابي في باب مثل : منعج اسم موضع • وكذلك ضبطها الجوهري (بالفتح) •

قال الصغاني : والصواب فيه كسر العين ، ولعله نقله من كتاب الفارابي •

(هـ) قال الفارابي : وسالم من أسماء الرجال • وقال بعضهم : يقال للجلدة التي بين العين والأنف سالم • ومثل هذا في الصحاح •

قال الصغاني : وهذا غلط وقد تبع خاله الفارابي في أخذ اللغة من معنى الشعر •

(و) قال الفارابي : غضبي مائة من الإبل وهي معرفة لا تدخلها الألف واللام • ومثل هذا قاله الجوهري •

وقال الفيروزابادي : قول الجوهري تصحيف والصواب غضياً بالمشناة تحت • وغير ذلك كثير وكثير •

ويتضح من هذا كله وجه الشبه الكبير في المادة اللغوية بين الصحاح وديوان الأدب ، فما معنى هذا ؟ وما تفسيره ؟

قد يقال إن الجوهري لم يأخذ تلك المادة من الفارابي ، وإنما أخذها من أصوله ومراجعته الأولى •

ولكن الذي يبدو أن الجوهري قد استعان بديوان الأدب مباشرة

وأنه أخذ منه كثيراً من مادته اللغوية مما أدى الى هذا التشابه أو التماثل في بعض الأحيان • ويبدو أيضاً أن كثرة ما أخذه الجوهري عن خاله كانت السبب في إغفاله ذكر اسمه في معجمه جميعه إغفالاً تاماً ، وإلا فلو حرص على ذكر اسمه في كل موضع لتكرر اسمه في كل صفحة ولسجل الجوهري على نفسه الحكم بالتبعية ، وهو ما حاول أن يخفيه ويطمس معالمه • وإلا فكيف نحل تسجيل الجوهري أسماء العلماء الذين نقل عنهم (وأسماء المراجع في بعض الأحيان) ومنهم من نقل عنه مرة واحدة أو مرتين ، وفي مسائل غير ذات بال ، ومنهم من لا يتمتع بمثل شهرة الفارابي وطيب سمعته ^(١) ؟ ولو أن الجوهري كان حسن النية ، أو لو أنه لم يأخذ كل هذه المسادة المشتركة من « ديوان الأدب » مباشرة لذكر اسمه ولو مرة واحدة • وإذا كان الجوهري قد أحس بالحرَج من كثرة تردد اسم خله في كل صفحة ، فلا أقل من أن يشير الى اسمه في مقدمة معجمه ويشيد بفضله •

ولكننا مع هذا لا نوافق كرنكو في قوله : « إنه ليس في الصحاح شيء لا نجده في ديوان الأدب » فالصحاح أوسع مادة وأكثر كماً من ديوان الأدب ، وهو يحتوي على زيادات كثيرة لا نجدها في ديوان الأدب كما سبق أن ذكرنا ، وأظنه لو عكس القضية فقال : « ليس في ديوان الأدب شيء إلا نجده في الصحاح » لكان أقرب الى الصواب وأدنى الى الحقيقة ، وإن كان هذا الحكم كذلك ليس على إطلاقه •

والخلاصة أن الصحاح متأثر بديوان الأدب في نظامه ، وفي مادته اللغوية ، وأنه استفاد منه كثيراً — مباشرة وبالواسطة — وإن اشتمل

(١) ممن نقل عنهم الجوهري مثلاً أبو الفوثن (في عجين أنبجان) • والجوهري ينقل في صحاحه عن أسانذته المباشرين — من طبقة الفارابي — كابى على الفارسي وأبى سعيد السبرافي • ويبدو أن الجوهري كان من دابه اغفال أهم الأسماء التي اعتمد عليها ، فقد فعل نفس الشيء بالنسبة لابن قتيبة ، فقد أغفل ذكر اسمه اغفالاً تاماً برغم كثرة ما أخذه عنه وكثرة اشاراته الى العلماء بشكل ملحوظ •

على زيادات كثيرة ليست فيه • وقد أحس بهذه الاستفادة الصغاني من قبل فنبه في أكثر من موضع من كتابه « التكملة » على ذلك كما سبق أن ذكرنا • كذلك أدركها الفيومي فأشار إليها أكثر من مرة في معجمه المصباح المنير (١) •

الأعمال التي دارت حول الصحاح :

لاقى الصحاح اهتماما كبيرا من الطلاب والباحثين منذ ظهوره وتثبت عليه شروح وتعليقات عديدة ، كما قام أكثر من عالم باختصاره • وقد أخذت الأعمال التي دارت حول الصحاح أشكالا خمسة هي :

- ١ — التوهم
- ٢ — الدفاع
- ٣ — التذييل والتعليق
- ٤ — الاختصار
- ٥ — الترجمة

وأشهر ما ألف في توهم الصحاح كتابان هما :

أولا : التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم في كتاب الصحاح ، الذي يعرف كذلك بحواشي ابن برى ، وقد نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة باسم : كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح بتحقيق الأستاذين مصطفى حجازي وعبد العليم الطحاوي (١٩٨٠ — ١٩٨١) •

وهذا الكتاب يعد من أسبق التعليقات النقدية على الصحاح لأن مؤلفه عبد الله بن برى المصرى قد ولد عام ٤٩٩ هـ وتوفي عام ٥٨٢ هـ • فإذا علمنا أن الصحاح قد دخل مصر على يد ابن القطاع المتوفى

(١) انظر مثلا مادة سدد وشوش •

عام ٥١٥ هـ أدركنا مدى حرص ابن برى منذ نشأته على الاشتغال بهذا الكتاب والنظر فيه ، وتتبع ما فيه « محصياً غلطاته ومخرجاً سقطاته » .

ولا ترجع أهمية حواشى ابن برى (التنبيه والإيضاح) الى قدمها فقط ، وإنما الى جملة أمور ، من بينها :

١ — أنها أحد الأصول الخمسة التى وثق فيها ابن منظور (مؤلف لسان العرب) ، وبنى عليها معجمه .

٢ — أنها من كتب اللغة القلائل التى توفر لمؤلفيها عمق النظرة ، ودقة الرواية ، وكثرة المحفوظ ، وسعة الاطلاع — الى جانب العناية الفائقة بالنحو والتصريف .

وقد عرف ابن برى بهذه الصفات فلفت الأنظار إليه وهو فى سن مبكرة ، ووقع عليه الاختيار وهو فى الحادية والعشرين من عمره ليتولى التصفح فى ديوان الإنشاء بمصر « فكان لا يصدر كتاب عن الدولة الى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفى » .

وقد جمع ابن برى الى علمه أدباً جما ولساناً عفاً ، فكان — كما يقول محقق الكتاب — « لا يسارع الى التخطئة ، ولا يكتهم بالغفلة أو الجهل . وهذه سمة العلماء ، يعرفون فضل المتقدم ويحترمون اجتهاد غيرهم ... » . ويعجب الزبيدى بأدب ابن برى فيقارن بين عبارته : « وليس كما ذكر » ، وعبارة الفيروزابادى : « وأخطأ الجوهري فى الإطلاق » ، ويقول : « ولكن ما أحطى تعبيره بقوله : وليس الأمر كما ذكر . فانظر أين هذا من قوله [الفيروزابادى] : أخطأ ، على أنه لا خطأ » .

ولهذا جاءت تعليقات الذين أرخوا لحياته حافلة بعبارات التقدير والفاظ الثناء . فالسيوطى يقول : « إنه لم يكن فى الديار المصرية مثله .

وكان قيماً بالنحو واللغة والشواهد ثقة * والمتفطن يقول : « كان جمّ الفوائد ، كثير الاطلاع ، عالماً بكتاب سيبويه وعلمه ، وبغيره من الكتب النحوية ، قيماً باللغة وشواهدها * وكانت كتبه في غاية الصحة والجودة * وأكثر الرؤساء بمصر استفادوا منه وأخذوا عنه » * ويصفه ابن خلكان « بالإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية ، علامة عصره ، وحافظ وقته ، ونادرة دهره » *

وهناك إشارة في بعض المراجع القديمة الى أن ابن برى لم يكمل حواشيه على الصحاح وأنه وقف عند مادة « وقش » ، لكن الأستاذ مصطفى حجازى يرجح إتمام الكتاب وبلوغ ابن برى بحواشيه آخر الصحاح * ويتوقع الأستاذ حجازى إمكانية الحصول على نسخة كاملة من حواشى ابن برى عن طريق استخلاص ما في لسان العرب لابن منظور من نقول عن ابن برى بعد مادة « وقش » (١) *

دراسة تحليلية لكتاب ابن برى :

نقرر بادئ ذي بدء أن ابن برى لم يستوعب في حواشيه كل ما يمكن أن يوجه الى الصحاح من نقد * وقد وجدنا — في حدود المادة التى وصلتنا من حواشى ابن برى — أن ابن برى قد أغفل بعض المآخذ التى وردت عند غيره كالصاغانى والفيروزابادى * ونكتفى بذكر المثالين التاليين :

١ — ذكر الجوهري أن الأتان تسمى البيدانة * وقد نقل ابن برى هذه التسمية دون أن يعقب عليها بالرفض كما فعل الصاغانى * ففى التكملة (٨/٢) : « أتان بيدانة تسكن البيداء ، وهى غير ما قيل : البيدانة الأتان * ففى هذا القول نظر » * وتقبيد البيدانة بساكنة البيداء سبق به الخليل فى العين ونقله عنه الأزهري فى تهذيب اللغة *

ولكن ابن برى يذكر للبيدانة تفسيرين هما : التى تسكن البيداء

(١) راجع مقدمة المحقق ص ٥ وما بعدها *

(فتكون النون زائدة) أو العظيمة البدن (فتكون النون أصلية) ،
ولا يوجه أى نقد لعبارة الصحاح .

٢ — ذكر الجوهري في فصل (ثعلب) بيتاً شاهداً على أن الثعلبان :
ذكر الثعالب ، وهو :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

ولم يعقب ابن برى على هذا بأكثر من قوله : « هذا البيت مختلف
في قائله فبعضهم يرويهِ لغاوى بن ظالم ، وبعضهم يرويهِ لأبى ذر
الغفارى ، وبعضهم يرويهِ للعباس بن مرداس » .

وأمانا تعليق كل من الصاغانى والفيروزابادى على الشاهد :

(أ) قال الصاغانى : والصواب الثعلبان : تنثية ثعلب (التكملة
١ / ٢٠) .

(ب) وقال الفيروزابادى : واستشهد الجوهري بقوله : أرب يبول
الثعلبان برأسه غلط صريح . . والصواب في البيت فتح التاء لأنه مثنى .

فإذا أردنا أن نحلل تعليقات ابن برى على الصحاح تحليلاً
موضوعياً نجدها تدور حول ما يأتى :

١ — نسبة الجوهري الى الخطأ الصرفي الذى أدى الى وضع الكلمة
في غير موضعها الصحيح . ومن ذلك وضعه « الأبناء » لأجمة القصب في
المعتل مع أن همزتها أصلية ، ووضع « اختنا » بمعنى استتر خوفاً
أو حياء في (ختا) مع أنها من ختا يختو ، فحقها أن توضع في المعتل .
ومن ذلك وضعه « الفئة » بمعنى الطائفة في (فئاً) مع أن أصلها فئو ،
فالهمزة عين ، والمحدوف لامها وهى الواو ، وكذلك وضعه « حبظاً »
في (حبطاً) وصوابه في (حبط) لأن الهمزة زائدة .

٢ — الاستدراك على ما ساقه من شواهد ، وهذا يشمل :

(أ) نسبة الشاهد الى قائله ، ومن ذلك نسبته البيت :

ثنياننا إن أتاها كان بدأهم وبدؤهم إن أتاها كان ثنيانا

الأوس بن مغراء السعدى (٦/١) ، والبيت :

إذا الأرطى توسد أبرديه خرد جوازيء بالرمسل عين

للشماخ بن ضرار (٩/١) .

(ب) تصحيح نسبة الشاهد ، ومن ذلك نسبة الجوهري بعض بيت

وهو : .. قتيل التجوبى ..

نسبته للكميث ، وهو الوليد بن عقبة (٥٥/١) ، ونسبته :

والقصب مضطمر والنتن ملحوب

لامرئ القيس ، وهو لإبراهيم بن عمران الأنصارى (١٢٩/١) ،

ونسبته :

جرهت عليها كل رريح ريذة

هوجاء سفواء نؤوج الغدوة

لهميان بن قحافة ، والقائل هو علقمة التيمي (٢٤/٢)

(ج) تكملة الشاهد ، ومن ذلك استشهاد الجوهري بنصف البيت :

ولو تعادى ببعاء كل محلوب

وقد عقب ابن برى قائلًا : صدره :

يقال محبسها أدنى لمرتعا (٧/١)

وكذلك استشهاد الجوهري بعجز بيت لامرئ القيس وهو :

كمشى أتان حلت عن مناهل

قال ابن برى : صدره :

وأعجبني مشى الحزقة خالد (١٢/١)

(د) إضافة شواهد جديدة ، ومن ذلك أن الجوهري قد ذكر أن الإِسوار لغة في السرار نقلاً عن أبي عمرو • وقد عقب ابن برى بقوله : « وحقه أن يذكر شاهداً على الإِسوار لغة في السوار لئلا يظن أن الإِسوار في السوار قول انفرد به أبو عمرو • وشاهده قول الأحيوس :

غادة تغرث المرشاح ولا يغـ رث منها الخخال والإِسوار

وقال حميد بن ثور •• وقال العرندس الكلابى •• وقال المرار بن سعيد الفقعسى •• « (١٣٥/٢) •

(هـ) الاعتراض على مكان وضع الشاهد ، فقد قال الجوهري : « قِراب السيف : جفنه ، وهو وعاء يكون فيه السيف بغمده وحمالته ، وفي المثل : إن الفرار بقِراب أكيس » ، وقد عقب ابن برى قائلاً : « صواب الكلام أن يقول — قبل المثل — والمقِراب : القِرب ، ويستشهد بالمثل عليه ، لأن هذا المثل •• الخ » (١٢٧/١) •

(و) التعليق على الشاهد بتفسير غامضه أو بيان مناسبته أو توجيهه أو ذكر أصله ومضربه إن كان مثلاً • وأكتفى باقتباس الأمثلة الآتية :

✽ عقب على رواية بيت عدى بن زيد :

أَجَلْ أَنْ الله قد فضلكم فوق ما أحكى بصلب وإزار

قائلاً : « هذه الرواية تحتاج الى تفسير ، لأنه أراد بالصلب هاهنا الحسب ، وبالإزار العفاف • أى فضلكم الله بحسب وعفاف فوق ما أحكى أى : أقول •• » •

✽ عقب على قول الجوهري إن الرجز الآتى لامرأة ترقص ابنها :

أشبهه أباً أمك أو أشبهه عمل
ولا تكونن كهلٍ رفٍ وكلٍ
يصبح في مضجعه قد انجدل
وارق إلى الخيرات زنتاً في الجبل

عقب قائله : « البيت [اقتبس الجوهري البيت الأخير] لقيس
ابن عاصم المنقري ، وكان أخذ صديقاً من أمه يرقصه ، وأمّه منقوسة بنت
زيد الفوارس ، والصبي هر ابنه واسمه حكيم . . وزعم الجوهري أن
الرجز لأمه قالت له وهي ترقصه ، وليس بصحيح ، وإنما الذي قالته
رادة على أبيه هو :

أشبهه أخى أو أشبهن أباك
أما أبى فلن تنال ذاك
تقصر أن تناله يداك »

✽ عقب ابن برى على اقتباس الجوهري المثل : « أساء سمعاً فأساء
جابه » بقوله : « ولم يذكر أصله . وأصله — على ما ذكر الزبير بن بكار —
أنه كان لسهل بن عمرو ابن مضعوف ، فقال له : إنسان : أين أمك ؟
أى قصدك ، فقال : ذهبت تشتري دقيقاً ، فقال أبوه : أساء سمعاً
فأساء جابه » .

(ز) تصحيح الرواية أو الضبط . والأمثلة على هذا كثيرة منها :
✽ روى الجوهري البيت التالي بنصب « ملجأ » :

وملجأ مهروئين يلفى به الحيا إذا جئفت كحل هو الأم والأب

فعقب ابن برى قائله : « صوابه : وملجأ بكسر الهمزة لأن قبله . . . »

✽ روى الجوهري صدر بيت شاعداً . . وهو :

والخيل تمزع غرباً في أعنتها

فعقب ابن برى قائلًا : « وصواب إنشاده : والخيل بالنصب لأنه معطوف على المائة من قوله :

الواهب المائة الأبرار زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد »

* ذكر الجوهري في فصل (ميد) صدر بيت لأبي ذؤيب شاهداً على « مايد » بالياء المثناة اسم جبل هو :

يمانية أحيالها مَطَّ مايد

وقد عقب ابن برى قائلًا : « صوابه : مايد بالياء المعجمة بواحدة . وحقه أن يذكر في فصل مبد .. »

وغیره كثير ..

٣ — إهماله بعض المواد ، أو الكلمات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) قال ابن برى : « وذكر في فصل (برأ) : برئت أبرأ ، وبرأت — أيضاً — أبرأ ... ولم يذكر برأت أبرؤ — بالضم في المستقبل — وقد ذكره سيوييه وأبو عثمان المسازني وغيرهما من البصريين .. »

(ب) قال ابن برى : « وقد أهمل من هذا الفصل [بوب] قولهم : بابة ، والجمع بابات ، وهي تستعمل في الحساب والحدود والكتاب . قال الأصمعي : بابات الكتاب : وجوهه ، وقال غيره : طريقه .. »

٤ — التعليقات الصرفية والنحوية ، وهذا يشمل :

(أ) أخطاء للجوهري ، كما حدث في مادة (ش ي أ) حين معالجته لكلمة « أشياء » ، وفي مادة (ن ب أ) حين حديثه عن تصغير « نبي » ، وفي مادة (ز ر ر) حين حديثه عن ضبط الراء في الأمر : « زُرّه » ، وفي مادة (ن ص ب) حين حديثه عن النسبة إلى « نصيين » ، وفي مادة (ق د د) حين حديثه عن نون الوقاية ...

(ب) إضافات واستطرادات ، كإثباته أن أصل الألف في « آءة »
واو ، وقوله إن « الذرّية » فعليّة من الذرّ أو فعلىلة ٠٠ ، وكتفصيله
الحديث عن « أمس » في الصفحات ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ٠٠٠

٥ — عدم الدقة في التعبير ، كقول ابن برى : « وقول الجوهري :
إن البوادر من الإنسان اللحمة ٠٠ ليس بصحيح ، وصوابه أن يقول :
إن البوادر جمع بادرة للحمة التي بين الخكب والعنق ٠٠ » * ومثله قول
ابن برى : « أما قول الجوهري : الحمارة تنصب حول الحرض ، وتنصب
أيضاً حول بيت الصائد ، فصوابه أن يقول : الحمائر : حجارة تنصب
على الحرض ، الواحدة حمارة ، وهو كل حجر عريض » *

٦ — ضبط كلمة أو تصحيح ضبطها ، أو إزالة ما لحقها من تصحيف .
ومن أمثلة ذلك :

(أ) قال الجوهري : البدّاهة : النصيب من الجزور *

وقال ابن برى : ذكر أبر عبيد في باب الميسر من غريب المصنف :
البدّاهة بالضم النصيب من أنصباء الجزور ٠٠

(ب) قال الجوهري : والاسم الجشّاة ، مثال المهمزة *
وقال ابن برى : الذي ذكره أبر زيد الأنصاري : الجشّاة ساكنة
الشين ويقوى قوله قول الراجز :
في جشّاة من جشّات الفجر *

(ج) روى الجوهري في فصل (س ع ب) بيتا لابن مقبل هو :
يعلون بالمردقوش السورد ضاحيةً على سعابيب ماء الضلالة اللجز
وقد عقب ابن برى قائلاً : « هذا تصحيف تبع فيه ابن السكيت *
وإنما هو اللجن بالنون ، وقبله :

من نسوةٍ شمسٍ لا مكرهٍ عثف ولا فراحشٍ في سرٍّ ولا علن
٧ — التعقيب برأى آخر ، ومن ذلك :

(أ) ذكر الجوهري في فصل (ج ن ب) قولهم : فلان لا يطور بجَنْبَتَيْنا • وقد عقب ابن برى قائلًا : « هكذا قال أبو عبيدة وغيره بتحريك النون • وكذا روه في الحديث : وعلى جَنْبَتَيْ الصراط أبواب مفتحة • وقال عثمان بن جنى : قد غرَى الناس بقولهم : أنا في ذكراك وجنبتك — بفتح النون — والصواب إسكان النون • » •

(ب) ذكر الجوهري في فصل (س ر ب) قولهم : فلان آمن في سربه أى في نفسه • وقد عقب ابن برى قائلًا : « هذا القول الذى قاله هو قول جماعة من أهل اللغة • وأنكر ابن درستويه قول من قالوا : آمن في سربه أى في نفسه ، قال : وإنما المعنى آمن في أهله وماله وولده • »

٨ — توجيه النقد لغير الجوهري • وممن نقدهم ابن برى :

(أ) الحريرى : يقول ابن برى : « وفى هذا البيت شاهد على صحة السُّلِّ لأن ابن الحريرى ذكر فى كتابه : درة الغواص أنه من غلط العامة ، وصوابه عنده السُّلال • ولم يصب فى إنكاره السُّلِّ لكثرة ما جاء فى أشعار الفصحاء ، وقد ذكره سيبويه فى كتابه أيضًا • » (١١٢/١) •

(ب) ابن القطّاع : يقول ابن برى : « وذكر الجوهري شاهدا على حكمة جمع حالب وهو قولهم : شتى تؤوب الحلية ، وغيره ابن القطّاع فجعل بدل شتى : حتى • والمعروف هو الذى ذكره الجوهري ، وكذلك ذكره الأصمعى وأبو عبيد • » (٦٨/١) •

(ج) المحدّثون : قال ابن برى : « وأهمّل أن يذكر بعد هذا الفصل (حنطب) وهى لفظة قد يصحّفها بعض المحدّثين فيقول حنظب ، وهو غلط • » (٦٥/١) •

(د) أبو عبيد : قال ابن برى : « لم يذكر السَّبَّحَة بالفتح وهى الثياب من الجلود ، وهى التى وقع فيها التصحيف ، فقال أبو عبيد :

هي السَّبْجَة بالجيم وضم السين • وغلط في ذلك إنما السبجة : كساء
أسود • واستشهد أبو عبيد على صحة قوله بقول مالك بن خويلد
الهدلي وهو :

إذا عاد المسارح كالسَّبْج

فصحف البيت أيضاً ، وهذا البيت من قصيدة حائية •• (١/٢٤٤) •

(هـ) الأصمعي : قال ابن بري : « وذكر في فصل (ش ت ت)
شتان ما هما •• قال : وقال الأصمعي : لا يقال : شتان ما بينهما ،
وقرل الشاعر :

لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

ليس بحجة ، إنما هو مولّد » ، وقد عقب بقوله : « وأما ما حكاه
عن الأصمعي أنه لا يقال : شتان ما بينهما ، فليس بشيء ، لأنه قد جاء
ذلك في أشعار الفصحاء من العرب ، ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي ••
ومنه قول البعيث •• وقال آخر •• وقال الأحوص •• »
(١/١٦٦ ، ١٦٧) •

ثانيا : نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم لخليل بن أيبك
الصفدي المتوفى عام ٧٦٤ هـ ، وتوجد منه نسخة مصورة بمكتبة مجمع
اللغة العربية بالقاهرة • وقد تتبع الصفدي الجوهري في أوهامه الصرفية
والاشتقاقية والتصحييف وسوء التعبير والخطأ في التفسير • ويبدو أن
معظم ما أخذ الصفدي منقولة عن ابن بري ولذلك يقول بعضهم : « قلد
فيه ابن بري ، فلا يكاد يذكر مسألة من عنده إلا بعض أدبيات والاستدلال
ببعض الأدبيات » (١) •

أما كتب الدفاع فأشهرها الوشاح وتنقيف الرماح في رد توهم

(١) انظر حسين نصار : المعجم العربي ٥٢٦/٢ ، ٥٢٧ •

المجدد الصحاح لعبد الرحمن بن عبد العزيز المغربي نزيل مكة وأحد مدرسيها (١) .

وأما التذييل والتعليق فقد تمثلا أحسن تمثيل في كتاب الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (٢) في كتابه المسمى « التكملة والذيل والصلة » ، وقد طبعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة . وذكر المؤلف في مقدمته ما نصه : « هذا كتاب جمعت فيه ما أهمله أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري رحمه الله في كتابه وذيلت عليه وسميته كتاب التكملة والذيل والصلة غير مدع استيفاء ما أهمله واستيعاء ما أغفله » . ويتلخص جهد الصغانى في هذا الكتاب في النقاط الآتية :

١ — إيراد المواد التى أهملها الجوهري .

٢ — إيراد الصيغ والألفاظ والمعانى التى أهملها الجوهري فيما ذكره من مواد .

٣ — تكملة الشواهد الشعرية أو إصلاح ما بها من خلل أو تصحيح أو تصويب اسم قائل الشاهد الشعرى .

٤ — نقد الاستشهاد ببعض الأحاديث الضعيفة .

٥ — تصحيح الأخطاء المتعلقة بالتصرف أو التفسير (٣) .

وأما المختصرات فمنها :

(أ) ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح للزنجانى (ت ٦٥٦ هـ)
ووقع حجمه موقع الخمس من الصحاح .

(١) وقد طبع على هامش الصحاح (طبعة بولاق ١٢٩٢ هـ) .

(٢) توفى عام ٦٥٠ هـ .

(٣) انظر المعجم العربى لحسين نصار ٥١٣/٢ وما بعدها .

(ب) تهذيب الصحاح للمؤلف السابق • قال في مقدمته : « ثم نظرت نظرا ثانيا فرأيت همم بنى الزمان ساقطة • • فأوجزته إيجازا ثانيا حتى وقع حجمه موقع العشر من كتاب الجوهري ^(١) • وقد طبع الكتاب بتحقيق الأستاذين هارون والطار •

(ج) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من علماء القرن السابع الهجري • قال في مقدمته : « هذا مختصر في علم اللغة جمعته من كتاب الصحاح • • لما رأيته أحسن أصول اللغة ترتيبا وأوفرها تهذيبا وأسهلها تناولا وأكثرها تداولًا • • واقتصرت فيه على ما لا بد لكل عالم فقيه أو حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه » •

وقد أعيد ترتيبه على نظام أساس البلاغة مؤخرا وحذف منه ما لا يناسب الطلاب • وقام بإعادة ترتيبه وتهذيبه الأستاذ محمود خاطر وراجعته الشيخ حمزة فتح الله •

أما ترجمات الصحاح فسنحدث عنها في الباب الثالث : قضية التأثير والتأثر •

الباب للصغاني (الباب الزاخر واللباب الفاخر) :

هذا ثاني ^(٢) عمل معجمي يقدمه الصغاني ، وقد سبق الحديث عن « التكملة » • ويتميز هذا العمل باستقلاله وتحرره من صحاح الجوهري • وقد ألفه فيما بين سنتي ٦٤٣ و ٦٥٠ ، ومات المؤلف دون أن يتمه إذ وصل الى مادة « بكم » ^(٣) فقط •

(١) مقدمة تهذيب الصحاح للزنجاني ، ص ٤ •
(٢) ترك الصغاني عملا لغويا ثالثا هو « مجمع البحرين » في ١٢ مجلدا جمع فيه بين الصحاح والتكملة •
(٣) ومع ذلك تفكر بعض المراجع أنه في عشرين مجلدا •

وقد ظل العباب حبيس خزائن الكتب حتى تصدى لتحقيقه ونشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، فنشر حرف الهمزة عام ١٩٧٧ ثم حرف المطاء عام ١٩٧٩ ثم حرف الغين عام ١٩٨٠ وقد عكس المحدث لجوءه الى نشر قطع متفرقة من الكتاب باختلاف قطع الكتاب المتفرقة وأسلائه الموزعة بين :

(أ) ما كتب بخط المؤلف ، ويتصف بالدقة والإتقان والضبط الكامل •

(ب) ما نقل من أصل المؤلف وعليه خطه وتصويباته •

(ج) ما خط بأقلام عدد من الناسخين الذين لم يسلموا من الوقوع في الغلط •

ولهذا رأى أن يبدأ « بنشر القطع المكتوبة بخط المؤلف » ولم يجد ضيرا في انعدام التسلسل « مادامت كل قطعة منها تشكل حرفا مستقلا » •

وقد احتل عباب الصغاني مكانة عالية بين المعاجم حتى اعتبر أحد المعاجم اللغوية الرئيسية التي لا يستغنى الباحث والدارس عن الرجوع إليها • فقد اعتبر الفيروزابادي في مقدمة معجمه « القاموس » محكم ابن سيده وعباب الصغاني غررتي الكتب المصنفة في هذا الباب • ويرى السيروطي أن أعظم الكتب اللغوية بعد الصحاح : المحكم والعباب •

وقد قدم المؤلف لمادة معجمه بمقدمة تحدثت عما يأتي :

١ — اشتمال الكتاب على ما تفرق في كتب اللغة المشهورة والتصانيف المعتبرة المذكورة وما بلغه مما جمعه علماء هذا الشأن والقدمات الذين شافوها العرب العرباء وساكنوها في داراتها ، وسايروها في نقلها من مورد الى مورد ومن منهل الى منهل •

٢ — استشهاده بالقرآن والحديث النبوي والفصيح من الأشعار والمسائر من الأمثال •

٣ — ذكره أسامي جماعة من أهل اللغة لا غنى بممارس هذا الكتاب
وسائر كتب اللغة عن معرفتها •

٤ — تفاخره بدقته وبفخذه الكتب المتداولة ، ونقده للغويين السابقين
مثل الأزهرى والجوهري وابن فارس وابن السكيت والصاحب بن عباد •
وقد قسا المؤلف على الأخير منهم قائلا : « وأما الصاحب بن عباد فإن
كتابه المسمى بالمحيط لو قيل إنه أحاط بالأغلاط والتصحيفات لم يبعد عن
الصواب • وكأن علماء زمانه خافوا أنهم لو نطقوا بشيء منها قطع رسومهم
وتسويغاتهم فلبوا نداءه ، وأمنوا على دعائه ونجوا بالصمت » •

لسان العرب لابن منظور :

يعد لسان العرب من أضخم المعجمات العربية — إن لم يكن
أضخمها — على الإطلاق ومؤلفه هو عبيد الله محمد بن مكرم بن علي
ابن أحمد الأنصارى ، من نسل رويغ بن ثابت • وتتنازع ابن منظر
أقطار عربية هي تونس وليبيا ومصر • وقد حققت في بحث لى حول ابن
منظور أن صلة ابن منظور بليليا تنحصر في أن جده الأعلى رويغ بن
ثابت الصحابى ولى طرابلس إبان حكم معاوية وغزا منها إفريقية
سنة ٤٧ هـ • أما النسبة « الطرابلسى » التى وردت في بعض المراجع
فهي نسبة الى طرابلس الشام (لا طرابلس الغرب) فقد ولى ابن
منظور القضاء في هذه المدينة بعد أن استردها السلطان قلاوون من أيدي
الصليبيين عام ٦٨٨ •

ومن الثابت تاريخيا أن ابن منظور ولد بمصر وترعرع بها ، ومن
الثابت كذلك أنه ولى ديوان الإنشاء بمصر مدة طويلة عبر عنها المؤرخون
بقولهم « طول عمره » ، كما كانت وفاة ابن منظور بمصر • ولذا فإن من
الأقرب اعتباره مصريا إذا أصررنا على نسبته الى إقليم بعينه ، والأفضل

نسبته الى أفريقية (١) ومصر كما جاء في كتب التراجم « الإفريقي المصرى » ، أو عدم نسبته الى إقليم بعينه لكثرة أسفاره وتنقلاته على عادة العلماء فى ذلك العصر •

وقد اعتمد ابن منظور أكثر ما اعتمد على مصادر خمسة هى تهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والصاحح للجوهري ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير • وذكر فى مقدمة معجمه أن كتابى الأزهري وابن سيده وعرا المسلك عسرا المطلب ، وأنه لذلك فضل أن يرتب معجمه ترتيب الصحاح فى الأبواب والفصول ، لسهولة منهجه وبساطة ترتيبه •

وليس هناك ما يميز معجم ابن منظور عن غيره من المعاجم التى سلكت فى ترتيبها نظام الباب والفصل سوى توسعه فى الشرح وإفاضة فى ذكر أسماء الرواة والعلماء واللغريين والنحويين ، وكثرة تساوده وتنوعها •

وقد ولد ابن منظور سنة ٦٣٠ هـ ، وتوفى عام ٧١١ هـ ، وطبع معجمه عدة طبعات أولاها فى بولاق بمصر عام ١٣٠٠ هـ ، وتقع فى عشرين مجلداً ، والثانية فى لبنان وتقع فى ٦٥ جزءاً صغيراً • ثم قامت دار لسان العرب ببيرت بإصدار طبعة من لسان العرب بعد أن أعيد ترتيبها على حسب الأوائل ، وأضيف إليها المصطلحات العلمية التى أقرتها الجامعات العلمية والجامعات العربية ، وزودت بالصور والرسوم والخرائط ، واختارت لهذه الطبعة اسم « لسان العرب المحيط » • وقد قام بإعداد هذه الطبعة وترتيبها السيدان : يوسف خياط ونديم مرعشلى •

(١) أفريقية كانت تطلق على ما يطلق عليه اليوم — بالتقريب — تونس • وانظر مؤلفنا : النشاط الثقافى فى ليبيا ص ٢٢٧ — ٢٨١ — ومقالنا : ابن منظور اللغوى (مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد ١٨ — ٧٤ / ١٩٧٥) •

وما زلنا نطمح في مزيد من الاهتمام بهذا المعجم فيتقدم أحد لإعادة ترتيب مادته داخلياً ، وإعداد فهرس متنوعة لمادته (١) .

القاموس المحيط للفيروز آبادي :

أما الفيروز آبادي فهو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المولود بقرية كارزين قرب شیراز . وقد عرف باسم الفيروز آبادي نسبة الى قرية فيروز آباد من قرى فارس ومنها والده وجده . وكان مولده عام ٧٢٩ هـ ووفاته عام ٨١٦ أو ٨١٧ هـ .

وقد ذكر الفيروز آبادي في مقدمة معجمه السبب في وضعه هذا المعجم وأهم مميزاته فقال : « وكنت برهة من الدهر ألتمس كتاباً جامعاً بسيطاً .. ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجائب ، الجامع بين المحكم والعجائب (٢) .. وضممت إليهما زيادات .. غير أنني خمنت في ستين سفراً يعجز تحصيله الطلاب .. وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام . فصرفت صوب هذا القصد عناني ، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد .. ولخصت كل ثلاثين سفيراً في سفر ، وضمنته خلاصة ما في العجائب والمحكم ، وأضفت إليه زيادات من الله تعالى بها .

نظامه :

١ — رتب المؤلف على نظام الباب والفصل ، وقد اشتمل على ٢٨

(١) نشر الدكتور ياسين الأيوبي (١٩٨٠) معجماً لشعراء لسان العرب ، وطبعته دار العلم للملايين ، وأصدرت دار المعارف بمصر الجزء الأول من فهرس اللسان (١٩٨٤) . ويقوم الدكتور خليل عميرة بأعداد فهرس تفصيلية للسان باستخدام الكمبيوتر . كما قدم الدكتور على حلمي موسى احصاءات بهود لسان العرب .

(٢) المحكم لابن سيده ، والعجائب للصفاني .

بابا (١) غير أنه قدم باب الهاء على باب الواو والياء • وأما في الفصول فالواو مقدمة على الهاء وهى قبل الياء •

٢ — التزام الاختصار والتركيز ما أمكن • وفى سبيل ذلك :

(أ) حذف الشواهد إلا ما ندر •

(ب) حذف أسماء الرواة واللغويين •

(ج) استخدم الرموز الآتية :

(ع) وتعنى موضع ، و (د) وتعنى بلد ، (هـ) وتعنى قرية ،
و (ج) وتعنى جمع ، و (جج) وتعنى جمع الجمع ، و (م) وتعنى
معروف ، و (و) وتعنى واوى ، و (ي) وتعنى يائى •

(د) ترك القياسى والمطرّد •

(هـ) لم يذكر المؤنث مرة ثانية بعد ذكر المذكر بل اكتفى بقوله :
وهى بهاء أى أنثى هذا المذكر بهاء •

(و) ترك النص على عين المضارع اذا كان الفعل من باب فعمل
يفعل (بفتح فضم) واكتفى بذكر الماضى •

(ز) ما كان مفتوح الأول جرده من الضبط وما جمع الى ذلك
فتح الثانى وصفه بقوله : محرّكة •

٣ — تخليص الواو من الياء — وهذا قسم على حدّ تعبير
الفيروزابادى — يسم المصنفين بالعى والإعياء •

٤ — أنه لم يكن — زيادة فى الضبط — يكتفى بذكر الحركة وإنما
يذكر المثال كقوله : « رأب الصدع كمنع أصلحه » ، فهى كمنع فى الضبط

(١) ضم الفيروزابادى الواو والياء فى باب واحد وعقد بابا للآلف اللينة
وضع تحته كلمات مثل اذا — الى — ألا ...

لا في المعنى • وكقوله « والققيب البطن ، وبالكسر صدف بحرى ،
وكغراب أطم ^(١) بالمدينة •• وكتاب ع بسمرقند » •

بين الفيروزابادى والجوهري :

من يقرأ مقدمة القاموس يحس بأن الفيروزابادى وضع نصب عينيه
صاح الجوهري ، وأنه أراد أن يتفرق عليه ، وأن ينتزع الإعجاب
الذى ناله الصحاح منذ ظهوره وعلى امتداد أربعة قرون • ولهذا جعل
الفيروزابادى من أهدافه في معجمه :

١ — زيادة مادته على مادة الصحاح ، وقد عبر عن ذلك بقوله :
« ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري — وهو جدير بذلك —
غير أنه فاتته نصف اللغة أو أكثر إما بإهمال المادة ، أو بترك المعانى
الغريبة النادرة — أردت أن يظهر للناظر بادىء ذى بدء فضل كتابى هذا
عليه ، فكتبت بالحرمة المادة المهملة لديه •• ولم أذكر ذلك إشاعة
العفاخر ، بل إذاعة لقول الشاعر : كم ترك الأول الآخر » ^(٢) •

٢ — تصويب أخطاء الجوهري ورد أوهامه ، وعبر عن ذلك بقوله :
« ثم إنى نبهت فيه على أشياء ركب فيها الجوهري رحمه الله خلاف
الصواب غير طاعن فيه ، ولا قاصد بذلك تنديدا له ، وإزراء عليه ،
وغضا منه بل استيضاحا للصواب ، واسترباحا للثواب ••• واختصمت
كتاب الجوهري من بين الكتب اللغوية مع ما في غالبها من الأوهام

(١) الاطم : الحصن والبيت المرتفع •

(٢) ومع ذلك استدرك العلماء على الفيروزابادى كثيرا من المادة ، يقول
السيوطى : فاتته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعته حتى هبت أن أجمعها
في جزء : ويقول آخر أنه هناك من يعتقدون أن « القاموس قد أحاط باللغة »
ولذا أراد « التنبيه على بطلان هذا الزعم بذكر شيء مما فاتته » (انظر : ابن
الطيب الفاسى للبواب ، ص ١٢٣) • وسيأتى ذكر لتكملة الزبيدى لقاموس
الفيروزابادى •

المواضحة ، والأغلاط الفاضحة ، لتداوله واشتهاره بخصوصه ، واعتماد المدرسين على نقوله ونصومه » •

أما بالنسبة لزيادات الفيروزابادى فقد استعاضت المطبعة عن الحمرة بخط ممتد يوضع فوق المادة الزائدة • وتبدو الزيادات كثيرة من النظرة السريعة لكثرة الخطوط وشمولها معظم الصفحات ، وتكررها في كثير منها •

ولم يقيم أحد من الباحثين بإحصاء يبين عدد الجذور التى يحتريها القاموس المحيط لمقارنتها بجذور معجم الصحاح وتحديد نسبة الزيادة ، ولكن قدم الدكتور على حلمى موسى الإحصاء التالى المتعلق بالصحاح واللسان وتاج العروس ، كما قدم الدكتور محمد مصطفى رضوان إحصاء بمجموع مواد القاموس • وهما كما يأتى (١) :

المجموع	خماسى	رباعى	ثلاثى	المعجم
١١٩٧٨	٣٠٠	٤٠٨١	٧٥٩٧	التاج
٩٢٧٣	١٨٧	٢٥٤٨	٦٥٣٨	اللسان
٥٦١٨	٣٨	٧٦٦	٤٨١٤	الصحاح
١٠٣٤٣	—	—	—	القاموس المحيط

ولا يغرب عن البال أن زيادات المواد أو الجذور ليست هى كل زيادات القاموس على الصحاح ، لأن التوسع فى الشرح ، وذكر معان جديدة للجذر يمثل نسبة كبيرة من زيادات الفيروزابادى •

ويكفى لبيان فضل الفيروزابادى فى هذا أن أشير الى أن بعضا من مادة القاموس لم يرد حتى فى لسان العرب برغم اعتبار الأخير واحدا من أضخم المعاجم العربية على الإطلاق • ويكفى أن أمثل بالمثال الآتى — وقد

(١) ايظهر احصاءات جذور معجم لسان العرب ص ٩٣ ودراسات فى القاموس المحيط صفحتى ٩٦ ، ٩٧ •

عُثِرَ عليه بطريق المصادفة — فقد أهمل ابن منظور في مادة (لجن) ذكر كلمة « لجنة » ومعناها ، وقد ورد في القاموس ما نصه : « واللجنة الجماعة يجتمعون في الأمر ويرضونه » .

وأما بالنسبة لما أخذ الفيروزابادي على الجوهري فبعضها يسلم له ، وبعضها يسلم للجوهري ، وبعضها لا يعد أحد الرأيين فيه أفضل من الآخر . وقد تتبع كثير من العلماء هذه الأوهام بالتعليق والدراسة ، ويبدو أن تعاطفهم كان متجها إلى الجوهري ولذا ألفت الكتب في الانتصار له ، ولا أعرف كتابا واحدا ألف للانتصار للفيروزابادي .

فمما أخذه الفيروزابادي على الجوهري ولا يمكن الدفاع فيه عن الجوهري .

١ — قال في القاموس (شاد) : « شاد الحائط يشيده طلاه بالشيد وهو ما طلى به حائط من جص ونحوه » وقول الجوهري : من طين أو بلاط — بالباء — غلط ، والصواب ملاط بالميم لأن البلاط حجارة لا يطلّى بها وإنما يطلّى بالملاط وهو الطين » .

٢ — قال في القاموس (صعر) : « والصيعرية اعتراض في السير ، وسمة في عنق الناقة لا البعير ، وأوهم الجوهري بيت المسيب الذي قال فيه طرفة لما سمعه : قد استنوق الجمل » .

وقد حاول ابن الطيّب الفاسي أن يعتذر عن الجوهري بقوله : إنه أراد بالبعير الأنثى ^(١) ، والتكلف واضح في هذا الدفاع .

أما بيت المسيب الذي أشار إليه الفيروزابادي فهو :

وقد أتتاسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكرم

(١) اضاءة الراموس ١٠٩/٣ .

٣ — قال في القاموس (ن ف) : « وأناف عليه زاد كنيغف • وأفرد الجوهري له تركيب (ن ي ف) وهما • والصواب ما فعلنا لأن الكل واوى • »

ومما أخذه الفيروزابادي على الجوهري دون وجه حق :

١ — جاء في القاموس (بهت) « وقول الجوهري : فابهتني عليها أي فابهتنيها لأنه لا يقال بهت عليه — تصحيف ، والصواب فانهتني عليها بالنون لا غير • »

والفيروزابادي يشير الى قول أبي النجم :

سبى الحماة وابهتني عليها ثم اضربى بالود مرفقيها
وقد تكفل صاحبها « إضاءة الراموس » و « الموشاح » بالرد على الفيروزابادي •

فقال الأول : إن كانت الرواية فابهتني ثابتة فلا يلتفت لدعوى التصحيف لأنها في مثله غير مسموعة • • وإن لم تثبت الرواية كما قال وصحت الرواية معه ثبت هذا التصحيف حينئذ بالنقل لا لأنه لا يقال • • وليس عندي جزم في الرواية حتى أفصل قوليهما • • وإنما ادعاء التحريف بمجرد أنه لا يتعدى « بهت » « بعلى » دعوى خالية عن الحجة (١) •

وقال الثاني : قوله بالنون لا معنى له هنا لأن نهت لازم لا يتعدى ولا بحرف الجر ، يقال نهت ي نهت • • والنهيت الزئير • وقد أقر ابن برى كلام الجوهري ولم يتعقبه من جهة المعنى وقال : إنما عسدى بعلى لأنه بمعنى اغتري (٢) •

٢ — جاء في القاموس (كتب) : « والكتاب » كرمان : المكاتبون •

(١) اضاءة الراموس ٧٧/٢ •

(٢) الوشاح ص ٣٦ والتنبيه لابن برى — مادة « بهت » •

والمكتب كمقعد موضع التعليم • وقول الجوهري : الكتاب والمكتب واحد غلط » •

وما جاء في الصحاح صحيح ، فقد قال الخليل : المكتب بضم الميم : المعلم ، والكتاب مجمع صبيان • وذكر الأزهري أن الكتاب اسم المكتب الذي يعلم فيه الصبيان •

وقال صاحب الوشاح : العبارة في غاية الصواب •• وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قرأت من في رسول الله ﷺ سيعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة في الكتاب (١) •

٣ — جاء في القاموس (مزج) : « المزج المخلط والتحريش ، وبالكسر اللوز المر كالمزيج والعسل • وغلط الجوهري في فتحه أو هي لغية » •

وقد تكفل الفاسي بنقض ذلك فقال : لا غلط في الفتح ، فهو الذي جزم به غيره وصرح به الفيومي ، وقال : سمي العسل مزجا لأنه يخطط بالشراب • وبالفتح روى بيت أبي ذؤيب :

وجاءوا بمزج لم ير الناس مثله هي الضحك إلا أنه عمل النحل
وهو الذي قاله أبو حنيفة وغيره ، فلا معنى لقوله : أو هي لغية به هي لغة مكبرة صحيحة ثابتة نقلها الأثبات (٢) • وقد اقتصر الخليل في العين على الفتح •

وقد رد بعضهم ما في الصحاح من أوهام الى أن الجوهري مات وترك الكتاب مسودة فبيضه تلميذه أبو إسحاق الوراق بعد موته فغلط فيه في عدة مواضع • وسئل الميداني عن الخلل الواقعة في الصحاح فقال :

(١) انظر العين ، والتهذيب ، واضاءة الراموس ٣/٢ ، والوشاح ص ٣٤

(٢) اضاءة الراموس ٢/٢١٩ •

إنه قرئ عليه الى باب الضاد فحسب وبقي أكثر الكتاب على سواده .
ولم يقدر له تنقيحه ولا تهذيبه . قال ومن زعم أنه سمع من الجوهري
شيئا من الكتاب زيادة على باب الضاد فقد كذب (١) .

إضاعة الراموس (٢) لابن الطيب الفاسي (٣) :

يعد إضاعة الراموس موسوعة لغوية فريدة ، ومع ذلك ما يزال
مخطوطا لم ير النور بعد برغم تعدد نسخه في مكتبات العالم . ومؤلفه
ابن الطيب الفاسي من أعلام المغرب ، وقد ولد عام ١١١٠ هـ من أسرة
متمسكة بالدين حريصة على العلم ، وتوفي عام ١١٧٠ هـ في المدينة
المنورة حيث دفن .

ويفصح المؤلف منذ البداية عن استنكاره لموقف الفيروزابادي من
الجوهري ويصرح بأن الدفاع عن الجوهري كان من أسباب تأليف هذا
الكتاب : « وفي أثناء القراءة والإقراء .. رأيت المجد الشيرازي يكثر في
قاموسه من الاعتراضات على الصحاح .. ويتابع في الرد ، ويأتي بالتنديد
الذي لا يحمله سدا ، ورأيت بعض المدعين يقلدونه في كلامه ، ويعتقدون
— لقصورهم — تصويب اعتراضاته عليه وملامه .. فلما رأيته أكثر من
التنديد عليه ، وبالف في عزو الأوهام إليه ، انتصرت لأبى نصر .. وجعلت
أرد ما يورده مشروحا في شرحي لمصنفات اللغة وأتبعه في الدروس أكمل
التعقيب وأبلغه . فلما وقف على ذلك أشياخنا الأساتذة وأصحابنا
الجهابذة تآقت نفوسهم الى جمع ذلك في تعليق مستقل » .

وقد بدأ المؤلف متحمسا في الأبواب الأولى من كتابه (الهمزة الى

(١) انظر شرح ديباجة القاموس للشيخ نصر الهوريني ، ص ٣٨ .

(٢) الراموس : القبر . ويعرف الكتاب كذلك باسم شرح القاموس أو

حاشية القاموس .

(٣) اعتمدنا في كتابة هذه النبذة على رسالة الدكتوراه (مخطوطة)

المعنونة : ابن الطيب الفاسي وأثره في المعجم العربي للدكتور علي حسين
البواب .

الراء (فترسع واستفاض في الشرح والتعقيب ، ولم يهمل أى فصل من فصول القاموس ، ثم فتر حماسه بعد ذلك حتى اكتفى في القسم الأخير بتعليقات بسيطة ، واقتصر على أقل الألفاظ .

وقد لخص الدكتور على البواب جهود ابن الطيب الفاسي في النقاط الآتية (١) :

١ — الشرح بمعناه المراسع الذى يشمل الضبط والتفسير والاستشهاد وغير ذلك .

٢ — الاستدراك (٢) .

٣ — النقد (٣) .

٤ — زيادات الفيروزابادى على الجوهري .

٥ — انتقادات الفيروزابادى للجوهري .

ويلاحظ في المعجم ميل المؤلف المظاهر نحو الجوهري ، وتعصبه المطلق له ، وتحامله الواضح على الفيروزابادى ، مما جعله يتهمة بالتقصير والعموض والخطأ والوهم وغيرها من التهم .

وقد خلف ابن الطيب الفاسي تلامذة نابيهين كان أشهرهم الزبيدي مؤلف تاج العروس التالى :

(١) صفحة ١٥١ من الرسالة .

(٢) لاحظ أنه أراد بذلك الرد على ادعاء الفيروزابادى الاحاطة . ولهذا نرى الفاسي يعلق وهو يستدرك على الفيروزابادى تعليقات مثل : « وهو قصور بالغ » و « وأغفله مع شدة تتبعه للصحاح » و « وقد أغفل المصنف أكثر من نصفها .. وهو غاية في القصور في جنب دعوى القاموس المحيط بجميع الأمور » .

(٣) شمل ذلك نقد الضبط والشرح وأخطاء الوزن والترتيب والخروج على الاصطلاح والحشو .

تاج العروس للزبيدي :

اشتهر الزبيدي باسم السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي . وقد ولد بإحدى مدن الهند عام ١١٤٥ هـ ، ثم ارتحل الى زبيد باليمن حيث درس بها ثم غادرها وهو في السابعة عشرة من عمره . وفي سنة ١١٦٧ هـ هاجر الى مصر واستقر بها الى ان توفي عام ١٢٠٥ هـ .

وقد التقى الزبيدي بأستاذه الفاسي في المدينة المنورة وتلمذ عليه هناك ، وتلقى عليه القاموس المحيط وشرحه سماعا ومشافهة ، ووضع نسخة من حاشية ابن الطيب الفاسي بين يديه وهو يؤلف التاج (١) .

ولم يترك الزبيدي مناسبة إلا أشاد بأستاذه وشيخه كقوله : « وهو عمدتي في هذا الفن والمقلد جيدي العاقل بطلى تقريره المستحسن » ، « ولعمري لقد جمع فأوعى ، وأتى بالمقاصد ووفى » . وكان اذا قال في تاج العروس « شيخنا » — وما أكثر ما قالها — فإنه يعنى ابن الطيب الفاسي (٢) .

وقد ذكر المؤلف الهدف من تأليف هذا الكتاب فقال : « كتاب القاموس المحيط .. أجل ما ألف في الفن .. ولما كان إبرازه في غاية الإيجاز ، وإيجازه عن حد الإعجاز تصدى لكشف غوامضه ودقائقه رجال من أهل العلم [فكرت] في وضع شرح عليه ممزوج العبارة جامع لمواده .. واف ببيان ما اختلف من نسخه والتصويب لما صح منها من صحيح الأصول » . وتقرر المراجع إن الزبيدي بعد أن أنجز من التاج الى آخر حرف الدال أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم بمصر وأطلعهم عليه فاغتنبوا به وشهدوا بفضل وسعة اطلاعه .

واذا كان الزبيدي قد ترسم خطى أستاذه الفاسي في جميع مراحل

(١) ابن الطيب الفاسي ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، عدنان الخطيب ، ص ٤٣ .

(٢) ابن الطيب الفاسي ، ص ٢٩٠ .

منهجه ، فقد خالفه في حملته الشديدة على الفيروزابادي حيث خفف كثيرا من حدتها وتجنب استعمال العبارات الجارحة •

وكانت طريقة صاحب التاج أن يضع عبارة القاموس المحيط بين قوسين ثم يورد شروحه وأقواله واستشهاداته وتعليقاته خارج الأقواس ، محاولا الملاءمة بين ما يقوله وما هو من كلام القاموس حتى لا ينقطع السياق •

وبرغم أن « تاج العروس » شرح للقاموس فلقد ظهرت شخصية الزبيدي فيه الى حد جعله يفوق مجرد شرح أو تعليق ، ويعتبره اللغويين كتابا مستقلا ، ومعجما قائما بذاته (١) • وقد ختم الزبيدي بمعجمه هذا عهد المعجمات المطولة ، ورجع في تأليفه الى حوالي خمسمائة مرجع ذكر أهمها في مقدمته •

وتشمل إضافات الزبيدي على القاموس ما يأتي :

- ١ — ذكر الشراهد التي أغفلها القاموس •
- ٢ — رد بعض الاقتباسات الى أصولها أو مصادرها الأولى •
- ٣ — الاستدراك على الفيروزابادي فيما أغفله من مواد أو كلمات أو معان • وكان من عادة المؤلف أن يختم المادة بما استدركه قائلا : ومما يستدرك عليه •

وقد تم طبع تاج العروس عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) بعد محاولة بدأت سنة ١٢٨٧ هـ (٢) • ويعاد طبعه الآن بالكويت طبعة علمية محققة وصلت عام ١٩٨٦ الى الجزء الثالث والعشرين •

(١) عبد الله درويش : المعجم العربية ص ١٠٧ ، وحسين نصار : المعجم العربي ٦٣٩/٢ وما بعدها •
(٢) عدنان الخطيب ص ٤٦ •

النكمة والذيل والأصلة للزبيدي :

ألف الزبيدي هذا الكتاب ليستدرك ما فات صاحب القاموس من اللغة « إبطالا لما يعتقد كثر ممن لا توغل له في هذا الشأن أن صاحب القاموس قد أحاط باللغة » (١) وهو بهذا يحاكي الصاغاني في تكملته على الصحاح .

وقد ظلت النكمة مخطوطة حتى طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزءين الأول والثاني منها بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازي (١٩٨٦) ، وقد وصل الجزءان الى نهاية حرف الجيم .

ويشبه منهج الزبيدي في هذا الكتاب منهج الصاغاني في تكملته على الصحاح فهو مثله :

١ — ينسب ما يورده — مما فات صاحب القاموس من اللغة — الى قائله من اللغويين وأصحاب المعاجم .

٢ — ويعزو ما ينقله الى مصدره كالصاح واللسان والأساس .

٣ — ويتعقبه فيما وقع فيه من خطأ أو وهم . وكانت طريقتة في ذلك إيراد عبارة القاموس مسبوقه بقوله : « وقول المصنف كذا ... » ثم التعقيب على ذلك بقوله : « خطأ ، أو وهم صوابه : كذا » ثم يتبع ذلك بالنقول والشراهد التي تؤيد ما ذهب إليه (٢) .

وقد ألفه بعد فراغه من معجمه تاج العروس ، وقد ذكر ذلك في مقدمة التكملة حيث يقول : « فإنني لما فرغت من شرحي على كتاب القاموس ... وتعمقت فيه البحث عن عواره ، والكشف عن مخبآت أسرارها ، وبيان غامضه ومشكله ، وتقييد مبهمه ومهمله ، والتعبيه على

(١) ص ٧١ .

(٢) ص ١٢ ، ١٣ .

ما وقع فيه من اختلال في بعض سياقاته ، وحل تعقيد في طي عباراته ،
وكننت ذكرت عقيب كل تركيب ما فاتته من اللغات •• فكان يختلج في البال
إفراد ذلك في تأليف على الاستقلال •• » (١) .

(ج) مدرسة الترتيب بحسب الأبنية

مدخل :

يلاحظ أن جميع المعاجم التي سبق ذكرها قد رتبت بحسب الحروف
الساکنة (أو ما يمكن أن يسمى بالصرامت أو السواكن consonants)
دون اعتبار الحركات (أو ما يمكن أن يسمى بالصوائت أو المعلن vowels)
سواء في ذلك ما قام بتجريد الكلمة من الزوائد — وهو النوع الغالب —
أو ما وضع الكلمات تحت حرفها الأول دون تجريدها من الزوائد •

أما هذا النوع من المعاجم الذي سميناه بمعاجم الأبنية فقد كان
نوعاً فريداً في بابهِ إذ راعى في ترتيب الكلمات الحركة الى جانب الصوت
الساکن • ولكنه — من سوء الحظ — لم يكتب له الشيوع والشهرة نظراً
لتنعقد نظامه وتركبه من خطوات عدة •

وعلى الرغم من أن أول معجم كامل اتبع نظام الأبنية قد ظهر في
القرن الرابع الهجري على يد مؤلف من تركستان ، من إقليم فاراب اسمه
أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي — فقد تمت محاولات كثيرة
لدراسة أبنية اللغة العربية وترتيبها منذ بدأ التفكير اللغوي عند العرب •
وقد مهدت هذه المحاولات الطريق ، ويسرت السبيل أمام ظهور فكرة
المعجم الكامل • وربما كان من المفيد — من أجل هذا — أن نقسم البحث
في معاجم الأبنية الى نقطتين أساسيتين نتناول في أولاهما مرحلة التمهيد ،
أو وضع اللبغات الأولى ، ونتناول في ثانيتهما مرحلة المعجم الكامل ،
وأشهر المعاجم التي اتبعت هذه الطريقة •

أولا — مرحلة التمهيد :

بدأ التأليف في الأبنية على أيدي النحاة ، وقد كان « سيبويه أول من ذكرها وأوفى من سطرها » (١) ، ولذلك أفرد لها في كتابه أبوابا جمع فيها ما عرفه من أبنية اللغة العربية وقسمها تقسيماً كمياً ، مع فصل أبنية الأسماء عن الأفعال ، ومثل لذلك نوع منها • وقد ذكر للأسماء ٣٠٨ بناء بين ثلاثي مجرد ومزيد ، ورباعي مجرد ومزيد ، وخماسي مجرد ومزيد • وذكر للأفعال ٣٤ بناء بين ثلاثي مجرد ومزيد ورباعي مجرد ومزيد •

ومهد سيبويه لكلامه عن الأبنية بمقدمة تحدث فيها عن أقل ما تكون عليه الكلمة وأكثر ما تصل إليه وحروفها أصلية أو مزيد فيها • ثم تحدث عن حروف الزوائد حرفاً حرفاً ، وذكر مراضع زيادة كل منها (٢) • ولم يكن من غرض سيبويه في هذا البحث أن يحصر ألفاظ كل بناء ، وإنما كان غرضه يتجه إلى حصر الأبنية والتمثيل فقط لكل منها •

وجاء النحاة بعد سيبويه فبهرهم هذا العمل ، وأثار إعجابهم • فلم يقدموا لنا في الموضوع شيئاً ذا بال ، وانحصر بحثهم في ناحيتين :

الأولى : الاستدراك على سيبويه وإضافة بعض الأبنية التي تركها • وقد فعل ذلك ابن السراج الذي ذكر أبنية سيبويه وزاد عليها ٢٢ مثلاً ، كما زاد أبو عمر الجرمي عليها أمثلة يسيرة ، ثم زاد ابن خالويه أمثلة يسيرة (٣) ، وزاد الزبيدي أكثر من ثمانين بناء (٤) •

والثانية : يمثلها المبرد الذي حاول البحث في الأبنية إلى عمليات تدريبية وافتراسات عقلية بدلاً من أن يحاول القيام بعمل إيجابي • فهو

(١) أبنية الأسماء لابن القطاع ورقة ٢ •

(٢) كتاب سيبويه ، ٣١٥/٢ وما بعدها (طبعة بولاق) •

(٣) أبنية الأسماء لابن القطاع ورقة ٢ •

(٤) الاستدراك على سيبويه للزبيدي (ط روما سنة ١٨٩٠) ، ص ١ •

لم يبحث الأبنية بحثاً عملياً يقوم على الاستقراء والتتبع ، وإنما أطلق لفكره العنان ، وأكثر من الفروض العقلية • ومن ذلك أنه عقد باباً باسم « هذا باب معرفة الأبنية وتقطيعها بالأفاعيل • • » قال فيه : « فإذا قال لك ابن من (ضرب) مثل (جعفر) فقد قال لك زد على هذه الحروف الثلاثة حرفاً ، فحق هذا أن تكرر لامه فتقول (ضرب) • • ولو قال لك ابن لى من (ضرب) على مثال (صمصح) لقلت (ضرب) » (١) •

ولكن من حسن حظنا أن اللغويين لم يدعوا النحاة وحدهم في هذا الميدان يصلولون ويجولون ، وإنما شاركوهم فيه ، وحولوا البحث في الأبنية مرة أخرى الى بحث استقراي تتبعي ، وإن اتجهوا في البحث اتجاه آخر ، فلم يعد هدفهم حصر الأبنية فقط — فهذا أمر قام به السابقون — وإنما اتجه الى محاولة حصر الألفاظ تحت كل بناء ، وانخذ ذلك مظهرين اثنين : فاتجه فريق الى أن يفرخوا في كتبهم اللغوية بحوثاً خاصة بالأبنية ، واتجه فريق آخر الى التأليف في الأبنية مؤلفات مستقلة •

أما الفريق الأول فلم تتسم بحوثه بطابع خاص ، وإنما اتخذت أشكالاً متعددة • فمنها ما اهتم بأن يذكر من ألفاظ البناء ما يقع الاشتباه فيه ويدع ما عداها ، ومنها ما اهتم بذكر الأبنية التي تعدد ضبطها ، ومنها ما تعرض لبعض الأبنية — بدون ضابط وذكر ألفاظها ، ومنها ما اهتم بذكر الأبنية النادرة ، ومعظمها وجه عنايته لصيغتين من صيغ الأفعال هما « فعل وأفعل » • وقد حظيت هاتان الصيغتان باهتمام اللغويين جميعاً حتى إن الكتب المبكرة التي ألفت في الأفعال كانت تحمل اسم « فعل وأفعل » أو « فعلت وأفعلت » •

وأهم ما ألف في هذا الاتجاه « الغريب المصنف » لأبى عبيد ، و « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، و « أدب الكاتب » لابن قتيبة ،

(١) المقتضب للمبرد (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٩٠٩ — نحو) ،

و « المنتخب لكراع النمل » ، و « الجمهرة » لابن دريد في أبوابها الأخيرة .

وأما الفريق الثانى فلم يصل بمؤلفاته — حتى القرن الرابع الهجرى — الى مرتبة المعجم الكامل الذى يحصر الأبنية (سراء كانت للأسماء أو الأفعال) ويوزع تحت كل بناء ما يخصه من ألفاظ ، وإنما كانت مؤلفاته خاصة ببعض الأبنية دون بعض .

وانحصرت جهود اللغويين فى هذه الناحية فيما يأتى :

(أ) التأليف فى أبنية المصادر : وأول من ألف فى ذلك الكسائى (ت سنة ١٨٢ هـ أو سنة ١٨٣ هـ) ، ثم النضر بن شميل (ت سنة ٢٠٣ هـ) ، والفراء ، (ت سنة ٢٠٧ هـ) وخص كتابه بمصادر القرآن ، وأبو عبيدة (ت سنة ٢٠٩ هـ) ، والأصمعى (ت سنة ٢١٣ هـ) وأبو زيد (ت سنة ٢١٥ هـ) ونفطويه (ت سنة ٣٢٣ هـ) (١) .

(ب) التأليف فى أبنية الأفعال : ولا نعرف مؤلفا واحدا منها تعرض للأفعال جملة ، إذ لم يبدأ التأليف فى ذلك إلا بعد الفارابى (قرن ٤ هـ) الذى سنخصه بحديث مفصل فيما بعد .

وإنما نجدها تناولت صيغا خاصة من الأفعال ، ونجد صيغتين اثنتين من بين هذه الصيغ تجتذبان اهتمام اللغويين فيؤلفون فيهما ، وهما صيغتا « فعل وأفعل » * ومن أول من ألف فيهما قطرب (ت سنة ٢٠٦ هـ) والفراء ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد ، والزجاج (ت سنة ٣١١ هـ) وابن دريد (ت سنة ٣٢١ هـ) * وأقدم كتاب وصلنا منها هو « فعلت

(١) انظر الفهرست لأبى النديم (ط مصر ١٣٤٨) ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٢١ ومعجم الأدباء (ط الحلبي) ٢٧١/١ ، ٢٧٢ ، ٢١٦/١ ، ٢١٧ ، ٢٠٢/١٣ ، ٢٠٣ ، ٣٤٣/١٩ ، ١٣/٢٠ ، ١٤ .

وأفعلت « لأبى حاتم السجستاني (ت سنة ٢٥٥ هـ) (١) ، وقد حققه ونشره مؤخرًا الدكتور خليل العطية •

(ج) التأليف في أبنية الأسماء : ولم أجد أحدا من اللغويين قد أفرد أبنية الأسماء بتأليف مستقل يقصد استيعابها ، ويعتمد الى تنظيمها ويجمع ما تفرق منها ، ولكنني وجدتهم قد ألفوا في شيء خاص منها وهو « المقصور والمدود » • وممن ألف في ذلك الفراء ، والأصمعي ، وأبو عبيد ، والزجاج (٢) وأبو علي القالي (ت سنة ٣٥٦ هـ) ، وقد وصلنا كتاب أبي علي القالي وما يزال مخطوطا •

ونخلص من كل هذا الى أن التأليف في الأبنية في مرحلته الأولى لم يأخذ صورة المعجم الكامل ، ولم يتجه الى حصر المادة اللغوية وتوزيعها على الأبنية • وهو الى جانب فقدته عنصر الترتيب والنظام لم يصل الى أكثر من :

(أ) حصر الأبنية والتمثيل لكل منها •

(ب) العناية ببعض الأبنية ومحاولة حصر ألفاظها •

أي أنه فقد أهم عنصرين من عناصر المعجم الكامل وهما الشمول والترتيب •

ثانيا — مرحلة المعجم الكامل :

١ — ديوان الأدب للفارابي :

رائد هذه المرحلة هو الفارابي اللغوي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٥٠ أو ٣٧٠ هـ ، وكان موطنه فاراب ، وهي مدينة

(١) انظر الفهرست ص ٧٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ومعجم الادباء ١/١٥١ ، ١٢٦/١٨ ، ١٣٦ ، ٥٣/١٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٣/٢٠ ، ١٤ •

(٢) انظر كشف الظنون (ط استنبول ١٣٦٠ — ٦٢) ٢/١٤٦١ ، ١٤٦٢ •

وراء نهر سيحون • ويعتبر معجمه « ديوان الأدب » أول معجم جامع في اللغة العربية ترتب مادته على حسب الأبنية ، أو باعتبار السواكن والعلل •

وقد قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بطبع هذا المعجم بتحقيق المؤلف وظهر في أربعة أجزاء يليها جزء خاص بالفهارس • ويتلخص نظام ديوان الأدب فيما يأتي :

(أ) قدم الفارابي لمعجمه بمقدمة شغلت من المطبوعة ثلاثا وعشرين صفحة ^(١) وتناولت مسائل عدة لغوية وتصريفية كما سنتحدث فيما بعد •

(ب) بعد المقدمة تجيء المادة اللغوية موزعة على أبوابها بحسب أبنيتها على النحو الذي شرحه في مقدمته •

(ج) وذيل معظم أبواب الأفعال بأحكام تصريفية •

المقدمة : أما المقدمة فقد تناولت المسائل الآتية :

١ — تفضيل اللسان العربي على سائر الألسنة لأنه كلام جيران الله في دار الخلد ، ولأنه المنزه من بين الألسنة عن كل نقيصة ، والمعلى عن كل خسيصة •

٢ — التعرض لأعمال اللغويين السابقين بصورة مجملة وتنظيمهم الى موجز وغير موجز ومعتدل بين المذهبين •

٣ — إدلاله بنفسه وفخره بمصنفه ، وذكره أنه عمل في كتابه « عمل من طب لن حب » وأنه لم يسبق الى هذا النظام ، أو يزاحم عليه •

٤ — ذكره الضابط العام الذي ينتظم كل ما حواه معجمه من مادة

(١) انظر ديوان الادب بتحقيقى الجزء الاول ص ٧٠ — ٩٢ .

لغوية وهو أن يكون مستعملا ، وأن يذكره النحارير من علماء أهل
الأدب في كتبهم ، وأن يكون واردا في قرآن أو حديث أو شاهد من
كلام العرب .

٥ — شرح منهج الكتاب .

٦ — التعرض لبعض الأحكام التصريفية التي تتعلق بنظام الكتاب
كالحديث عن أقل الأبنية وأقصاها ، وعن حروف الزيادة ومواضعها ،
وعن أبنية الأسماء مجردها ومزيدها واستعمالات كل بناء ، كقوله عن
بناء « فَعَلَ » بفتح فسكون أنه يكون واحد فعول (قلب وقلوب) أو
فعال (كلب وكلاب) أو أفعال (ثوب وأثواب) ، ويكون وصفا من الأفعال
الدالة على الطبائع (ضخم) ، ويكون مصدرا لفعل المتعدي (ضرب)
ويكون جمعا لفعله (ثمرة) .

المادة اللغوية : رتبت المادة اللغوية على النحو الآتي :

١ — قسم الفاربي معجمه ستة أقسام أسماها كتباً وهي على
الترتيب الآتي :

(أ) كتاب السالم ، وعرفه بقوله : ما سلم من حروف المد واللين
والتضعيف .

(ب) كتاب المضاعف ، وعرفه بقوله : ما كانت العين منه واللام
من جنس واحد .

(ج) كتاب المثال ، وعرفه بقوله : ما كانت في أوله واو أو ياء .
(د) كتاب ذوات الثلاثة ، وعرفه بقوله : ما كانت العين منه حرفا
من حروف المد واللين (الأجوف) .

(هـ) كتاب ذوات الأربعة ، وعرفه بقوله : ما كانت اللام منه حرفا
من حروف المد واللين (الناقص) .

(و) كتاب المهور ، وهو ما كان أحد أصوله همزة (١) .

٢ — جعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين : أسماء وأفعالا (٢)
وقدم الأسماء في كل كتاب على الأفعال .

٣ — قسم كل شطر منهما الى أبواب بحسب التجرد والزيادة . ففى
الأسماء بدأ بالثلاثى المجرد ثم مالحقته الزيادة فى أوله (أصبح ومذهب)
ثم المثقل الحشو (المزد بالتضعيف) وذلك مثل (حِمَمَص) ، ثم مالحقته
الزيادة بين الفاء والعين (طابَع) ، ثم مالحقته الزيادة بين العين واللام
(سحاب) ثم مالحقته الزيادة بعد اللام (خدب) ، ثم الرباعى وما ألحق
به (ثعلب) ، ثم الخماسى وما ألحق به (جردَ حَل) . وفى الأفعال
بدأ بالثلاثى المجرد (ثَقَب) ، ثم مالحقته الزيادة فى أوله من غير ألف
وصل وهى المهمزة (أترَب) ، ثم المثقل الحشو (رَتَب) ، ثم مالحقته
الزيادة بين الفاء والعين (جاذب) ، ثم الأبواب الثلاثة التى فى أولها
ألف وصل (اجتذب — انسحب — استصعب) ثم مالحقته الزيادة فى
أوله وهى التاء مع تثقيب حشوه (تكلم) ، ثم مالحقته الزيادة فى أوله
وهى التاء ، مع زيادة بين الفاء والعين (تجاذب) ، ثم بابا الألوان
وما أشبه ذلك (احمر — احمرار) ، ثم أبواب الرباعى وما ألحق به (٣)
أو زيد فيه .

(١) ذكر السر فى افراد المهور بكتاب بقوله : (والهمزة كالحرف السالم
فى احتمال الحركات وانما جعلت فى حروف الاعتلال لأنها تلين فتلحق بها)
(٧٦/١) .

(٢) يشمل شطر الأفعال الأفعال ويشققانها كالمصدر واسم الفاعل
واسم المفعول .

(٣) اللاحق هو جعل كلمة على وزن كلمة ازيد منها لتلحقها فى التصريف
وهو نوعان : ملحق بالرباعى وملحق بالخماسى . وأشهر أوزان الملحق
بالرباعى : فعَلن : خلبن ، وموَعَل : جورب ، وفِيعَل : سيطر ، وفِعُول :
سرول ، وفِعَلل : جلبب وغيرها .

٤ — ولما كان كل باب من هذه الأبواب قد يشترك في عدة أبنية ، كالثلاثى المجرد من الأسماء الذى له تسعة أبنية ، وضع قاعدة للتقديم بعض هذه الأبنية على بعض فقدم ساكن الحشو على المتحرك لأن السكون أخف ، وقدم المفتوح الأول لأن الفتحة أخف ثم أتبعه المضموم ثم المكسور • وقدم ياء التانيث على همزة التانيث وهمزة التانيث على الون •

٥ — ولما كانت هناك كلمات كثيرة تشترك في الوزن الواحد رأى أن يرتب الأوزان بحسب حرفها الأخير مع أولها ووسطها • وهذا ما يعرف الآن بنظام الباب والفصل ، وقد اشتهر بين الباحثين أن الجوهري هو الذى اخترعه ، والذى تبين الآن أن الفارابى قد سبقه إليه •

ولكنه عدل في ترتيب ألفاظ المعتل اللام أو المهموزها عن اعتبار الحرف الأخير لأنه واحد في جميعها ، واعتبر الحرف الذى قبله مسح الحرف الأول • وهذا وجه خلاف بينه وبين الجوهري الذى لم يعدل عن اعتبار الحرف الأخير ، حتى في المهموز والناقص • فكلمة البدء تذكر في الصحاح قبل الخبء لأنها عنده من باب الهمز فصل الباء • ولكنها تذكر بعد الخبء في ديوان الأدب ، لأنها من باب الدال فصل الباء ، وكلمة الخبء من باب الباء فصل الخاء • ومثل هذا يقال عن كلمتين مثل « نحو » و « رخو » فالأولى تذكر أولا في ديوان الأدب ، ومتأخرة في الصحاح •

٦ — اعتبر أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، ولكنه لم يعتبر الزيادة حينما أراد توزيع الكلمات على الأبواب والفصول •

٧ — كان في كثير من الأبواب ولا سيما في شطر الأفعال يذيل الباب بتعقيب يتحدث فيه عن أحكام عامة تتعلق بالباب كما سنذكر فيما بعد •

٨ — في أبواب المعتل كان يفصل الواوى من اليائى ويقدم الأول منهما •

٩ — راعى الإيجاز فى معجمه ولذلك حذف الأبنية القياسية سواء فى الأسماء أو الصفات أو المصادر ، اكتفاء بذكر أحكامها فى المقدمة والتذييلات •

١٠ — كان يرد الجموع الى مفرداتها ويضع الجمع تحت مفرده •

التذييلات :

أتبع الفارابى كثيرا من أبواب الأفعال بفصول تذييلية تناول فيها بالتفصيل أنواع المشتقات ، وتعرض لكثير من الأحكام التصريفية العامة • وكان غرضه من ذلك الجمع بين المادة اللغوية المسموعة ، والأخرى المقيسة • وبذلك يضم معجمه أكبر قدر ممكن من ألفاظ اللغة ، مالا ضابط له بالنص عليه ، وما له ضابط بذكر قاعدته وكيفية اشتقاقه •

وكان تركيزه فى هذه التذييلات على أمور منها :

١ — بيان المصادر من كل باب ، كقوله فى باب فَعَلَ يَفْعَلُ (بفتح فضم) : والمصدر القياسى فى هذا ما كان على الفَعْل أو الفُعُول • الفَعْل للمتعدى والفُعُول لللازم ، وقد يتبادلان ، وربما اجتمعا مثل سَكَتَ سَكْنَا وسَكُوتًا • وربما جاء المصدر من هذا الباب على فَعَّلَ (بفتح فضم) وهو قليل •

٢ — بيان الصفات من كل باب كاسم الفاعل والصفة المشبهة •

٣ — كيفية أخذ اسم الزمان والمكان والمصدر الميمى •

٤ — كيفية أخذ فعل الأمر وضبط ألفه فى كل باب •

٥ — معانى صيغ الزوائد •

٦ — أحكام تخص بعض الأبواب دون بعض ، ومن ذلك :

(أ) ذكره سر المخالفة بين حركة الماضى الثلاثى ومضارعه •

- (ب) ذكره السر في اشتمال باب فَعَلَ يفعل على أحد حروف الحلق •
(ج) حديثه عن لزوم باب فَعَلَ يفعل وسر التزام الضم في الماضي والمضارع معاً •
(د) ذكره كثيراً من أحكام الإعلال في أبواب المثال وذوات الثلاثة وذوات الأربعة (١) •

أما فائدة هذا النوع من المعاجم فتتلخص فيما يأتي :

١ — اختار ترتيب الكلمات على الترتيب الهجائي المعروف ، ولم يذهب في ذلك مذهب الخليل بن أحمد ولم يرتب ترتيبه « ميلا الى الأشهر ، لقرب متناوله ، وسهولة مأخذه على الخاصة والعامة » •

٢ — ترتيب الكلمات على حسب حرفها الأخير يسهل البحث عن الكلمات التي قد يغمض معرفة أولها ، أو سبق أولها بحروف مزيدة مثل : يعد — ميزان — أو اصل (٢) •

كما أن هذا الترتيب ييسر على الشعراء والكتّاب النظم والنثر في عصر كانت قد شاعت فيه المحسنات اليديعية والمتزمت القوافي •

٣ — ويكشف لنا القاضي نشوان بن سعيد الحميري في مقدمة كتابه شمس العلوم ، وهو ممن تأثر بالفارابي في تنظيمه عن عامل آخر أملى هذا النظام ، وذلك في قوله : « وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى كثيراً من الكتب فمنهم من جعل تصنيفه حارساً للنقط وضبطه بهذا الضبط ، ومنهم من حرس تصنيفه بالحركات بأمثلة قدروها ، وأوزان ذكروها ،

(١) انظر ديوان الادب ٢٥٦/٣ ، ٢٦١ ، ٤٠١ ، ٨١/٤ على سبيل

المثال •

(٢) ثبت بالاحصاء أن لام الكلمة ثابتة لا تتغير مهما اختلفت صورة الكلمة — الا في حالات قليلة — ومتى لحقتها التغير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فإن الكلمة تنتقل الى أوزان أخرى ولا تعتبر من الثلاثي •

ولم يأت أحد منهم بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات • فلما رأيت ذلك ورأيت تصنيف الكتاب والقراء •• حملنى ذلك على تصنيف يأمن كاتبه وقارئه من التصحيف ، يحرس كل كلمة بنقطها ، وشكلها ، ويجعلها مع جنسها وشكلها ويردها الى أصلها ، جعلت فيه لكل حرف فى المعجم كتابا ، ثم جعلت له ولكل حرف معه من حروف المعجم بابا ، ثم جعلت كل باب من تلك الأبواب شطرين : أسماء وأفعالا ، ثم جعلت لكل كلمة من تلك الأسماء والأفعال وزنا ومثالا • فحروف المعجم تحرس النقط وتحفظ الخط ، والأمثلة حارسة للحركات والشكل ، فكتابى هذا يحرس النقط والحركات جميعا » (١) •

٤ — ترتيب المعجم على نظام الأبنية ، وجمع الكلمات التى على شاكلة واحدة فى صعيد واحد يفيد الصرفيين كثيرا ، ويطلعنا على خصائص الأوزان ، وما يفيد كل بناء من الأبنية ، كوزن « فعال » بضم الفاء الذى يفيد الزيادة والكثرة ، وصيغة « فَعِيل » التى تدل على الملازمة والمبالغة فى الشيء • كما يقفنا على معانى صيغ الزوائد كصيغة « أفعل » و « فاعل » و « فعل » و « استفعل » • الخ •

٥ — من عيوب المعاجم أنها كثيرا ما تهمل النص على باب الفعل الثلاثى مما يوقع الباحث فى الحيرة • وقد تغلب الفارابى على هذه المشكلة بتوزيعه الأفعال على أبوابها ، فليس فى معجمه فعل واحد لم يرد الى بابيه • ومن أمثلة ذلك قول الجوهري : « قلبته أى أصبت قلبه ، وقلبته النخلة أى نزعت قلبها » ولم يذكر الباب • وقد ذكرهما الفارابى فى باب فَعَلَ يَفْعِلُ • (بفتح فكسر) •

تقدير القدماء لديوان الأدب :

استفادت كتب اللغة المتأخرة بمادة ديوان الأدب وأهمها فقه اللغة

للثعالبي ، والتكملة والعياب للصغاني ، والمزهر للسيوطي ، وإضاءة
الراموس للفاسي والمصباح المنير للفيرمي . . .

كما أثنى عليه العلماء ووصفوه بأرفع الصفات فسموه « الجامع
لديوان الأدب » ، ووصفوه بأنه « ميزان اللغة ومعيار العربية » • وكان
أبو العلاء المعري يحفظه عن ظهر قلب ، وهو الذي أكمله لأديب يمني
عشر على جزء منه وأعجبه جمعه وترتيبه •

كما مدحه كثير من الشعراء ، فقال أحدهم :

كتاب ديوان الأدب أحلى جنى من الضرب
ماضراً من يحفظه خمرل ذكر أو نسب
يرفعه كتابنا أعلى الأعالى والحسب

ومدحه القاضي نشوان بن سعيد بقوله :

نعم الكتاب كتاب ديوان الأدب نعم الذخيرة فهمه والمكتسب
في كل باب منه كنز دونه كنز اللجين ودونه كنز الذهب

عيوبه :

١ — تعقد نظام الكتاب وصعوبة استخدامه حتى على المتخصصين ،
فهو نظام لا يسعف الباحث المتعجل •

٢ — أرغمت هذه الخطة المؤلف على تمزيق الصيغ التي ترجع الى
مادة واحدة وتوزيعها على أبواب مختلفة بحسب أوزانها •

٣ — لم يشمل المنهج أفراد أبواب الفعل المبني للمجهول ، أو
للحروف ، ونراه يدمج النوع الأول في أبواب البنية للمعلوم ويدمج
الثاني في أبواب الأسماء •

٤ — أساس الاستفادة من المعجم معرفة ضبط الكلمة أولا • ولهذا
فهر يصلح لمن يعرف ضبط الكلمة ويريد أن يقف على معناها ، أو يريد
أن يقف على خصائص بناء من الأبنية ، ولكنه لا يصلح لمن عرف مدلول
كلمة ، وأراد الوقوف على ضبطها •

٥ — وقوع المؤلف في بعض الأخطاء المنهجية مثل تكرار اللفظ مرة
في باب الأسماء ومرة في باب الأفعال ، ومثل الخلط بين الأسماء والصفات
والأولى موضعها القسم الخاص بها والثانية موضعها قسم الأفعال ، ومثل
ذكره بعض الصيغ القياسية مع نصه على عدم ذكرها في المقدمة •

٦ — كما أنه وقع في بعض الأخطاء في شرح المادة اللغوية كقوله :
وهي الكنيسة للنصارى ، مع أن المعروف أنها لليهود • أما معبد
النصارى فيسمى بيعة (١) •

٢ — شمس العلوم لنشوان :

وهو من معاجم الأبنية التي اقتنفت أثر الفارابي : واسمه بالكامل
« شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » • واسم مؤلفه نشوان
ابن سعيد بن نشوان الحميري النحوي اللغوي الفقيه من علماء القرن
السادس الهجري • وصفه السيوطي بقوله : « أوحده أهل عصره ، وأعلم
دهره » • وقد كان هذا الكتاب أسعد حظا من « ديوان الأدب » إذ طبع
منه جزء في مجلدين وصل إلى آخر حرف الجيم بتحقيق ك • و • سترمستين
كما أخذت مطبعة الحلبي في طبعه وأصدرت منه جزءين وصلا إلى آخر
حرف الشين ، وذلك قبل أن يطبع ديوان الأدب • ثم أخذت مطبعة
الحلبي في إعادة طبعه وأخرجت منه عام ١٩٨٣ خمسة أجزاء ثم توقفت •

(١) وانظر ما سبق من مآخذ لغوية في دراسة العلاقة بين الصحاح
وديوان الأدب ، ومأخذه في مقدمة التحقيق عن عيوب المعجم (٤٣/١)
وما بعدها •

والكتاب يبدأ بمقدمة يليها فصل في التصريف • وأهم ما تناولته المقدمة فضل اللغة العربية على سائر اللغات ، والحديث عن نظام الكتاب • أما فصل التصريف فقد بين أهمية علم التصريف وافقه قار علم اللغة إليه ثم تناول مشكلات الزيادة ، والإبدال ، والحذف ، ومخارج الحروف ، والإدغام وغير ذلك • وقد شغلت المقدمة وفصل التصريف ٢٩ صفحة من مطبوعة ليدين •

نظامة :

١ — قسم المؤلف معجمه الى كتب على عدد حروف الهجاء ، مرتبة على حسب الترتيب الهجائي المعروف ، فبدأ بكتاب الهمزة ، وتلاه بكتاب الباء ، ثم التاء ، ثم الناء •

٢ — قسم كل كتاب من هذه الكتب الى جزئين ، جزء للمضاعف وجزء لغيره ، وكان يبدأ كل كتاب بباب المضاعف •

٣ — قسم كل جزء من هذين الجزئين الى شطرين ، شطر للأسماء ، وشطر للأفعال وكان يبدأ بشطر الأسماء •

٤ — قسم كل شطر الى أقسام بحسب التجرد والزيادة ، فكان يبدأ بالثلاثي المجرد ، ثم المزيد فيه ، ثم الرباعي ، ثم الخماسي •

٥ — ولما كان كل قسم من هذه الأقسام يشترك في عدة أبنية راعى في المجرد الحركة حين ترتيب الأوزان ، فكان يقدم ساكن الحشو على المتحرك والمفتوح الأول على المضموم والمكسور • أما في المزيد فقد راعى مكان الزيادة فقدم من الأبنية ما كانت زيادته أسبق ، مع مراعاة نوع الحركة أيضاً •

٦ — اعتبر أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، ولكنه لم يعتبر الزيادة حينما وزع الكلمات على الأبواب والفصول •

بين ديوان الألب وشمس العلوم :

هناك أوجه شبه وأوجه خلاف بين المعجمين • أما أوجه الشبه فواضحة فيما يأتي :

- ١ — فكرة التقسيم إذ اتبعنا نظام الأبنية •
- ٢ — التقسيم الى أسماء وأفعال ، وإفراد أبنية كل قسم ومفرداته •
- ٣ — التقسيم بحسب التجرد والزيادة ، ثم بحسب نوع الحركة •
- ٤ — اعتبار أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، وإهمالها عند توزيع الكلمات على الأبواب والفصول •

وأما أوجه الخلاف فنتلخص فيما يأتي :

- ١ — قسم الفارابي كلماته الى ستة أقسام بحسب نوع حروفها ، في حين أن القاضي نشوان راعى فصل المضاعف فقط عن غيره • ولا أفهم سر ذلك •

٢ — قدم الفارابي مرحلة التقسيم بحسب الأبنية على مرحلة التقسيم بحسب الحروف ، في حين أن القاضي نشوان قد شطر مرحلة التقسيم بحسب الحروف الى شطرين ، قدم أولهما (وهو اعتبار الحرف الأول والثاني) على مرحلة الأبنية ، وآخر ثانيهما (وهو اعتبار الحرف الأخير) عن مرحلة الأبنية •

- ٣ — كذلك نجد الفارابي في اعتباره للحروف يرتب بحسب الحرف الأخير والأول (نظام الباب والفصل) أما القاضي نشوان فيرتب بحسب الحرف الأول ، ثم الثاني ، ثم الأخير (١) •

(١) سواء كان الأخير ثالثا أو رابعا ، ولذلك رتب كلمات البناء « فعلل » في قسم الأسماء هكذا : جلعب ، جلسد ، جلعد — جلمد — جلهم .. ولو كان ينظر الى الحرف الثالث لغير الترتيب .

٤ — وهناك فرق هام بين المعجمين يتمثل في المادة اللغوية الموجودة في كل • فديوان الأدب معجم مختصر ، وقف عند حدود المعجم ، فأهمل المسائل الفقهية والكلامية ، ونحى الأشياء الغريبة عن علم اللغة ، وحد من الأبحاث النحوية والبلاغية : أما شمس العلوم فكان يحشد قذات المادة كل ما يمكن حشده من ألوان العلوم والمعارف ، ولذا جاء حجمه ضخماً بالنسبة لحجم ديوان الأدب ، مع نص القاضى نشوان في مقدمته على أنه بلغ في هذا التصنيف من الإيجاز والاختصار جهده ، وأتى بأقصى الغاية مما عنده • ولكن ماذا يغنى الاختصار والكتاب ملىء بأخبار الملوك ، ومعرفة منافع الأشجار ، وطبائع الأحجار ، والحديث في علوم القرآن والقراءات والتفسير ، والأنساب والأخبار والحساب ، والفقه والنجوم وتأويل الرؤى ، والنحو والصرف والعروض ، ومصطلح الحديث والفرق الإسلامية (١) •

ويبدو أن القاضى نشوان قد تعمد إغفال اسم « ديوان الأدب » حتى يقطع الصلة بين المعجمين أو يمحو معالمها • ويبدو أن هذه النية هى التى جعلته يزعم في مقدمته أن أحداً من المؤلفين في المعاجم لم يأت قبله بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات ، مع أن الفارابى قد سبقه الى ذلك بقرنين من الزمن •

ولم يستطع القاضى نشوان يرغم ذلك أن يمحو تأثير الفارابى عليه ، أو يقطع صلته به ، ولذلك نجد القفطى يعتبر شمس العلوم شرحاً لديوان الأدب • وهو ليس كذلك في الحقيقة ولكنه أثر من آثاره (٢) •

(١) المقدمة س ٣ ، ٦ وقد تكلم المؤلف في أكثر من صفحتين منها عن علم النجوم وأهميته ومنزلته •

(٢) ولاحظ ما سبق أن اقتبسناه من قصيدة نشوان في مدح ديوان الادب • وقد أوردت القصيدة بنصها في مقدمة تحقيقى (٣٩/١) •

٣ — مقدمة الأدب للزمخشري :

ومقدمة الزمخشري من الكتب التى سارت على نظام الأبذية ، ومؤلفها من علماء القرن السادس كذلك ، وقد قسمها الى خمسة أقسام : الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، وتصرف الأسماء ، وتصرف الأفعال •

ولم يتبع المؤلف فى قسم الأسماء نظام الأبذية ، وإنما سلك فيه سبيل المعاجم المرتبة بحسب الموضوعات ، فقسمه الى أبواب ، جمع تحت كل باب منها الكلمات التى تدور حول مريض واحد •

أما قسم الأفعال فقد اتبع فيه نظام الأبذية فقسمه أولاً الى :

(أ) الثلاثى المجرد •

(ب) الثلاثى المزيد •

(ج) الرباعى •

(د) وألحق بها قسماً رابعاً جمع فيه (من غير نظام) الأفعال غير المتصرفة ثم قسم كل قسم من الأقسام الثلاثة الأولى الى أبواب • فقسم الثلاثى المجرد بحسب ماضيه ومضارعه الى ستة أبواب ، وألحق بها باباً سابعاً للمبنى للمجهول •

وفصل فى كل باب الأنواع الآتية بعضها من بعض :

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (أ) الصحيح • | (ب) المضاعف • |
| (ج) المعتل الفاء • | (د) المعتل العين • |
| (هـ) المعتل اللام • | (و) المعتل الفاء واللام • |
| (ز) المعتل العين واللام • | |

ورتب الكلمات تحت كل نوع ترتيباً هجائياً كترتيب ديوان الأدب والصاح •

وأما قسم الحروف فهو قسم قصير جداً لم يعالج فيه الزمخشري الحروف معالجة اللغوي ، وإنما عالجها معالجة النحوي الذي يبحث عن الأثر الإعرابي ولذلك كانت أقسامه : « فصل في الحروف التي تجر الأسماء » « فصل في الحروف التي تنصب الأسماء » ، « فصل في الحروف التي تنصب الاسم وترفع الخبر » •

وأما القسمان الرابع والخامس الخاصان بتصريف الأسماء والأفعال فيتناولان موضوعات تمس النحو والصرف كالإعراب والبناء ، والتعريف والتنكير ، والإفراد والتثنية والجمع ، والتصغير ، والسب •

وتوجد من المعجم عدة نسخ ناقصة في دار الكتب المصرية يكمل بعضها بعضاً وهي :

- نسخة رقم ١٠٠ لغة تشتمل على الأسماء وقسم الأفعال •
- نسخة رقم ٦٣٦ لغة وتشتمل كذلك على قسمي الأسماء والأفعال •
- نسخة رقم ٢٧٢ لغة تنقص قسم الأسماء فقط وتشتمل على الأقسام الأربعة الأخرى وكتب عليها خطأ « كتاب الأفعال » •

القسم الثانى

معاجم المعانى

يبدو أن فكرة هذا النوع من المعاجم الذى يرتب ألفاظه بحسب الموضوعات — كانت أسبق فى الوجود ، أو معاصرة لأولية المعاجم العربية المرتبة على الألفاظ ، وإن أخذت البداية شكلا خاصا يتمثل فى كتيبات صغيرة يتناول كل منها موضوعا واحدا من الموضوعات •

ومن أوائل من ألفوا الكتيبات ذات الموضوع الواحد : أبو مالك عمرو ابن كركرة الذى ألف : خلق الإنسان ، والخيال • ومنهم أبو خيرة الأعرابى الذى ألف : الحشرات وهما من علماء القرن الثانى الهجرى •

وفى القرن الثالث استمر هذا العمل ، ووجدت بجانبه أعمال أخرى تتمثل فى كتب تجمع أكثر من موضوع فى مجلد واحد • فمن النوع الأول : السلاح للنضر بن شميل ، والنحلة ، والإبل ، والخيال ، وخلق الإنسان لأبى عمرو الشيبانى ، والإنسان ، والزرع لأبى عبيدة ، والمطر ، والمياه ، وخلق الإنسان ، والشجر لأبى زيد الأنصارى ، والإبل ، والنحل والإنسان ، والنبات ، والخيال للأصمعى ، وأسماء الخيل ، والبهير ، والدرع لابن الأعرابى ومن النوع الثانى تلك الكتب التى حملت اسم « الغريب المصنف » أو « الصفات » • ومن ألف من أبناء هذا القرن : النضر بن شميل الذى ألف « الصفات » ، وأبو عبيد القاسم بن سلام الذى ألف « الغريب المصنف » ^(١) • ومن معاجم هذا القرن كذلك معجم لابن السكيت يحمل اسم « الألفاظ » وهو مطبوع ومتداول ^(٢) •

(١) ما يزال مخطوطا • وانظر عدنان الخطيب ص ٣٧ ، وحسين نصار ١٢٩/١ وما بعدها •

(٢) طبع بتهديب التبريزى باسم « كنز الحفاظ فى كتاب تهذيب الألفاظ » •

ويستمر الاتجساهاان في القرن الرابع ، فيؤلف الأخفش الأصغر « الأنواء » ، وابن دريد « السرج واللجام » و « المطر والسحاب » ، وأبو علي القالي « الإبل » • ويؤلف كراع النمل (أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي المتوفى بعد عام ٣٠٩ هـ) « المنجد » ^(١) ، وعبد الرحمن ابن عيسى الهمذاني ^(٢) (توفي ٣٢٠ هـ) « الألفاظ الكتابية » وقدامة بن جعفر (توفي ٣٣٧ هـ) « جواهر الألفاظ » • وآخر ما طبع من معاجم المعاني لهذا القرن « متخير الألفاظ » لابن فارس (توفي ٣٩٥ هـ) ^(٣) •

أما القرن الخامس فقد كاد يختفي ^(٤) منه الاتجاه الأول ، وبقي الاتجاه الثاني ممثلا في « مبادئ اللغة » للإسكافي (توفي ٤٢١ هـ) الذي ضم أبوابا تدور على الموضوعات ، مثل النجوم والدر والليل والنهار والثياب والآلات وأدوات الطعام والشراب ، وقد طبع بالقاهرة • كذلك ظهر فيه « فقه اللغة » للثعالبي (توفي ٤٢٩ هـ) وقد طبع كذلك • وتوج هذا القرن بعملين هامين ، أحدهما غاية في الطول ، والآخر غاية في الاختصار •

أما العمل الأول فهو :

المخصص لابن سيده :

وهذا المعجم يعد أوفى وأشمل معجم من معاجم المعاني في تاريخ اللغة العربية • وقد استعان ابن سيده في تأليفه بكل ما كتب قبله تقريبا من مؤلفات الغريب المصنف ، والصفات والألفاظ والمعاجم اللغوية وكتب اللغة المختلفة ، ولذا جاء شاملا وافيا •

(١) طبع بتحقيق المؤلف بالاشتراك مع ضاحي عبد الباقي •

(٢) طبع كتابه بتحقيق لويس شيخو •

(٣) طبع بتحقيق هلال ناجي •

(٤) لم أعر الا على « الأزمنة والأنواء » لابن الأجدابي وسيرد مزيد بيان عنهما •

ويضم الكتاب إلى جانب ذلك كثيرا من المباحث النحوية والصرفية ،
كما أنه مزود بأسراره المنظومة والمنثورة •

والمخصص منبرع ومتدارل ويقع في ١٧ جزءاً • ويقول مؤلفه في
مقدمته : « تأملت ما الله القدماء في اللسان ••• فوجدتهم قد أورثونا
بذلك شيئا علوما نفيسة جمّة ••• إلا أنني وجدت ذلك نشرا غير ملتئم ،
ونفرا ليس بمنتمضم ••• ثم إنني لم أر لهم فيها كتابا مشتملا على جلها
نفسا عن شيئا مع أنني رأيت جميع من مد إلى تأليفها يدا ••• قد حرروا
الارتياض بحسنة الإعراب . ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من
تحيب ذلك الحجاب . حتى كأنهم موات لم يمد بحيوانية أو حيوان لم
يحد بإنسانية » •

والمعجم مقسم إلى أبواب رئيسية بحسب الموضوعات وتحت كل باب
مجموعة من التقسيمات الفرعية كما يبين من المثال التالي : كتاب خلق
الإنسان — كتاب اللباس — كتاب الطعام ••• وتحت كتاب خلق الإنسان
نجد : باب الحمل والولادة — أسماء ما يخرج مع الولد — الرضاع
والامتناع والغذاء وسائر ضروب التربية — الغذاء السيئ لا ولد ••• —
الرأس — ومن صفات الرأس ••• الحاجب — العين وما فيها •• —
الأنف ••• — الشفة وما يليها من الذقن (١) •

وقد أعد الأستاذ محمد الطالبي دراسة ، كما قام بعمل فهارس
متنوعة للمخصص وطبعها تحت عنوان « المخصص لابن سيده — دراسة
ودليل » وهو عمل لا بأس به وييسر على الباحثين غناء التجوال في أجزاء
المخصص المتعددة للعثور على طلبتهم •

(١) انظر مقارنة بين معاجم المعاني (القديمة) ومعاجم الحقول الدلالية
(الحديثة) في بحثنا : نظرية الحقول الدلالية واستخداماتها المعجمية (مجلة
كلية الآداب ، جامعة الكويت ، العدد ١٣) •

ورب سائل يسأل : ولكن ما قيمة هذا النوع من المعاجم ؟ وكيف يمكن الاستفادة به ؟ والحقيقة أن هذا النوع من المعاجم لا يستفيد منه من عثر على كلمة وأراد ضبطها بالشكل ، أو تحديد معناها ، فمثل هذا الباحث لابد أن يرجع الى معاجم الألفاظ • ولكنه يفيد من يدور معنى من المعانى في ذهنه ، أو يفكر في موضوع ما ، ويريد أن يجمع الألفاظ المتعلقة به أو التي تدور حوله فلن يفيده إلا هذا النوع من المعاجم • ولو أراد مثل هذا الباحث الاستعانة بلسان العرب مثلاً في العثور على طلبته لأفنى الشهور والمسنين في لَمَّ الكلمات التي يريدها وجمع ثقاتها من أماكنها المتفرقة ، ولعدل عن المضي في بحثه حين يكتشف مدى الجهد الذي ينتظره •

وأما العمل الآخر فهو :

كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي :

ولجهل الكثيرين بالكتاب ومؤلفه رأينا أن نخصصهما ببحث واف يقصد الى التعريف بهما ووضعهما في مكانهما :

أما المؤلف فهو العالم اللغوي أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الأجدابي ^(١) الطرابلسي ، من علماء القرن الخامس الهجري ، إذ كان معاصراً لأبى محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن هانش قاضي طرابلس في المدة من عام ٤٤٤ الى ٤٧٧ هـ ، واه معه قصة ذكرها التجاني في رحلته ^(٢) •

ومن مجموع ما ذكره المؤرخون وكتاب التراجم عن حياته نعرف أنه

(١) اللواتي نسبة الى « لواتة » وهي قبيلة بربرية كانت تسكن أجدابية والجدابي نسبة الى « اجدابية » وهي بلد من بلاد برقة (الزاوى : أعلام ليبيا ص ٤ ، معجم البلدان الليبية ص ٢٠) •
(٢) ص ٢٦٣ •

وإن كان ينتسب الى أجدابية ، فقد ولد وعاش ومات في طرابلس • وقد وصفه القفطى بقوله : « من أهل اللغة ، وممن تصدر في بلده واشتهر بالعلم • وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها » (١) • وقد ألف كتباً كثيرة هي بالإضافة الى كتابنا هذا :

١ — الأزمة والأنواء وقد طبع طبعة محققة ونشر في دمشق بتحقيق الدكتورة عزة حسن سنة ١٩٦٤ م •

٢ — كتاب في العروض قال عنه التجاني « ناهيك به حسنا وترتيعا وتهذيبا » •

٣ — كتاب في الرد على أبي حفص بن مكي في « تثقيف اللسان » •

٤ — كتاب شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء •

٥ — كتاب مختصر في علم الأنساب •

٦ — رسالة في الحول ألفها حين عيره « ابن هانش » بحوكه (٢) :

وأما الكتاب فقد نال شهرة عظيمة برغم صغر حجمه ، وتواتر عليه المؤلفات شرحا ونظما ، وبقيت منه نسخ عدة في كثير من مكتبات العالم • كما أنه طبع أكثر من مرة في أكثر من بلد عربي •

والكتاب صغير الحجم إذ يبلغ في بعض الطبعات ٥٥ صفحة ، وفي بعضها الآخر ٨٠ صفحة • أما موضوعه فنترك الحديث عنه لابن الأجدابي نفسه الذي يقول : « هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام ، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشى الألفاظ

(١) انباه الرواة ١٥٨/١ •

(٢) مزيد بيان عنه بمؤلفنا « النشاط الثقافي في ليبيا » ، ص ٢٥٧

وما بعدها •

واللغات ، وأعريناه عن الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنيا لمن اقتصر في هذا الفن ، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه ، وصنفناه أبوابا » .

أما أبواب الكتاب فممنها :

باب في صفات الرجال المحموده — ومن صفات الرجال المذمومة —
باب في صفات النساء المحموده — ومن مذموم صفاتهن — معرفة حلى
النساء — باب ما يحتاج الى معرفته من خلق الإنسان ..

وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من احتفال العلماء به ، واهتمامهم
بكتابة الشروح والتعليقات عليه فمن ذلك :

١ — شرح محمد بن الطيب المغربي الفاسى (المتوفى سنة ١١٧٠ هـ)
المسمى « تحرير الرواية في تقرير الكفاية » ، وتوجد منه نسخة مخطوطة
بدار الكتب المصرية تحمل رقم ١٤ لغة ش^(١) ، وقد بدأ ابن الطيب الفاسى
كتابه بقوله : « يامن المتحفظ بذكره كاف عن كفاية المتحفظ ، والتلفظ
بشكره الى بدايته تنتهى نهاية المتلفظ » وذكر أنه رمى من وراء تأليفه
الى ضبط كلمات الكفاية وشرح غريبها ، وأنه لم يؤلف كتابه إلا « بعد
ما سألني جماعة من الأصحاب الجهابذة الذين تكررت قراءتهم إياه كغيره
على طائفة من الشيوخ والأساتذة الذين كانوا يستندون في أمثاله من
العلوم اللسانية الى » .

٢ — نظم ابن مالك صاحب الألفية له . ويوجد من هذا النظم
ميكروفيلم محفوظ في معهد المخطوطات بالقاهرة برقمى ٢٨٦ ، ٢٨٧ لغة
وعدد ورقاته ٤٣ . ومن أبياته :

(١) قام بتحقيقه مؤخرًا على حسين البواب ضمن رسالة للحصول على
الدكتوراه من كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة (١٩٧٨) .

وبعده فقد رأيت حتما إذ كنت أكملت الفصيح نظما
أن أنتضى عزمة ذى عناية فأنظم الوارد فى الكفاية
إذ بها يتم نيل الأرب لمبتغى علم كلام العرب

٣ — ونظمه كذلك قاضى الحرم جمال الدين محمد بن محبت الدين
الطبرى المتوفى سنة ٧٠٠ هـ تحت عنوان : « عمدة المتلفظ فى نظم كفاية
المتحفظ » .

وغير ذلك :

ومما قيل تعليقا على كفاية المتحفظ :

التفطى : « صنف فى اللغة مقدمة لطيفة سماها كفاية المتحفظ يشتغل
بها الناس فى المغرب ومصر » .

ابن الطيب الناسى : « واعتنى بهذا المختصر جمع من الأئمة المقتدى
بهم واعتمدوه . وأكثر من النقل عنه . . الفيومى فى كتابه المصباح
النير . . . والدميرى فى حياة الحيوان وغيرها . وعدلوه بالمصنفات الكبار
كالصحاح والتهذيب والمجل ونحوها . وربما اختار كلامه فى المصباح
عليهم أحيانا . . وشهرته بين أهل الفن كافية » .

ومدحه الأديب الفقيه على بن صالح العدوى بقوله :

من كان يطلب فى الغريب وسيلة من شاعر أو كاتب متلفظ
أو كان يبتغى فى الكلام بلاغة فليحفظن كفاية المتحفظ (١)

(١) راجع : النشاط الثقافى فى ليبيا للمؤلف ، ص ٢٦٢ وما بعده .

٣ - المآخذ على المعاجم العربية

على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها المعجميون العرب ، لم يسلم عملهم من النقد ، ولم يخل من المآخذ ولعل أهم هذه المآخذ ما يأتي :

١ - أكبر عقبة تصادف الباحث في معاجمنا اللغوية عدم ترتيب المواد ترتيبا داخليا • ففيها خلط الأسماء بالأفعال ، والثلاثي بالرباعي ، والمجرد بالمزيد وخلط المشتقات بعضها ببعض « فربما رأيت الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المسادة ، ويأتي معانيه في آخرها • ففي مادة (عرض) ذكر الجرهرى المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانية بثلاثة وثلاثين سطرا » (١) وكذلك فعل الفيوزابادى في مادة حب ، فقد أورد في أولها : تحابوا أى أحب بعضهم بعضا ، ثم قال بعد ستة وثلاثين سطرا : والتحابب القواد • ومن هذا القبيل ما ورد في لسان العرب في مادة ظفر إذ قال : ظفّره وظفّره وأظفّره غرز في وجهه ظفّره • ثم ذكر بعد خمسة وثلاثين سطرا ظفّر به وعليه وظفّره وأظفّره الله به وعليه وظفّره به (٢) •

لذلك كان على من يريد الكشف عن كلمة أن يراجع المسادة كلها من أولها الى آخرها ، ولا يكتفى بمصادفتها في مكان واحد ، فربما تكرر ذكرها • ولهذا يقول أحمد فارس الشدياق : « ولا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطلع ، ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرا باثرا » •

(١) الجاسوس على القاموس ، ص ١٠ من مقدمته •

(٢) مقدمة « البستان » ، ص ٤٠ وانظر أمثلة أخرى من اللسان وأساس البلاغة في المعاجم اللغوية لأبى النرج ، ص ٤٢ وما بعدها •

٢ — كذلك يواجه الباحث في المعاجم العربية بعدم التزامها بالمنهج الذى اختطه المؤلف لنفسه • ومن أمثلة ذلك :

(ا) ما جاء فى « ديوان الأدب » للفرابى من أنه لن يذكر فى المعجم المشتقات القياسية ، ومع ذلك نجد فى المعجم ذكرا لِفِعال جمع فعل ، ولفعل جمع فاعل مثل نرم ونائم وغيب وغائب •

(ب) ما جاء فى مقدمة لجنة « المعجم الرسيط » من أن المعجم قد أهمل « كثيرا من الألفاظ الحوشية الجافية ، أو التى هجرها الاستعمال لعدم الحاجة إليها ، أو قلة الفائدة منها ، كبعض أسماء الإبل وصفاتها •• » ومع ذلك فقد ورد فى المعجم كلمات مثل الهصاهص بمعنى القوى من الناس أو الأسود ، ومثل المهلواع الناقة السريعة الشديدة ، ومثل الناقة الدرصاء التى تكسرت أسنانها كبرا ، ومثل الدرفاس بمعنى الضخم العظيم من الإنسان والحيوان (١) •

٣ — ومن عيوبها كذلك وقوعها فى بعض الأخطاء عند شرح المادة اللغوية • وقد ألفت الكتب قديما وحديثا فى التنبيه على هذه الأخطاء • وقد سبقت الإشارة الى « التنبيه والإيضاح » لابن برى ، و « نفوذ السهم » لخليل بن أيبك الصفدى ، و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الأصفهاني • أما فى الحديث فمما ألف فيها : « الجاسوس على القاموس » لأحمد فارس الشدياق ، « وتصحيحات لسان العرب » لأحمد تيمور • كما نشرت تصحيحات لسان العرب فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق بقلم الأستاذ توفيق داود قربان ، وتصحيحات أخرى للأستاذ عبد السلام هارون فى مجلة المجلة ، وأخرى للأستاذ عبد الستار أحمد فراج فى مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة وغيرها (٢) • ونشرت

(١) عدنان الخطيب ص ٦٣ ، ٦٧ — ٦٩ •

(٢) عدنان الخطيب نفس المرجع والصفحات • وانظر حسين نصار

٧٤٧/٢ وما بعدها •

تصحیحات للمعجم الرسیط للأستاذ عدنان الخطیب فی مجلة مجمع اللغة العربیة بدمشق تحت عنوان « نظرات فی المعجم الرسیط » •

ومن أمثلة هذه الأخطاء قول الجوهري : وسالم من أسماء الرجل ، ويقال للجلدة التي بین العين والأنف سالم • وقد عقب الصغاني بقوله : وهذا غلط • وقد تبع خاله الفارابی فی أخذه اللغة من معنى الشعر • والبيت الذى أخذ الفارابی هذا المعنى منه هو قول الشاعر :

يديروننى عن سالم وأريغه وجلدة بين العين والأنف سالم

وهذا البيت قد قاله ابن عمر فی ابنه سالم • وواضح أن « سالم » فی الشطر الثانى — كما هو فی الشطر الأول — هو سالم ابن ابن عمر ، وقد جعله لمحبته بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه • ومعنى أريغه أطلبه وأريده وأميل إليه سرا (١) •

ومن أمثلتها كذلك قول الفارابی : « الصيعرية سمة فی عنق البعير » • قال الفيروزابادى : الصيعرية سمة فی عنق الناقة لا البعير • وقد حاول ابن الطيب الفاسى أن يعتذر عن الفارابی بأنه أراد بالبعير الأنثى • ولا معنى لذلك فی رأينا ، وقديما عيب على المسيب بن علس قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بنأج عليه الصيعرية مكرم

لأن الصيعرية صفة للنوق لا للفحول • ولذلك حين سمع طرفة بن العبد هذا البيت قال : استنوق الجمل ، وضحك منه (٢) •

٤ — ومن عيوبها شرح الكلمات شرحا معيياً مثل :

(١) التكملة ٢٢/٦ ، لسان العرب ، مادة « سلم » • ويؤيد تفسيرنا للبيت ما جاء فی وصية هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده : « ان ابنى هذا هو جلدة ما بين عيني ، وقد وليتك تأديبه » •

(٢) ديوان الادب ٤٥/٢ ، والقاموس المحيط مادة « صعر » ، واضاءة الراموس ١٠٩/٣ ، والموازنة للامدى ص ٣٢ ، والموشح للبرزبانى ص ٧٦ •

(أ) غموض العبارة ، وتعريف اللفظ الغامض بلفظ غامض ، كقول الفارابى : « الصدع الوعل بين الوعلين » ، وهو يريد أنه وسط منها ليس بالعظيم ولا الصغير • ولكنه وعل بين وعلين ، كما شرحه الصحاح • وكقول الفارابى كذلك النثور : النيلج وقد شرحه الجوهري بقوله : وهو دخان الشحم يعالج به الوشم حتى يخضر •

(ب) عدم الدقة في التعبير ، كقول الفارابى : الأكلف لون بين السواد والحمرة ، والحقيقة أن الكلفة هي ذلك اللون ، أما الأكلف فهو ما كان لونه بين السواد والحمرة • ومنه قوله أيضاً : « القنينة آنية الشراب » والصواب إناء لأن القنينة مفرد لا جمع •

(ج) التعريف الدورى مثل قول الفارابى : حسب الرجل صار حسبياً وقوله : الوارش في الطعام مثل الواغل في الشراب — الواغل في الشراب مثل الوارش في الطعام • وعبارة الجوهري أوضح وهي : « الوارش الداخلى على القوم وهم يأكلون ولم يدع » ، مثل الواغل في الشراب • • ومنه قول القاموس : تنجّج الحاجة واستنججها تنجزها ، ثم قوله : تنجز الحاجة واستنججها (١) •

٥ — أنها أهملت في بعض الأحيان النص على ضبط الكلمة ، وبيان باب الفعل الثلاثى • ومن أمثلة ذلك قول الجوهري : قلبته أى أصبت قلبه • وقلبت النخلة أى نزعته قلبها • ولم يذكر الباب ، وقد ذكر غيره أنه من باب فعل يفعل (بفتح فكسر) •

٦ — كذلك من يتتبع معاجم المتأخرين يجدها تعتمد الى حد كبير على معاجم المتقدمين ، سواء من ناحية المادة أو النظام • ومنها ما يتجاوز مرحلة الاعتماد الى مرحلة التقليد الأعمى • ويحضرني من أمثلة التقليد الأعمى نموذجان :

(١) وانظر أمثلة أخرى في المعجم العربى لعبدان الخطيب ص ٧٦ وما بعدها .

(أ) اتباع ابن دريد نظام التقليلات تقليداً للخليل بن أحمد مع طرح ابن دريد للترتيب الصوتي • ونظام التقليلات لا يحقق هدفه إلا مقترناً بالترتيب الصوتي الذي يكشف عن خصائص « النسيج الصوتي » للكلمات العربية ، ويميز التجمعات المسموحة والأخرى الممنوعة •

(ب) استخدام ابن فارس نظام الدائرة في ترتيب ثوانى الكلمات وثنائها أى بدؤه الثانى مما يلى الأول والثالث مما يلى الثانى • وهذه نقطة حاكى فيها معاجم التقليلات دون أن يتنبه الى الحكمة منها • فمعاجم التقليلات تبدأ الثانى مما يلى الأول ، لأن ما قبل الأول قد سبق فى مكانه • ولكن بعد أن طرح ابن فارس نظام التقليلات لم تعد هناك حكمة فى بدء الثانى مما يلى الأول لأن ما قبل الأول لم يسبق ذكره •

أما الاعتماد من ناحية المادة فظاهرة متفشية فى جميع المعاجم العربية • فكتاب الجهرة يصفه « نفطويه » قائلاً :
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيّرهُ

ويصرح ابن فارس بالأخذ عن كتب السابقين والاعتماد عليها وعلى خمسة منها بالذات • • « فهذه الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة » •

ويفصح ابن منظور فى لسان العرب أنه نقل معجمه عن سابقيه نقلاً تاماً • فبعد أن يذكر التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده • • • يقول :
« وليس لى فى هذا الكتاب فضيلة أمت بها • • سوى أنى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب • • » ومثل هذا ينطبق على تهذيب اللغة والعياب والصاحح والقاموس • • وغيرها (١) •

(١) تفصيل ذلك فى : المعاجم اللغوية للدكتور محمد أحمد أبو الفرج ص ٢٧ وما بعدها •

٧ — ويرتبط بهذا المأخذ مأخذ آخر وهو وقوف المعاجم عند فترة زمنية لم تتجاوزها وهي القرن الثاني بالنسبة لعرب الحواضر والرابع بالنسبة لعرب البوادي ، مما أصاب اللغة بالجمود وعاقها عن التطور .

وخيراً فعل واضعو المعجم الوسيط حين لم يعترفوا بانقطاع سلامة اللغة العربية عند عصر معين ولا مكان معين ، وأثبتوا « في متن المعجم مادعت الضرورة الى إدخاله من الألفاظ المولدة أو المحدثه أو المعربة أو الدخيلة التي أقرها المجمع وارتضاها الأدباء فتحركت بها ألسنتهم وجرت بها أقلامهم » (١) . وقد استشهدوا في ذلك بقرارات المجمع اللغوي التي من أهمها :

(أ) فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة من اشتقاق وتجوز وارتجال .

(ب) إطلاقه القياس ليشمل ماقيس من قبل وما لم يقس .

(ج) تحرير السماع من قيود الزمان والمكان .

(د) الاعتماد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء (٢) .

٨ — خرجت معظم المعاجم العربية عن وظيفتها وبعدت عن حقل اختصاصها حين خلط أصحابها بين المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف وحشوا معاجمهم بمواد غريبة عنها . وربما كان معجما القاموس المحيط الفيروزابادي وشمس العلوم لنشوان بن سعيد (٣) من خير الأمثلة على ذلك .

(١) مقدمة المعجم الوسيط (ط ثانية) ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢ . وانظر محمد أبو الفرج ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) اذا كان هناك من عذر لنشوان — كما يفهم من عنوان معجمه —

فما عذر الفيروزابادي ؟

٩ — وإذا كان المعجم العربى قد مر بعصره الذهبى خلال القرون الأربعة الأولى من الهجرة فهو يمر الآن بحالة من الجمود جعلته يتخلف عن حركة التأليف المعجمى العالمية ، ويعود ذلك الى جملة أسباب منها :

(أ) أنه لا توجد هيئة دائمة أو مؤسسة متخصصة (حكومية أو غير حكومية) تتولى إصدار المعاجم العربية فى أى بلد عربى ، والأمر متروك للناسر يقبسه بمقاييس الربح والخسارة وتحقيق النفع المادى •

والأمر يحتاج الى مؤسسة على نمط « دار أكسفورد للنشر » التى أصدرت عشرات المعاجم الإنجليزية ، منها معجم أكسفورد الكبير الذى يعتبر المرجع الأعلى والأخير فى اللغة الإنجليزية ، واستغرق إخراجه سبعين عاما • ومنذ صدوره عام ١٩٢٨ وتعديلات المعجم مستمرة سواء بالحذف والتنقيح أو — وهو الأهم — بإضافة الألفاظ الجديدة التى استعملها الكتاب والشعراء المحدثون أو عثر عليها فى الصحف والمجلات المعاصرة ، ولذا فالمعجم فى نمو مستمر ، وهو يزود دائما بالملاحق والمستدركات • ومن أهم المعاجم الأخرى التى صدرت عن دار أكسفورد : المعجم اللاتينى الانجليزى الذى يعد أعظم معجم من نوعه صدر حتى الآن واستغرق اعداده وإخراجه نحواً من نصف قرن ، ويضم مفردات اللاتينية منذ ظهورها — رغم أن اللغة اللاتينية — كما نعلم جميعا — لغة ميتة (١) •

(ب) أنه لا يوجد سجل شامل لمفردات أى عصر من عصور اللغة العربية حتى الآن • وما يتم إنجازه من دراسات معجمية لدواوين بعض الشعراء فى أقسام اللغة العربية بجامعةتنا ، لا يمثل إلا قطرة فى بحر من ناحية ، وهو جهد مبعثر لا يتم ضمن إطار عام أو خطة شاملة من ناحية ثانية • كما لا يمكن الوثوق به أو الأطمئنان إليه من حيث الدقة والصحة اللفظية من ناحية ثالثة •

(١) انظر : خلوصى ص ١٠٢ وما بعدها والسيد فى مواقع متفرقة •

وقد كان — وما يزال — المعجم التاريخي حلما راود خيال الكثيرين •
ولكن تكلفة المشروع ، وضخامة الجهد البشرى المطلوب لتنفيذه ، وغياب
الوعى بأهمية هذا المعجم • حال بينه وبين الظهور •

فليت أى جهة مسئولة أو دار نشر غنية تنتبّه الى قيمة هذا العمل
الضخم وتتبناه • ولعل جمعية المعجمية العربية بتونس التى أعلنت عن
بدئها العمل فى هذا المشروع تكون جادة فى التنفيذ ، ولكن من أين لها
التمويل الضخم المطلوب والكفايات البشرية اللازمة ؟

ولو تم هذا يكون لدينا أساس قوى لرصيدنا اللغوى يتم تزويده
كل لحظة بما يجد من ألفاظ على ألسنة الشعراء وبأقلام الكتّاب ، وما يرد
فى الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة من كلمات وتعبيرات
وتراكيب •

(ج) أننا مازلنا نعيش فى عصر المعاجم الفردية ، وهو عصر قد
انتهى بالنسبة للمعاجم ، وحل محله عصر « المعاجم الجماعية » بعد
اتساع مجالات اللغة وتعدد استخداماتها العلمية والفنية • إن إخراج
معجم فى القديم كان يعتمد على لغة الشعر والأدب وهى لغة يمكن
للمعجمى أن يدعى معرفته بها ، ولكن إخراج معجم فى الحديث يعتمد
على لغة العلوم والآداب والمعارف المختلفة لا يمكن لباحث واحد أو
مجموعة صغيرة من الباحثين الإلمام بها فضلا عن الإفتاء فيها ، ولم
يعد المعجم الحديث فى حاجة الى لغويين فقط ولكن يجب أن ينضم
اليهم متخصصون ومستشارون فى شتى فروع المعرفة وأمامنا معجم
« وبستر » الأمريكى كنموذج لهذا التحول الكبير • فقد ضم الفريق الذى
قام بالإشراف على طبعته الثالثة : رئيس تحرير ، وثلاثة عشر محررا
مشاركاً ، وستة وستين محررا مساعدا وكلهم من أساتذة الجامعات ،
وحملة الدكتوراه فى التخصصات المختلفة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء
والنبات والحيوان والديانات والآداب والتاريخ والمكتبات والفلسفة

والنظريات السياسية .. الخ • كما ضم مائتى مستشار خارجى وعددا غير محدود من الخبراء يعملون فى تخصصات مختلفة قد لا تخطر لنا على بال مثل معسكرات السموم ، والتسويق ، وصناعة الساعات ورصف الشوارع ، وإنتاج الزجاج ، والطيور المائية ، والحشرات والديدان ... الخ ، مما جعل هذه اللجنة التى أخرجت المعجم أشبه بجامعة حديثة مصغرة •

(د) أن صناعة المعجم دخلت عالميا عصر الحاسبات الآلية ، ونحن مازلنا نستعمل الجمع والتصنيف اليدويين • لقد استخدمت الآلة فى اختزان المادة اللغوية حين يكون حجمها كبيرا ، وما أظن أن لغة أخرى — على وجه الأرض — تنافس لغتنا العربية فى ضخامة مادتها ، وامتداد تاريخها لبضعة عشر قرنا • وقد أمكن عن طريق الآلة حصر المادة بكل دقة ، والتصرف فى ترتيبها بطرق مختلفة ، وضبط الإحالات ، والقيام بالتصنيفات النحوية والصرفية المختلفة وغيرها •

(هـ) وإلى جانب هذه المشكلات فقد تطورت صناعة المعجم عالميا من حيث الترتيب واختيار المداخل ، وكيفية عرض المادة ، وصارت له تقنيات وأسس محددة من حيث الشكل والموضوع • ومع ذلك فمازال معجمنا العربى مشدودا الى الماضى ومازال معجميينا حين يريدون وضع معجم حديث تشدهم تجربة العرب الموهلة فى المقدم ، مما يبعدهم عن الاتجاهات الحديثة فى صناعة المعاجم •

٤ — أهم المحاولات لوضع معجم حديث

بذلت محاولات متعددة للتغلب على مشاكل المعجم العربى ، كما قدم كثيرون صورة للمعجم الحديث فى نظرهم • وهناك محاولات نظرية أو تطبيقية قدمها بعض الأفراد ، كما أن هناك محاولات قامت بها بعض الجامع اللغوية • وسنبداً بمحاولات الأفراد ثم نثنى بمحاولات الجامع اللغوية •

أولاً : محاولات الأفراد

أخذت هذه المحاولات أشكالاً متعددة ربما كان أهمها :

- ١ — وضع منهجية جديدة للمعجم العربى •
- ٢ — تأليف المعاجم الميسرة •
- ٣ — إعادة ترتيب المعاجم القديمة ترتيباً سهلاً •
- ٤ — معاجم المستشرقين •

وسننتاول كل محاولة من هذه المحاولات بالعرض السريع :

١ — أما وضع المنهجية الجديدة للمعجم العربى فقد قام بعبئه أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) الذى شغل نفسه بالعمل المعجمى منذ نعومة أظفاره • ومعظم آرائه عن المنهجية المعجمية تجدها فى مقدمة كتابه « الجاسوس على القاموس » وفى ثنايا نقدهاته للقاموس المحيط • كما أنه أشار الى بعضها فى كتابه « سر الليال فى القلب والإبدال » • ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية :

(١) ترتيب المادة اللغوية :

يختار الشدياق ترتيب المادة اللغوية على الترتيب الهجائى العادى ، ثم يوازن بين طريقتى الصحاح وأساس البلاغة ويختار الثانية « فالأولى عندى ترتيب الأساس للزمخشرى والمصباح المنير للفيومى ، أعنى مراعاة

أوائل الألفاظ دون أواخرها » • ويرد على من يفضل طريقة الصحاح قائلا : « فإن قيل إن الترتيب على الأوائل لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التي تأتي على روى واحد ، فالأولى ترتيب الصحاح — قلت : الخطب هين • فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤولفوا كتابا في القوافي » (١) •

(ب) الترتيب الداخلى للمادة :

أكثر ما ضايق الشدياق في المعاجم العربية غياب النسق في عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة • فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور في ترتيب الكلمات ، وكانت هذه الطريقة تقتضى سرق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد فقد كان من المنطقي أن نتفطن هذه المعاجم الى طريقة لترتيب هذه الفروع وهو ما لم تفعله • وقد سبق أن عرضنا أمثلة لغياب الترتيب الداخلى من مادتي « عرض » و « ظفر » • واقترح الشدياق للخروج من هذه المفوضى منها ما يقوم على أساسين هما :

١ — مراعاة جانب اللفظ بتقسيم الثلاثي على الرباعي والرباعي على الخماسي • وفي كل حالة يقدم المجرد على المزيد ، ويبدأ بالفعل ، تليه مشتقاته •

٢ — مراعاة جانب المعنى عن طريق البدء بالحسي قبل المعنوي ، والحقيقي قبل المجازي ، واستيفاء معاني الكلمة قبل الانتقال الى كلمة أخرى (٢) •

(ج) صحة التعاريف :

يشترط الشدياق لصحة التعاريف شروطا ثلاثة هي :

(١) الجاسوس على القاموس ص ٢٦ ، ٢٧ •
(٢) الجاسوس ص ١٠ ، ١١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، وسير الليل ص ١١ ،

١ — وضوحها وعدم إيقاعها في لبس • وقد عد من عدم الوضوح غموض عبارة المشرح ، ولذات قسا على الفيروزابادی في مقدمة جاسوسه لأنه يبذل عبارة المعاجم الواضحة الى عبارة غامضة مبهمة • كما عد منه إيراد ألفاظ في التعاريف لا ترد في مظانها مع توقف المعنى عليها ، كقول الجوهرى في « ربح » : « ربح في تجارته أى استشف » ولم يذكر استشف في بابها • وعد منه كذلك ذكر اللفظ دون تفسيره ، كقول الفيروزابادی في « صيف » : « صيفت الأرض كعنى فهى مصيوفة ومصيوقة • قال التدياق : ولم يفسره • وعبارة الصحاح : « صيفت الأرض فهى مصيوفة ومصيوقة اذا أصابها مطر الصيف (١) » .

٢ — تعدد طرقها عن طريق ذكر المرادف والمضاد ، ووضع الكلمة في سياقاتها المختلفة ، ومن أمثلة ذلك ذكره كلمات الألوان التى تأتى وصفا للفظ الموت مثل :

الموت الأحمر : وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا في عينيه حمراء وسوداء •

الموت الأغبر : وهو الموت جوعا ، لأنه يغبر في عينيه كل شيء •

الموت الأسود : وهو الموت في غمة الماء •

الموت الأبيض : وهو موت العافية أو موت الفجأة لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه (٢) •

٣ — خلوها من الدور والتسلسل • وقد سبق أن خرينا أمثلة على ذلك من ديوان الأدب والقاموس المحيط •

(١) الجاسوس ص ٣ ، ١٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، وسر الليل ص ٥٥ ، ٢٦٠ •

(٢) سر الليل ص ٣٣٧ •

(د) الوقوف عند اختصاص المعجم :

يرى الشدياق أن على المعجمى أن يقتصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم ما يأتى :

١ — ذكر المعلومات الموسوعية كخواص الأشياء ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص مع أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة • وكذلك المعلومات الجغرافية والأعلام ••

٢ — ذكر المشتقات القياسية كإيراد المبنى للمجهول بعد المبنى للمعلوم مع أنه من المعروف أنه حيثما وجد المعلم المتعدى وجد المجهول • وكذلك ذكر مصدر غير الثلاثى ، والنص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان ••

٣ — ذكر ما هو من باب الفضول أو الاستطراد الذى لا فائدة فيه • وقد أخذ الشدياق معظم أمثلته من القاموس المحيط الذى بلغ الغاية فى ذلك حتى تجاوز كل حد • ومن ذلك ذكره ما كان من قبيل الخرافات مثل خرافة الريح والجزائر الخالدات وذكره أسماء أصحاب الكهف ، وحديثه عن النسطورية والبطريق والإسكندر وغيرهم (١) •

(هـ) وضع اللفظ المشتبه أصله فى مظانه المختلفة :

هناك كلمات كثيرة فى اللغة العربية يشتبه أصلها ومعرفه جذرها على اللغوى المتخصص فضلا عن ابن اللغة العادى • وقد كان هذا النوع من الكلمات محل خلاف بين المعجميين ، ولذا اختلفت مواضعه فى المعاجم •

وكان رأى الشدياق وضع أمثال هذه الكلمات حسب احتمالاتها

(١) الجاسوس ٣٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤١ ، ٣١٧ و ٣٩٦ — ٤٠٣ وسر

الليال ص ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٠٧ •

الممكنة في مظاهرها المختلفة مع الربط بين هذه المظاهر • ومن أمثلة ما رأى وضعه في أكثر من موضع الكلمات الآتية :

- * كلمة « أثفية » التي توضع في « أثف » و « ثفى » •
- * كلمة « مكان » التي توضع في « مكن » و « كون » •
- * كلمة « ترجمان » التي توضع في « ترجم » و « رجم » •
- * كلمة « كبريت » التي توضع في « كبرت » و « كبر » •
- * كلمة « عفريت » التي توضع في « عفرت » و « عفر » (١) •

(وانظر كذلك كلمات : أول — است — أنق — ذرية — بذى —
دكان — بستان — ربان — اللات — هات — لدة — حاش (لله)
وغیرها) (٢) •

ويحدد الشدياق أصولا معينة يكثر الخلط فيها ، وهى المشتملة على
علة يصعب ردها الى الراو أو الياء (انظر أبى ، وذرى ، ودوح ، ورناء ،
وشكا) أو المشتملة على همزة أو نون « فمزلة الهمة أن بعضهم يراها
أصلية وبعضهم يراها منقلبة عن حرف علة • وهزلة النون أطم وأعم
فإنها تلتبس في أوائل الألفاظ وأواسطها وأواخرها مثال الأول لفظ
نرجس ، ومثال الثانى العنصر ومثال الثالث الرمان والدكان والبرهان ••
وما لا يحصى من نظائرها » (٣) •

(و) وضع المعرب تحت لفظه :

يرى الشدياق ضرورة وضع الكلمات المعربة تحت لفظها على اعتبار
أن حروفها كلها أصلية • ولذا فهو ينتقد الفيروزابادى في وضعه كلمة
« استبرق » في « برق » ، و « أرجوان » في « رجو » • ويذكر الشدياق

(١) الجاسوس ص ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ •

(٢) الجاسوس ص ٣٧٢ وما بعدها •

(٣) الجاسوس ٣٣ ، ٣٨ ، ٢٨٦ ، ٣٧٢ •

أن حكم « سألته ونيها » لا يجرى على الألفاظ الأعجمية لأن حروفها كلها أصلية (١) .

(ز) بيان درجة اللفظ في الاستعمال :

يرى الشدياق أن من وظيفة المعجم النص على درجة اللفظ في الاستعمال فيقول : « من عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على التفصيح من الكلام ، وعلى غير الفصيح ، وعلى الغريب ، والحوشى ، والمتروك ، والمهمل ، والمذموم واللثغة .. ونحو ذلك » . لذا عاب على صاحب القاموس إيراده الألفاظ إيرادا مطلقا من دون أن ينبه على درجتها (٢) .

٢ — وأما محاولة تأليف المعاجم الميسرة فقد قام بعبئها أول الأمر اللبنانيين . وقد كان للنهضة المباركة التي هزت العالم العربى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأدت الى انتشار المعاجم المطبوعة بين الناس (٣) ، وقيام بعض العلماء بنقدها (٤) ، أو الموازنة بينها ، والدعوة الى تأليف معجم حديث — كان لكل أولئك أثر حميد فى إيتاظ حمية بعض العلماء فتصدى نفر منهم لتحمل عبء وضع معجم حديث سهل .

(١) الجاسوس ص ٢٧ — ٣٠ .

(٢) الجاسوس ١٣٠ . — ١٣٥ .

(٣) انظر عدنان الخطيب ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ وقد ذكر فى ص ٤٥ ، ٤٦ ان اول طبعة لصحاح الجوهرى ظهرت عام ١٨٦٥ م ، ولكتاب الرازى مختار الصحاح عام ١٨٧٠ م ، ولكتاب الفيروزابادى القاموس المحيط عام ١٨٧٢ ، ولكتاب الفيومى المصباح عام ١٨٧٦ م ولكتاب ابن منظور لسان العرب ، وكتاب الزمخشري أساس البلاغة عام ١٨٨٢ م ، ولكتاب الزبيدى تاج العروس عام ١٨٨٩ م ، وبعد محاولة استمرت ما يقرب من عشرين سنة .

(٤) قبل مرور عشر سنوات على طبع القاموس المحيط مثلا أخرج أحمد فارس الشدياق كتابه الجاسوس على القاموس وذلك عام ١٨٨١ م .

ويلاحظ أن جميع الذين تصدوا لإخراج هذه المعاجم قد اختاروا الترتيب الهجائي العادى بحسب أوائل الكلمات ، ولكن رأى بعضهم — وهم قلة — أن يبقوا على الكلمات بدون تجريد • ويلاحظ كذلك أن دال هؤلاء جميعا قد اتجهوا نحو الاختصار والتركيز ، وحاولوا ترتيب المادة ترتيبا داخليا وتجنبوا عيوب المعاجم القديمة • ومنهم من زود معجمه بصور ورسوم زيادة فى الإيضاح • ومن أشهر هذه المعاجم :

(أ) « محيط المحيط » للعالم اللغوى بطرس البستاني ، وهو يعتمد أساسا على القاموس المحيط ، ولكن مع حذف وإضافة ، ومع تغيير نظامه الى الترتيب الهجائي العادى • وقد ظهر فى جزئين كبيرين وطبع عام ١٨٦٩ م •

(ب) « قطر المحيط » للمؤلف السابق • وقد ذكر أن هدفه من تأليفه « أن نضع فيها هذا المؤلف على وجه هين المراس سهل المأخذ ليكون للطالبة مصباحا يكشف لهم عما أشكل عليهم من مفردات اللغة ... » وقد سميناه بقطر المحيط ، لأن نسبته الى كتابنا المطول فى هذه الصناعة المسمى بمحيط المحيط توشك أن تكون كنسبة قطر الدائرة الى محيطها ... »

(ج) « أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد » لسعيد الخورى الشرتونى وقد أخرجه أول الأمر فى جزئين عام ١٨٩٠ م ، ثم أضاف إليه فيما بعد جزءا ثالثا بمثابة الذيل • وبرغم الجهود التى بذلها الشرتونى ليكون معجمه سليما من الأخطاء خاليا من العيوب لم يتحقق الكمال له • وقد أحصى الشيخ أحمد رضا هناته التى عثر عليها ونشرها فى ثلاثمائة صفحة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق •

(د) وفى عام ١٩٠٨ أخرج الأب لويس معلوف اليسوعى (توفى ١٩٤٦ م) كتابه « المنجد » بقصد خدمة الناشئين • ولذا جاءت مادة الكتاب قريية المأخذ ، سهلة التناول ، مع إيجاز غير مخل • وأعيد طبع المعجم عدة مرات مع زيادات واستدراكات فى دال مرة •

ومع ذلك لم يسلم المعجم من المأخذ فتصدى بعض الغيورين على العربية الى بيان أوهامه وأخطائه اللغوية والتاريخية * ومما نشر في ذلك مقالات لمخير العمارة في مجلة المعرفة الدمشقية ، وبحث بعنوان نظرة في المنجد للأثير مصطفى الشهابي *

وفي طبعة عام ١٩٥٦ ألحق به الأب فردينان توتل اليسوعي قسما بعنوان « المنجد في الأدب والعلوم » عني فيه بالترجمة للأعلام الشرق والغرب وزينه بكثير من الصور والرسوم والخرائط (١) *

(هـ) « البستان » ، « وفاكهة البستان » وكلاهما لعبد الله البستاني ، وثانيهما اختصار لأولهما * وقد ظهر الأول في مجلدين وطبع في بيروت عام ١٩٣٠ م *

(و) وفي سنة ١٩٥٨ طبع « متن اللغة » للشيخ أحمد رضا في خمسة أجزاء كبيرة ومقدمة طويلة بحث فيها عن مراد اللغة وتطور اللغات إجمالاً ، وعن نشأة اللغة العربية وتطورها واختلاف لهجاتها ، وعن أوهام الأعلام وأغلاط أئمة اللغة * وألحق بمقدمة معجمه جداول متعددة للموازين والمقاييس والمكاييل والكلمات العربية حديثاً (٢) *

(ز) الرائد لجبران مسعود ، وقد صدرت أول طبعة منه عام ١٩٦٥ م * وأهم ما يتميز به ترتيب الكلمات تحت حروفها المنطوقة بدون تفريق بين أصلى وزائد * وقد وضعه المؤلف وفي ذهنه خدمة الطلاب ، فهو أشبه بمعجم مدرسى منه بمرجع لغوي يمكن الاعتماد عليه والإشارة إليه في المصادر *

(ح) « المساعد » للأب انستاس ماري الكرمل ، وقد ظهر الجزء

(١) عدنان الخطيب ، ص ٥٢ ، وعبد السميع محمد : المعاجم العربية ص ١٧٩ - ١٨٥ بالاضافة الى معجم المنجد نفسه .
(٢) عدنان الخطيب ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

الأول منه بعد وفاة مؤلفه برقع قرن بتحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي (١٩٧٢) •

ويعد الكرملى أحد اللغويين المعاصرين القلائل الذين نافحوا عن اللغة العربية وبذلوا قصارى جهدهم في إظهار فضلها ، وله في ذلك ما يزيد على ألف مقالة • وقد بدأ عمله في معجمه عام ١٨٨٣ وظل يواصل العمل فيه حتى عام ١٩٤٦ • وقد سماه أولا « ذيل لسان العرب » ثم عدل عن هذه التسمية وسماه « المساعد » •

ومما ذكره الكرملى في مقدمة المعجم نعلم أن الذى دفعه الى تأليفه ما لاحظته من خلل معاجم الأقدمين والمؤلفين العصريين من كثير من الألفاظ الواردة في دواوين الشعراء وكتب الأدب « فأخذنا منذ ذلك الحين بسد تلك الثغرة مدونين ما لا نجده في كتب لساننا » •
وقد بنى معجمه على جملة أسس منها :

١ — ذكر مصدر الكلمة إن كانت دخيلة ، وأصلها اثنائى إن كانت عربية •

٢ — اذا أثبت لفظة لم ترد في المعاجم أرفقها بمحل ورودها •

٣ — التنبيه الى الأغلاط التى انسلت الى لغتنا •

وقد توفي المؤلف بعد أن ترك المعجم مسودة مخطوطة بخطه في خمسة مجلدات ضخام •

ومن الجديد في هذا المعجم :

١ — تفسيره « الآبدة » في اصطلاح عهد العباسيين بالذاهية التى تفسد الدين أو المعتقد • واستشهاده على هذا بما جاء في « نهاية الأرب » للنويرى و « صبح الأعشى » للقلقشندي •

٢ — تصحيح استعمال « أبدا » مع الفعل الماضى بدلا من « قط »
استشهادا بقول أبى الهندي :

أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشملة لما حرمتها أبدا
وليس أدل على ضخامة هذا المعجم من أن الجزء الأول منه قد
انتهى بجزء من حرف الهمزة فقط .

٣ — وأما إعادة ترتيب المعاجم القديمة أو اختصارها فيدخل تحتها :

(أ) « ترتيب القاموس المحيط » للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ،
وقد رتبته على ترتيب المصباح المنير وأساس البلاغة ، وأخرجه في أجزاء .
وقد التزم فيه ترتيب الكلمات تحت أوائلها بدون تجريدها من الزوائد .
يقول المؤلف في مقدمته : « وقد ظهر لي أن القاموس يكثر فائدة
لطلاب العلم ، ويكون إقبالهم عليه أشد إذا أزيلت عنه هذه الصوبة ،
وقدم إليهم في ثوب جديد بحيث يرتب على حروف أوائل الكلمات ...
واعتبار حروف الكلمة المنطوق بها ، لا فرق بين زائد وأصلى . وبذلك
يسهل عليهم الوصول إلى ما قصدوا » (١) .

(ب) « مختار القاموس » للشيخ الزاوي كذلك . وقد رتبته على
طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير ، وقال عن هدفه فيه : « وقد
جعلت نصب عيني أن أختصر من أجزاء القاموس الأربعة جزءا واحدا
يسهل على الطالب استصحابه إلى المدرسة أو الجامعة أو حيث يريد » .
وقال عن منهجه : « وقد الجأتني ضرورة الاختصار إلى الاستغناء عن
ذكر كثير من المواد التي لم يألّفها المجتمع العام ولا تدعو الحاجة إلى
استعمالها . كما حذف أسماء الأشخاص والبلدان والأماكن والحيوانات
وصفاتها .. وحذفت أسماء النباتات — إلا في القليل النادر —
وخصائصها .. » (٢) .

(١) مقدمة ترتيب القاموس صفحة « د » . وقد سبق الحديث عن
إعادة ترتيب لسان العرب .

(٢) مقدمة مختار القاموس ، ص ٦٠ .

(ج) « المختار من صحاح اللغة » تأليف الأستاذين محمد محيي الدين عبد الحميد ، ومحمد عبد اللطيف السبكي • وندع المؤلفين يشرحان مهمتهما ، وما يتميز به معجمهما :

١ — « يشتمل كتابنا هذا إذن على جميع المواد التي يشتمل عليها كتاب مختار الصحاح الذي ألفه الإمام الرازي ولم نحذف منه شيئاً كما فعل الذين قاموا على ترتيبه من رجال وزارة المعارف المصرية » •

٢ — « ضبطنا مفرداته ضبطاً لا يبقى معه تردد لقارئ ولا مجال للبس على مبتدئ » •

٣ — « يشتمل على زيادة كثيرة هامة تبلغ مقدار نصف المختار » •

٤ — « رأينا أن نرتبه ترتيب الزمخشري في الأساس والفيومي في المصباح ، لأنه أقرب الى النائئة وأسهل عليهم » (١) •

(د) « الإفصاح في فقه اللغة » للأستاذين حسن يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي • وهو المعجم الوحيد من بين المعاجم الحديثة الذي اتبع نظام الموضوعات في ترتيبه • ولا غرابة في هذا فهو مبني على كتاب « المخصص » لابن سيده ، ويعد في جملة اختصارا له • وقد ذكر الأستاذ العقاد في تقديم هذا الكتاب أن « الإفصاح سيرحب به المحافظون لأنه تراث قديم يضمن عليه بأن يهجر في زوايا النسيان ، وسيرحب به المجددون لأنه يختصر لهم طريق التنقيب عن المفردات ، وسيرحب به كل مشغل بالترجمة في علم أو أدب أو صناعة » •

أما المؤلفان فقد ذكرا السبب في تأليف هذا المعجم ، كما بينا جهدهما في تأليفه ، ويتلخص هذا وذاك فيما يأتي :

١ — من عيوب المخصص طوله واتساعه وكثرة شواهد المنظرمة والمنثرة واستطراداته النحوية والصرفية ، مما جعله وقفا على الخواص ، ولذلك قاما باختصاره •

٢ — المعجم محبوب بحسب ما فى الكون كله من آثار فى الأرض ، وآيات فى السماء وبكل ما تحمل الدنيا ويذب فيها من إنسان أو حيوان أو طير أو نبات ، وما تحفل به بطنها من معدن ، أو ينتأ فوقها من صخر وكل ما يعمل به الناس من صناعة أو زراعة أو تجارة أو فنون (١) •

٣ — قرأ المؤلفان القاموس المحيط وفقه اللغة للثعالبي واللسان والأساس وغيرها واستخلصا منها ما ند عن المخصص مما تمس الحاجة إليه •

٤ — التحلية بالصور الحيران والنبات والشجر والطيور والسمك والحشرات والأدوات •

٥ — ألحق المؤلفان بالكتاب معجما للألفاظ مرتبا ترتيبا هجائيا على الحروف ليسهل الرجوع الى مادته (٢) •
ونلاحظ على عمل المؤلفين ما يأتى :

١ — أنهما لم يفصلا بين ما هو من كلام ابن سيده وما هو من إضافتهما ، ولم يذكر المرجع مع كل إضافة • ولو فعلا لأمكن توثيق المسادة المضافة ، ولتبين مقدار ما أخذاه من كتب اللغة الأخرى •

٢ — برغم أن الكتاب يقع فى جزءين ضخمين مجموع صفحاتهما

(١) وقد قسم المؤلفان مادته الى ثلاثة وعشرين بابا بدأت بباب خلق الانسان وانتهت بباب فى الخلق والعالم وأصناف الاشياء وأحوالها •
(٢) وانظر مقدمة العقاد ، ومقدمة الطبعة الاولى والطبعة الثانية للمؤلفين •

١٣٩٦ صفحة فلم أجد في الجزء الأول كله ويقع في ٦٦٤ صفحة إلا بضعا وعشرين صورة • ومعنى هذا أن ما ذكره المؤلفان عن التحلية بالعمسور مبالغ فيه جدا بل يكاد يكون عديم القيمة •

٤ — أما معاجم المستشرقين فمن أشهرها :

(أ) محاولة فيشر المعجمية : وقد كان فيشر أحد كبار المستشرقين الألمان ، وحجة في اللغات الشرقية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية وفارسية وغيرها • وقد شغل كرسى الدراسات العربية بلييزج منذ عام ١٨٩٩ (١) •

وقد عنى فيشر بالمعجم العربى منذ أخريات القرن الماضى وعاش معه نحو خمسين سنة • ويظهر أن محاولته عمل معجم تاريخى للغة العربية قد تأثر فيها بمعجم أكسفورد التاريخى الذى نشر قبل مولده بقليل • ولقد قضى نحو أربعين سنة فى جمع مادته وتنسيقها ، وحين عرضها على مجمع اللغة العربية فى مصر رحب بالفكرة ، وقد قررت الحكومة المصرية عام ١٩٣٦ السماح بإتمام عمله المعجمى فى القاهرة ، ووعدته بأن تتحمل نفقات طبعه ، وأمدته بمساعدين شسبان لمعاونته فى القراءة والنسخ • ولكن الحرب العالمية الثانية قد اندلعت واضطر فيشر الى العودة الى وطنه • وتوزعت مواد معجمه بين مصر وألمانيا • وكان الأمل أن يعود فيشر بعد الحرب الى مصر ليتم ما بدأ إلا أن المرض أقعده ثم عاجلته المنية ، وتوفى عام ١٩٤٩ (٢) •

وقد حدثنا فيشر أنه عرض فكرة تأليف هذا المعجم أولا فى مؤتمر المستشرقين الألمان فى باسل Basel عام ١٩٠٧ ، ثم فى مؤتمرات آخرين

(١) الجمعيون ، ص ١٤٥ •

(٢) مقدمة مذكور لمعجم فيشر صفحة « ه » ، ومقدمة فيشر ص ٢١ ،

والجمعيون ، ص ١٤٥ •

عالميين أحدهما عقد في كوبنهاجن سنة ١٩٠٨ والآخر في أثينا عام ١٩١٢ .
كما حدثنا عن الصعوبات المادية الكثيرة التي كانت تواجهه فتوقفه عن
العمل أو تصحيحه بالفتور ، وعن عدم وجود ناشر ينفق على طبعه (١) .

وحاول المجمع أن يلم ما تفرق من جذافات فيشر فلم يستطع الحصول
على ما نقل منها الى ألمانيا ، ولاحظ أن ما بقى منها غير مكتمل ، ولم
يجد ما يصلح للنشر منها سوى مقدمة أعدها المؤلف ، ونموذج من حرف
الهزة فطبعهما المجمع .

وقد شرح فيشر في مقدمته النقص الظاهر في المعجمات العربية
السابقة الذى يرجى لأجله تأليف معجم جديد كبير ، ورآه يتركز في أن
« المعجمات التى صنفها العرب لم تجمع كل كلمات اللغة العربية بل
جمعت الفصيح منها فقط » ثم ذكر أن « منتهى الكمال لمعجم عصرى
أن يكون معجما تاريخيا ، ويجب أن يحتوى المعجم التاريخى على كل
كلمة تدولت في اللغة . فإن جميع الكلمات المتداولة في لغة ما لها حقوق
متساوية فيها . . ولكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظر
هذه ، إذ إنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة » . واعتبر كذلك
من عيوب المعاجم القديمة إغفالها كثيرا من الآداب النثرية مثل « قصص
البطولة لأيام العرب وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب المغازى للواقدي ،
وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبرى وغيرها من كتب الأدب القديمة .
وقد حوى هذا الأدب المنثور كلمات وتراكيب كثيرة لا أثر لها في القرآن
الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر القديم ، وهو من بعض النواحي
يقدم لنا صورة من اللغة العربية القديمة أحسن مما يقدمه الشعر » .

أما المنهج الذى رسمه فيشر لمعجمه فيتلخص فيما يأتى :

١ — الرجوع الى الواقع اللغوى المسجل ، والمحدد بعصور معينة

مع البدء بالكتابة المنقوشة المعروفة بنقوش النمارة من القرن الرابع الميلادي والانتفاء بنهاية القرن الثالث الجري ، وهو القرن الذي اعتبره المجمع اللغوي منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية . لفصحى من كمال •

٢ — اشتمال المعجم على دل كلمة — بلا استثناء — وجدت في اللغة •

٣ — ضرورة معالجة المثلثات من النواحي السبع التالية : التاريخية ، والاشتقاقية ^(١) ، والتصريفية ^(٢) ، والتعبيرية ^(٣) ، والنحوية ، والبيانية ، والأسلوبية ^(٤) •

وأهمية تناول التاريخي تبدو من أن اللغة دائمة التطور ، ولكل كلمة تطورها التاريخي الخاص • ولهذا يجب أن يوضح هذا التطور التاريخي بمقتضى ما لدينا من وسائل وإن كانت وسائل فاصرة •

والأهمية العظمى يجب أن تعطى للموضوع الذي وردت فيه الكلمة لأول مرة في آداب اللغة • وكما يجب أن يعنى ببداية تطور الكلمة يجب أن يعنى بآخر تطورها ، وهل لاقت موتا في الزمن القديم أو الحديث ، أو اندثر معنى من معانيها •••

٤ — مراعاة ترتيب المعاني المتعددة للآلة بتقديم المعنى العام على الخاص والحسى على العقلى والحقيقى على المجازى ونحو ذلك •

٥ — تحديد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو

(١) وتناول توليد الكلمات وبحث أصول الكلمات وانسابها •

(٢) وتناول تصريف الأفعال والأسماء •

(٣) وتناول تحقيق معنى الكلمة أو معانيها مع ترتيب المعاني والتفريق بين الحقيقي والمجازى منها •

(٤) وتحديد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو

التركيب •

التركيب ، كلغة القرآن ولغة الحديث وأسلوب الشعر والنثر ، والأسلوب التاريخي وأسلوب الفنون وغيرها .

٦ — محاولة إتباع الشرح باللغة العربية بالترجمة المختصرة الإنجليزية أو الفرنسية زيادة في الإيضاح ، وحتى تعين المستشرقين الذين لم يتمكنوا من اللغة العربية غاية التمكن .

ولكن اذا رجعنا الى النموذج الذى طبعه مجمع اللغة العربية نلاحظ أن المؤلف لم يلتزم أن يطبق في هذا النموذج المنهج التاريخي الذى ادعاه ولا التسلسل الزمني لتطور الكلمة ، سواء من ناحية النطق أو الدلالة ، وإنما كل ما يزيده على المعاجم الأخرى (القديمة منها لا الحديثة) ترتيب مادة الكلمة ترتيبا داخليا ، وذكر المصادر التى تعرضت لعلاج هذه الكلمة . نعم ذكر فيشر عند علاجه لكلمة الأوباد أنها وردت بمعنى المضحكات في كشف الزمخشري من علماء القرن السادس الهجري (١) . ولكن هل الزمخشري حقا أول من استعملها ؟ وإذا كان كذلك ، أفلا يتناقض هذا مع ما سبق ذكره من الوقوف عند القرن الثالث ؟ كذلك يرد في أول المادة مقارنة الكلمة بنظائرها الساميات كالأثيوبية والأكدية والعبرية والآرامية ، وهو جهد قيم يسجل للمؤلف بالتقدير .

(ب) معجم لين : أما اسم المؤلف فهو إدوارد ولیم لين ، وقد ولد عام ١٨٠١ وتوفي عام ١٨٧٦ م . وأما الاسم الذى اختاره لمعجمه فهو « مد القاموس » وهو معجم عربى إنجليزى ضخم في ثمانية أجزاء ، نشر خمسة منها في حياة المؤلف وثلاثة بعد مماته . وهو ليس كسائر المعاجم المزدوجة اللغة تعطى الكلمة ومعناها ، وإنما هو أشبه بمعجم عربى مرفقة به ترجمة لمادته باللغة الإنجليزية .

ويقول الأستاذ نجيب العقيلي عن هذا المعجم : « ومد القاموس

(١) وانظر : درويش : المعاجم العربية ، ص ١٤٦ .

جمع لأول مرة في تاريخ اللغة العربية المفردات من أهيات كتب الأدب ، مما لم يرد في المعاجم القديمة أو معجمى جوليوس وفرايتاج ، ومنتخبات من القرآن الكريم ، بحيث أصبح قاعدة بنيت عليها معظم المعاجم العربية الأحدث عهدا باللغات الأوروبية ، وهزال من أجود المعاجم المتداولة « (١)

ويقول الأستاذ آربرى (الرئيس السابق لقسم الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج) : « إن هذا المعجم يعد أدنى خدمة قدمها أربى اللغة العربية » (٢) • ووصف فيشر المؤلف بقوله : « لين أعلم المستشرقين بالمعجمات العربية » (٣) •

أما عن مصادر لين فكانت المعجمات العربية التى ألفها العرب سواء المطبوعة منها والمخطوطة دما اتفق له الحصول عليها ، واعتمد أكثر ما اعتمد منها على تاج العروس للزبيدي (٤) •

وأهم نقص فى هذا المعجم أن مؤلفه مات قبل أن يتمه ، إذ لم يصل فيه إلا الى حرف القاف • وقد طرح فى اجتماع دولى للمستشرقين أمر إكماله واعتبر ذلك أمراً ذا أهمية خاصة ، حتى إن كريم (توفى عام ١٩٦١) بدأ معجمه العربى — الألمانى — الإنجليزى من حرف القاف من أجل ذلك ، وظهر فى أربعة أجزاء (٥) •

ولكن يكفى لتصوير جهد المؤلف فى هذا المعجم أن نعلم أنه قصد مصر خصيصاً من أجله ، وكان يعمل فيه بين اثنتى عشرة ساعة وأربع عشرة ساعة يومياً ، وأفرغ الخمس والعشرين سنة الأخيرة من حياته فى

(١) ٤٨١/٢ •

(٢) الأعلام مادة ادوارد ولیم لین •

(٣) المعجم التاريخى ص ١٨ •

(٤) المرج ص ١٩ ودائرة المعارف البريطانية مادة « Lane » (٦)

(٥) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « Lane » • والمستشرقون

للعتيقى ٧٨٧/٢ •

إنجازه • وقد كان لين الى جانب ذلك ممن يتقنون اللغة العربية كتابة وخطابة ، وقصد مصر أكثر من مرة ، وأعلن إسلامه ، وتسمى باسم منصور أفندي ، وتردد على الأزهر وسائر المساجد للصلاة وطلب العلم ^(١) •

(ج) معجم دوزى أو تكملة المعاجم العربية : وهذا المعجم فى الحقيقة يعد ذىلاً على المعاجم العربية ، ذكر فيه ما لم يجد له ذكراً فيها • وقد طبع المعجم فى مجلدين ضخمين بالعربية والفرنسية (ليدن ١٨٧٧ — ١٨٨١ م) وليدن — باريس ١٩٢٧ ، ثم أعادت مكتبة لبنان طبعه مصوراً بالأوفست فى بيروت (١٩٦٨) • وأخيراً قام بترجمة قسم كبير منه الدكتور النعيمي •

ودوزى هو اسم الأسرة أما الاسم الشخصى فهو رينهارت ، وقد تعلم مبادئ العربية فى منزله ، فقد كان من أسرة تحب الاستشراق ثم واصل دراستها بعد بجامعة ليدن ، وتعمق فى فهمها ، ودرس الشعر الجاهلى • وبرغم أن دوزى عاش فى هولندا فأصله فرنسى هاجر أسلافه من فرنسا الى هولندا فى منتصف القرن السابع عشر • وقد كان مولده عام ١٨٢٠ م ووفاته عام ١٨٨٣ م • وقد تولى إدارة مخطوطات مكتبة ليدن الشرقية ووضع فهرسين لها ، كما عين أستاذاً للعربية بجامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٧٨) وكان عضواً فى عديد من الجامعات العلمية ^(٢) •

(١) العقيقى ٤٨٠/٢ •

(٢) المرجع السابق ٦٥٨/٢ — ٦٦٠ ، الاعلام ، مادة رينهارت دوزى ، وفيشر ص ٦ • وانظر ترجمة وافية له فى مقدمة الترجمة للدكتور محمد سليم النعيمي •

(م ٢٠١ — البحث اللغوى)

ثانياً : محاولات المجامع اللغوية

انتوت كثير من المجامع اللغوية إخراج أنواع مختلفة من المعاجم تخدم أغراضاً خاصة ، وقد تحقق بعضها وظهر فعلاً ، ولكن بعضاً آخر منها ما يزال فكرة أو مشروعاً لم يخرج الى حيز الوجود . وأهم هذه المجامع : مجمع اللغة العربية في مصر ، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية ، والذي يتخذ المغرب مقراً له ، والمجمع العلمي العربي بدمشق ^(١) ، وأخيراً مجمع اللغة العربية بالأردن .

أما مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقد نص في مرسومه على أن من أهم أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية وكون في دورته الأولى « لجنة المعجم » من كبار اللغويين العرب والمستعربين . كذلك جاء في قانون إنشاء مجمع العربية (افتتح عام ١٩٣٤) أن من أهدافه وضع معجمات ثلاثة :

١ — معجم وجيز يقتصر على الألفاظ الكثيرة الدوران بمقتدار ما يناسب الدراسات الأولى .

٢ — معجم وسيط يتوسع فيه ، مع الاقتصار على الألفاظ المستعملة في فصيح الكلام تأليفاً وإنشاء بمقدار ما يناسب الدراسات الوسطى .

٣ — معجم بسيط يكون ديواناً عاماً للغة ، جامعاً شواردها وغريبها ، مبيناً أطوار كلماتها وما طرأ على بعضها من توسع في الاستعمال ، أو تغير في المعنى في عصور اللغة المختلفة .

كذلك جاء في هذا القانون أن من أهدافه وضع معجمات صغيرة لمصطلحات العلوم والفنون وغيرها .

(١) تغير اسمه الآن الى مجمع اللغة العربية بدمشق .

ولم ينفذ المجمع بعد كل مشروعاته وإنما نفذ منها ما يأتى :

١ — المعجم الوسيط : وقد طبع ثلاث طبعات حتى الآن ظهرت أولها عام ١٩٦١ فى جزئين كبيرين يحتويان على نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير ، ويشتمل على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة وستمائة صورة • وظهرت طبعته الأخيرة عام ١٩٨٥ . •

وقد كان الغرض من تأليفه تدارك أخطاء السابقين فى تأليفهم ، وقصورهم فى الشرح والترتيب • فقد كان مما يعيب المعاجم القديمة — على غزارة مادتها وتنوع أساليبها — أنها لم تعد تواجه العصر ولا مقتضياته ، لأن فى شروحها غموضاً ، وفى بعض تعاريفها خطأ ، وفى تبريئها لبساً • وقد وقف أصحاب المعاجم الى جانب ذلك عند حدود زمنية ضيقة ففقدت معاجمهم كثيراً من معالم الحياة والتطور • كذلك من شروط المعجم الحديث أن يكون سهل المأخذ واضحاً دقيقاً مصوراً ما أمكن ، محكم التبويب • وهذا ما حاول المجمع تطبيقه بالفعل • ويمتاز هذا المعجم بترتيبه الهجائى العادى على حسب الأصول • كما يمتاز باشماله على مصطلحات العلوم والفنون ، وضمه كثيراً من ألفاظ الحياة العامة ، واحتوائه على عديد من الألفاظ المولدة والمعربة حديثاً • كما راعى المعجم قرارات المجمع المختلفة فى دوراته مثل قياسية صوغ المصدر الصناعى ، وقياسية تعدية الفعل الثلاثى بالهمزة ، وقياسية صوغ مطاوع فعل على تفعل وهكذا (١) • وفى سبيل الترتيب الداخلى روعى فى ترتيب الكلمات تقديم الأفعال على الأسماء • والمجرد على المزيد ، والمعنى الحسى على العقلى ، والحقيقى على المجازى ، والفعل اللازم على المتعدى • • وهكذا •

(١) من الكلمات التى أقرها المجمع اللغوى ووردت فى الوسيط : كلمة قيم ومصدرها التقويم ، وكلمة فنان للشاعر والأديب والرسام • وكلمة قاموس بمعنى معجم • وهناك كلمات كثيرة ورد بعدها الرمز (مج) وهو يعنى أنها كلمات مجمعية أقرها مجمع اللغة العربية •

وقد اكتشف المجمع بعض هنات في معجمه تداركها في طبعتيه الثانية والثالثة .

٢ — المعجم الكبير : ظهر منه جزءان فقط ، يشمل الأول منهما قسماً من حرف الهمزة . وقد ظهر الأول مرة عام ١٩٥٦ . وهو يسير على الترتيب الهجائي العادي بعد تجريد الكلمة من الزوائد . ويدل على الحجم الذي ينتظر أن يظهر فيه المعجم ذلك الجزء الذي يقع في نحو ٤٢٨ صفحة (عدا الفهارس التي تقع في ٩٠ صفحة والمقدمة التي تقع في ٨ صفحات) ، ولم يصل إلا الى مادة « أخى » من حرف الهمزة .

وقد التزم المعجم ما يأتي :

١ — تصدير كل مادة بمعانيها الرئيسية إجمالاً ثم يتناول كلا منها تفصيلاً .

٢ — ذكر أصل المادة أو أصولها في الساميات إن وجد ذلك .

٣ — رد الكلمات المأخوذة من لغات أجنبية الى أصولها .

٤ — ترتيب المادة بحسب المعاني الكبرى ، مع التدرج من المدلولات المادية الى المعنوية .

٥ — الاستشهاد بالشعر والنثر مع اختلاف العصور ، ومع الترتيب الزمني بقدر الإمكان .

٦ — ذكر ما لا بد من ذكره من الأعلام والتعريف بها في إيجاز ، وكذلك أسماء الأمكنة .

٧ — الإشارة الى المرجع حين يكون ذلك مفيداً .

٨ — العناية بالضبط بالشكل (١) .

(١) راجع : مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً ص ١٥٦ ، وعبد السميع ، ص ١٨٧ وما بعدها ، ودرويش ص ١٤٧ وما بعدها ، والجزء الأول من المعجم .

وقد أعيد طبع الجزء الأول مؤخرًا ونشرته دار المعارف بالقاهرة مع بعض تعديلات ، ومحاولة لتدارك أخطاء الطبعة الأولى •

٣ — معجم ألفاظ القرآن الكريم : وقد بدأ المجمع في إخراجه تباعاً منذ عام ١٩٥٣ حيث أصدر الجزء الأول منه ثم في سنة ١٩٥٩ ظهر الجزء الثانى ، وفى سنة ١٩٦١ ظهر الجزء الثالث ووصل الى آخر حرف السين وقد انتهى طبع المعجم عام ١٩٧٠ ، وأعادت دار الشروق طبعه فى مجلد واحد • ويعد المجمع الآن لطبعة جديدة ، وألف لجنة لتعيد النظر فى تنسيق المعجم واستدراك ما فات فى الطبعات الأولى •

وهو مرتب على الترتيب الهجائى العادى ويشرح ألفاظ القرآن شرحاً لغوياً مع بيان المزيد والمجرد والمصدر والمشتقات • وإذا كان للفظ معان مختلفة قدمت الحسية على المعنوية ، ورتبت الأخيرة بحسب أهميتها وكثرة ورودها فى القرآن (١) •

٤ — مصطلحات العلوم والفنون : يقف المجمع نحو ٧٠ ٪ من نشاطه فى جمع المصطلحات ومناقشتها وإقرارها • وقد أخرج قديماً كراسات فى مصطلحات بعض العلوم ومنذ سنة ١٩٤٢ وهو يوالى إخراج مجموعات كبيرة كل عام تضم مصطلحاته التى يقرها المؤتمر السنوى وهى فى حدود الألفين تقريباً (٢) ، وقد ظهرت مجموعات كبيرة من هذه المصطلحات تضم كل مجموعة مصطلحات علم أو فن معين ، كما يحرص المجمع على نشرها فى مجلته الدورية •

٥ — المعجم الوجيز : وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠ ، وهو معجم مدرسى كتب بروح العصر ولغته ويتلاءم مع مراحل التعليم العام • وأضيف فيه الى المادة اللغوية التقليدية ما دعت إليه الضرورة من

(١) مجمع اللغة العربية فى خمسين عاماً ص ١٤٨ وما بعدها مع المعجم نفسه •

(٢) المرجع ، ص ١٢٢ وما بعدها •

الألفاظ المولدة أو المستحدثة أو المعربة أو الدخيلة ، كما أورد طائفة من المصطلحات الشائعة التى يستعملها التلاميذ •

وقد رتب المعجم على حسب أصول الكلمات • ورتبت الأصول على حسب أوائلها • واختارت لجنة الوجيز من مادة الوسيط ما رأت فيه الوفاء بحاجة الطالب • وجاء مجموع ما حواه زهاء خمسة آلاف مادة ، صر منها ما يحتاج توضيحه الى تصوير من نحو نبات أو حيوان أو آلة ، فاشتمل على أكثر من ٦٠٠ صورة •

وراعت اللجنة جملة من القواعد تحقق الاختصار والترتيب الدخلى للمواد ، وظهر فى ٦٨٧ صفحة تحوى كل صفحة ثلاثة أعمدة (١) •

وأما المكتب الدائم لتنسيق التعريب (٢) فلم يوجه اهتمامه للمعاجم الشاملة ، وإنما لمعاجم المصطلحات ، وقام بمهمة التنسيق بين جهود العلماء فى التعريب •

وقد تأسس المكتب عام ١٩٦٩ وألحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٧٢ • ومنذ ذلك الحين وهو يصدر دورية منظمة باسم « اللسان العربى » يخصص من بين أجزائها جزءا لمشاريع المعاجم المنسقة الى جانب ما يطبعه طبوعات مستقلة • وقد نشر المكتب من هذا القبيل عشرات من المعاجم المتخصصة معظمها ثلاثى اللغة (عربى — إنجليزى — فرنسى) تسهيلا لعمل الباحثين وتيسيرا لنشر المصطلحات التقنية والعلمية فى الوطن العربى •

(١) انظر تصدير الدكتور مذكور ومقدمته الأستاذ مصطفى حجازى للمعجم •

(٢) انظر مجلة اللسان العربى (العدد ١٧ ، الجزء الأول) الصفحات ٣٢٤ وما بعدها ففيها تعريف واف بمكتب تنسيق التعريب •

ولدى المكتب مشروعات كثيرة منها :

١ — إعداد معجم للألفاظ المنحدرة من أصل فصيح الى اللهجات العامية في البلاد العربية •

٢ — إعداد معجم أحادي اللغة للتعبير السياقية والاصطلاحية •

٣ — إنشاء بنك مركزي عربى للمصطلحات العلمية والتقنية •

٤ — إعداد معجم الألفاظ الفصيحة التى دخلت عربية العصر الحديث وهى عامية الأصل •

٥ — إعداد معجم للمعانى يجمع الحصيلة اللغوية فى كل علم وفن ، مما يمهده به الكتاب والهيئات بقصد نشرها فى كتاب مستقل على الترتيب الموضوعى ، وقد أوصى مؤتمر التعريب المنعقد بالرباط من ٣ — ٧ أبريل سنة ١٩٦١ بوضع هذا المعجم ليكون عوناً لأبناء العربية على العثور على الألفاظ الدقيقة لما يجول فى أذهانهم من المعانى والصور • وقد عرضت على مؤتمر التعريب الرابع (١٩٨٠) مجموعات من مصطلحات التعليم المهنى والتقنى فأقرها •

٦ — عمل معجم هى يجمع فى صورة مبسطة ومحددة المفردات العربية الجارية فى الاستعمال العربى السليم اليوم ومعانيها الراهنة تختار من الكتب الدراسية والجامعية والمؤلفات العلمية الحديثة وقوائم المصطلحات التى تنشرها المجامع اللغوية ومن الصحف والمجلات السائرة والقصص الجارية •

٧ — عمل معاجم ثنائية اللغة للمصطلحات العلمية والفنية والحضارية والعربية •

وقد أنجز المكتب الدائم كثيراً من هذه المشروعات وبخاصة معاجم المصطلحات التى بدأ فى إنجازها ونشرها مثل معجم الفيزياء والرياضيات

(فرنسى — إنجليزى — عربى) والمعجم السياحى ، (فرنسى — إنجليزى — عربى)^(١) ، وعشرات غيرها •

أما المجمع العلمى العربى بدمشق : فقد اتسعت أهدافه لتشمل مختلف العلوم الحديثة والقديمة ، واتجهت معظم جهوده المعجمية الى وضع المصطلحات العربية لكى تحل محل الألفاظ الأعجمية ، وإصدار قوائم لنقد لغة الصحافة والكتابة والمحادثة وتنقيتها من الشوائب • وله اتصال بالمجامع اللغوية الأخرى لترحييد الجهود ولاسيما فى مجال المصطلحات^(٢) •

(١) انظر مجلة « اللسان العربى » وهى مجلة يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالمغرب وقد ظهر منها أكثر من عشرين مجلدا ، يحتوى على جزعين أو ثلاثة أجزاء •

(٢) راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ٣٢ ، ج ١ ، سنة ١٩٥٧ م • صفحات ٧٢ — ٧٧ •

٥ — قائمة

بـكلمات يصعب معرفة أصلها (※)

ادّخر = ذخّر	ائتلى = ألو — ألى
ادّكر = ذكر	آدم = آدم
أرائك = أرك	آل = أول
أرجاء = رجو	آلاء = ألى
أرجوان = رجو	آية = آيا
ازدهر = زهر	إبليس = بلس
اضطرب = ضرب	ابن = بنو
اطّرد = طرد	اتّبع = تبع
اطّير = طير	اتخذ = أخذ
أقّست = وقت	اتّزر = أزر
أكّمة = أكم	اتسم = وسم
أكّمه = كمه	اتقى = وقى
الله = آله	اثّاقل = ثقل
أمّّة = أمم	اثّنان = ثنى
أمّّة = أمو	أجمّ = جمم
أمّهات = أمم	أخت = أخو
أنبوب = نبب	أخ = أخو
أودية = ودى	ادّارك = درك

(※) الكلمات مرتبة بحسب نطقها لا أصلها . والهمزة مقدمة فيها على

أَوَّلَى = ولى	حادى (عدد) = وحد
أَوَّلَى = وول — وآل	حادى (الإبل) = حدو
أَوَّل = وول — وآل	حانوت = حنو
بال (اسم) = بول	حسَّان = حسس — حسن
برَّية = برأ	حصاة = (يائية)
بلبل = بلل	حماة = (واوية)
بَنُو = بنى — بنو	حواء = حوا
بيهق = بهق	خنزير = خزرا — خنزِر
تارة = تور — ثير	داء = دوا
تترى = وتر	دم = دمی
تجاه = وجه	دواء = دوا
تخمة = وخم	دوى = دوا
تراث = ورث	ديمومة = ديم — دمم
ترقوة = رقو — رقى — ترق	دية = ودى
	ذَرَّ (أمر) = وذر
	ذَرَّ : ذرر
تعالى (الله) = علو	رَبَّان = ربب
تقوى = وقى	رحموت = رحم
تكلة = وكل	رحى = (يائية)
ثَبَات = ثبو	رَمَّان = رمم — رمن
ثَبَات = ثبت	رياح = روح
ثرى = (يائية)	زكاة = (واوية)
ثقات = وثق	زِن (أمر من زان) = زين
جبروت = جبر	زِن (أمر من وزن) = وزن
جَدَّة = جدد	سام = سوم
جِدَّة = وجد	سام = سمم
جمجمة = جمم	سنا = (واوية)
جوهر = جهر	

فِرَاء (جمع فِرَاء : حمار الوحش) = فِرَاء	سواء = سوى
فِرَاء (جمع فِرَاء) = فِرَاء	سواسية = سوى
فلاة = (واوية)	سيرة (القوس) = سيرا
قائل (من القول) = قول	سبيلان = سوى
قائل (من القيلولة) = قيل	شئان = شئت
قذاة = (يائية)	شئى (متفرقة) = شئت
قرنفل = قرفل — قرنفل	شئى (من الشتاء) = شئى
قنصاة = قضى	شجى = (يائية)
قفا = (واوية)	شذا = (واوية)
قلا (إنصاج الطعام على المقلاة) =	شفا = (واوية)
قلو	شفة = شفه — شفو
قلى (أ — إنصاج الطعام على المقلاة)	شكاة = (واوية)
(ب — البغض والهجر) = قلى	شيطان = شيط — شطن
قناة = (واوية)	صار (يصور) = صور
كرة = كرو	صار (يصير) = صير
كلتا = كلو — كلت	صبا = (واوية)
كوكب = ككب — كوكب	صدى = (يائية)
لا سيما = سوى	صفا = (واوية)
لئه = لئه — لئى — لوئ	طلا = (واوية)
لِدَق = ولد	طوبى = طيب
لظى = (يائية)	عصا = (واوية)
لغاة = لغو — لغى	عفان = عفن — عفف
لهاة = (واوية)	عيد = عود
مآب = أوب	غداة = (واوية)
مئات = مأو — مأى	غضا = (واوية)
ماء = موه	فِد (أمر من فاد) = فيد
	فِد (أمر من وفد) = وفد

مهاة = (واوية)	محيص (فعيل) = محص
مَوَات = موت	محيص (مفعل) — حيص
مَوَاتٍ = وتى	مَدَاك = دوك
ميعاد = وعد	مدينة (فعيلة) مدن
ميناء = ونى	مدينة (مفعلة) = دين
نار = نور	مسيح (مفعل) = مسيح
نبى = نبو	مسيح (فعيل) = مسح
نجاة = (واوية)	مشكاة = شكو
نرجس = رجس — نرجس	مصير (مفرد مصران) = مصر —
نَسَا (عرق) = (واوية)	صير
نيران = نور	معين (ماء) = معن — عين
هَبْ (أمر من وهب) = وهب	مقات = قلت
هب (أمر من هيب) = هيب	مَقْلَاة = قلى
هب (أمر بمعنى احسب) = وهب	مَلَايكة = ملك — ألك — لأك
يحموم = حمم	ملكوت = ملك

الفصل الخامس

الدراسة المقارنة

من المشهور بين الباحثين أن الدراسة اللغوية المقارنة لم توجد إلا في العصر الحديث ، وبعد اكتشاف اللغة السنسكريتية • يقول محمد الأنطاكي : « لم يفتن أحد الى وجود القرابة بين كل هذه اللسان ، ولم يظهر المنهج المقارن إلا بعد العثور على اللسان السنسكريتي » •

وهذه المقولة برغم شيوعها ليست صحيحة ، على الأقل بالنسبة للدراسات العربية • فقد وجدت منذ القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) دراسات مقارنة قام بها لغويون متخصصون ، ومعظمها تم في المغرب والأندلس على يد لغويين يهود سجلوها باللغة العربية •

وأشهر عمليين تما في هذا الخصوص عملا ابن بارون وجودة بن قريش • وإن وجدت أعمال أخرى أقل قيمة كتلك التي قام بها أبو يوسف القرطسني وداود بن إبراهيم ^(١) ، ودونائس بن تميم ^(٢) •

أما ابن بارون فقد كان من يهود إسبانيا ، واسمه بالكامل أبو إبراهيم إسحاق بن بارون ، وقد كتب في أواخر القرن الحادي عشر كتابه العظيم « كتاب الموازنة بين اللغة العبرية والعربية » ^(٣) • وقد خصص الكتاب للدراسة المقارنة بين اللغتين من جانبي اللغة والنحو ، واهتم ببيان أوجه الشبه والخلاف •

(١) انظر : Literary History of Hebrew ص ١٦ ، ٢٣ •

(٢) انظر : Ibn Barun's Arabic Works ص ٣ •

(٣) المرجع السابق ، مقدمة •

والكتاب مقسم الى قسمين * فالقسم الأول مخصص للنحو المقارن ،
وأما القسم الثانى فيضم معجماً مرتباً الفبائياً لجذور الكلمات الواردة فى
الكتات المقدس والتي لها مقابل عربى •

وتبعاً لعهده رتب ابن بارون القسم المعجمى (التالى لقسم النحو)
الفبائياً •

وقد بدأه بقوله : إن الجزء الأول من هذا الكتاب اذا كان قد خصص
لمناقشة « رتبة التشارك » بين اللغتين من نواحى « النحو » ، « وتصرف
الأفعال » ، وما اتصل بهما ، فإن الجزء الثانى سوف يحوى معجماً يجمع
كل الجذور التى نطقها ومعناها يتفقان فى كلتا اللغتين (١) •

وذكر ابن بارون أن هناك « ضروباً متقاربة بين اللغتين تشمل :

- ١ — التشابه فى الخط واللفظ والمعنى •
- ٢ — التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتشابهة الخارج •
- ٣ — التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتجاورة •
- ٤ — التشابه نتيجة التصحيف « (٢) •

إلخ •• إلخ ••

وقد أشار ابن بارون الى بعض المعجميين العرب ومؤلفاتهم مثل العين
للخليل بن أحمد ، والجمهرة لابن دريد ، والمجرد لكراع • كما أشار الى
بعض النحاة العرب مثل المبرد ، والزجاج ، وابن الأنبارى •

ومن أمثلة المقارنة فى القسم النحوى ذكره :

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ — ٥٦ •

(أ) أن علامة التثنية والجمع في العبرية بإضافة الميم ، وفي العربية بإضافة النون •

(ب) وأن العربية يوجد فيها تغيير إعرابى بخلاف العبرية •

(ج) وأن العربية يوجد فيها جمع تكسير بخلاف العبرية •

ومن عناوين هذا القسم :

القول على مرتبة الاسم — القول على التثنية والجمع وما اتفق عليه اللغتان في ذلك — القول في التذكير والتأنيث — القول على الخواص التى تلحق الفعل ورتبة تصرف أبنيته المذكورة — القول على الأفعال المعتلة ورتبة تجانس اللغتين فيها — القول على أقسام الأفعال في التعدى (١) •

وقد أعطى ابن بارون حكما عاما على اللغتين — وضم إليهما السريانية — فقال : « نرى اليوم اللغة العبرانية والعربية والسريانية متقاربات الاشتقاق والتصريف واللفظ لقرب مزاج أهلها ، لقربهم في الإقليم •• فإننى أذكر منها ما وقع التوافق فيه خاصة » (٢) :

وقد نشر المستشرق الروسى P. K. Kokovtsov (١٨٦١ — ١٩٤٢) في سنة ١٨٩٣ القطع التى عثر عليها من هذا الكتاب في مكتبة لندجراد الوطنية • وقدم للطبعة بمقدمة وملاحظات باللغة الروسية ، كما ألحق بها ترجمة روسية • وفى عام ١٩١٦ أعاد المستشرق السابق طبع كتاب •

(١) Ibn Barun's Arabic Works ص ٣ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٢ ،

٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ وغيرها •

(٢) كتاب الموازنة لابن بارون — تحقيق وتقديم «P. K. Kokovtsov»

ص ٢٢ ، ٢٣ •

ابن بارون مع إضافة بعض القطع الجديدة التى عثر عليها ، ومع ترجمة كاملة باللغة الإنجليزية •

وأما جودة بن قريش التاهرتى فقد كان أسبق من ابن بارون بنحو قرن من الزمن ، وكان أول أمره طبيباً ازدهر فى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) •

وقد ترك ابن قريش عملاً مكتوباً بالعربية قسمه الى ثلاثة أقسام ، وعالج فى قسم منه العلاقة بين العبرية والآرامية ، وفى قسم آخر العلاقة بين العبرية والعربية • وشبه العلاقة بين العبرية والآرامية « بفروع الشجرة الواحدة أو بعروق الجسد الواحد » • كما صرح بأن العربية والآرامية ليسا أجنبيين • وذكر أن العربية والعبرية نتجا عن أصل واحد وتفرعا نتيجة الخروج الى أماكن مختلفة والاختلاط بلغات أخرى ، والاقتراس منها • وأصدر حكمه على اللغات الثلاثة بقوله : « العبرية والآرامية والعربية قد صيغت — بالطبيعة — بطريقة واحدة » •

ومن أهم القضايا التى تناولها ابن قريش الى جانب ذلك :

١ — شرحه لتقابلات الأصوات الساكنة فى كل من العبرية والآرامية والعربية ، سواء وقعت فى أوائل الكلمات ، أو فى أواخرها • وقد وضع كل ذلك فى ترتيب ألفبائى حتى يمكن ان أراد حرفاً معيناً أن يجده فى مكانه •

٢ — تناوله للأصوات الصفرية ، وذكر السبب فى تعرضها الواسع للتبادل •

٣ — تخصيصه باباً لعلاج الجذور العربية والعبرية التى تتطابق أو تتشارك فى أصلها أو أصلين ساكنين •

٤ — إظهاره الملامح المشتركة بين العربية والعبرية والآرامية في
تصريف الأفعال •

ولهذا يقول بعض الباحثين : « لا يعد مبالغة أن نزع أن ابن قريش
يعد بحق أبا للدراسات اللغوية السامية المقارنة على الرغم من أن ملاحظاته
كانت عرضية ، أكثر منها مؤسسة على دراسة مستفيضة لتركيب كل من
اللغات الثلاث » (١) •

(١) انظر : Literary History of Hebrew الصفحات ١٧ — ١٩ .

الباب الثالث

قضية التأثير والتأثر

تمهيد

ليس من السهل ونحن نبحث قضية التأثير والتأثر أن نصل الى نتائج قطعية حاسمة ، لأن مشكلة التأثير والتأثر من المشكلات الشائكة التي يصعب علاجها ، وخصوصاً اذا كانت تتناول موضوعاً مضى عليه مئات السنين . وربما كانت قضية التأثير الأجنبي بالدرس اللغوي عند العرب أسهل تناولاً من قضية التأثير الأجنبي وأقوى أدلة ، لأن التأثير قد تم في فترة متأخرة نسبياً ، ولأن الأمثلة والشواهد على وجود هذا التأثير كثيرة وشبه قطعية .

ويجب أولاً وقبل أن نبدأ دراستنا لهذه القضية أن ننبه الى أمرين :

١ — أنه لا يصح — حين يجد الباحث تشابهاً بين عمليتين — أن يعزل على مجرد السبق الزمني ويتخذ دليلاً على تأثير السابق في اللاحق . فالعقل البشري هو العقل البشري في أي بقعة من أنحاء العالم . وما يهتدى إليه المرء في بلد قد يهتدى إليه آخر في بلد آخر دون أن يطلع على ما انتهى إليه غيره . وقد يتشابه العملان أو يتطابقان ويظل كل منهما أصلاً في ذاته (١) .

٢ — أن كثيراً من الأحكام التي أطلقت حول قضية التأثير والتأثر قد أثبتت الأيام خطأها — أو على الأقل قدمت ما يشكك فيها . ومن ذلك ما كان يظن من أسبقية الهنود في علم الفلك ، وقد قال غوستاف

(١) من ذلك ما لا حظه العلماء في مجال الفلك من وجود تطابق بين الهنود والعرب في تقسيم منازل القمر . وقد نفى وليم جونز أي صلة بين العمليتين ورأى اتفاقهما بمحض الصدفة .

انظر : On the Indian and Arabian Division of the zodiac

ص ٢٨١ — ٢٨٣) .

لوبون في ذلك : « ما كان يقال حول قدم علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار ، قد أهمل تجاه الدراسات التامة ، فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد » (١) بل أكثر من هذا يرى غوستاف لوبون أن القضية بالعكس وأن هناك قسماً كبيراً من المعارف العلمية قد نقله المسلمون الى الهند أو الصين ثم عدّه الأوروبيون فيما بعد من أصل هندوسى أو صينى (٢) .

(١) حضارة الهند ، ص ٥٤٧ .
(٢) حضارة العرب ، ص ٥٦٤ .

الفصل الأول

احتمالات التأثير الأجنبي

ليس هناك احتمال لوجود تأثير هندي على فن المعاجم العربية ، بل العكس هو الاحتمال القائم • يقول Haywood : « ومن العدل أن نقول إن فترة النشاط المعجمي الكبير في الهند كانت في القرن الثاني عشر ، وهو وقت كان العرب فيه قد أنتجوا بعضاً من معاجمهم العظيمة • والنظام المثالي لم يوجد مطلقاً في معاجم الهنود • ربما بسبب الصياغة الشعرية ، أو ربما لأن المعاجم كانت تهدف عندهم الى تيسير حفظها عن ظهر قلب » (١) • ولا ندري كيف يكون الهنود — كما يزعم الدكتور محمد إسماعيل الندوي — قد أثروا « في وضع المناهج للقواميس العربية » (٢) ، ولم يكن لديهم هم أنفسهم مناهج للقواميس الهندية ؟ بل لم يكن أى من معاجمهم قد حقق النموذج الذى يجدر احتذاؤه • يقول Haywood : « هل الأعمال المعجمية عند الهنود تسمى معاجم ؟ هذه نقطة محل مناقشة » (٣) • ويقول Weber : « إن المعاجم السنسكريتية بالمعنى العلمى لم تظهر إلا في وقت متأخر » (٤) •

وليسأت أسبقية العرب في مجال المعاجم مقررة بالنسبة للهنود وحدهم بل بالنسبة للعالم أجمعه ، يقول Haywood ونحن نصر على أن نستشهد

(١) Arabic lexicography ص ٧ وانظر Winternitz في تاريخ الادب

الهندي ص ٤٥٥

(٢) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية — ص ١١٤ •

(٣) Arabic lexicography ص ٤ •

(٤) انظر The History of Indian literature ص ٢٢٧ •

برأى غير العرب حتى لا يتهم العالم بالتعصب إن كان عربيا — يقرر :
« الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سواء في
الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم والحديث وبالنسبة للشرق
والغرب » (١) . ويذكر المؤلف نفسه فرقا أساسيا بين المعجم العربى
وما سبقه من معاجم بقوله : « المعجم العربى منذ نشأته كان يهدف إلى
تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة ، وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم
الأولى للأمم الأخرى ، التى كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو
الصعبة » (٢) .

ولكن هناك احتمال — مجرد احتمال — بوجود تأثير هندى صوتى
على الخليل لا يتجاوز الترتيب الصوتى للحروف الهجائية مع البدء
بأعمقها مخرجا ، ولا يصح أن يبالغ في مدى هذا التأثير على نحو ما ،
فيقال مثلا إن هناك تأثيرا صوتيا بوجه عام على اللغويين العرب
للأسباب الآتية :

(١) أن الترتيب الصوتى عند الخليل — وغيره من اللغويين العرب —
يختلف اختلافا كبيرا عن ترتيب الهنود . فقد ضمت الألفباء الهندية ٥١
حرفا وبدأت بالعلل (بدأ الخليل بالسواكن) ، واشتملت على رموز
للعلل القصيرة (لا توجد في الألفباء العربية) ، وعلى رموز للعلل البسيطة
والمركبة (لا رموز للمركبة في العربية) ، ووضعت أصوات الصفيى فى آخر
الحروف الساكنة (ما يقابلها فى العربية وهو ص — س — ز قد وضع فى
مكان وسط) ، واعتبرت الأصوات ى — ر — ل من أشباه أصوات العلة
ووضعتها متتالية بالترتيب السابق (فى حين أن الياء وضعت مع أحرف
العلة فى ترتيب الخليل وفصلت الياء عن اللام والراء بالصاد فى ترتيب
ابن جنى) (٣) .

(١) صفحة ٢ .

(٢) ص ٢ .

(٣) On the origin of the Indian Brahman Alphabet ص ٢٨ .

ومعنى هذا أن الخليل وإن كان من المحتمل أن يكون قد سمع بالترتيب الصوتى الهندى فقد خالفه حين التطبيق • ويبدو أنه اهتم بذوقه وحسه الفطرى الى الترتيب الذى ترصل إليه • ويؤيد ذلك ما جاء فى مقدمة العين عن كيفية اهداء الخليل الى هذا النظام ، ونصه : « فدبر ونظر الى الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق • وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يذبح فاه بالآلاف ثم يظهر الحرف نحو أب — أت — أح — أع — أغ فوجد العين أدخل الحروف فى الحلق فجعلها فى أول الكتاب ، ثم قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم » (١) • كما يشرح الليث كيف وردت الفكرة الى ذهن الخليل ، وكيف قلب النظر فيها حتى انتهى إليها وأخرجها الى حيز الوجدان فيقول إن الخليل حين ورد عليه خراسان فأنحه فى ذلك الفكرة التى كان من الصعب على العقل العادى إدراكها « فجعلت أستنهمه ويصف لى ولا أقف على ما يصف ، فاختللت إليه فى هذا المعنى أياما ، ثم اعتل وحجبت ، فرجعت من الحج فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما فى صدر هذا الكتاب » (٢) • ومما يدل على أن العرب لم يكتفوا ناقضين بل مجتهدين ما نراه من خلافات بينهم فى ترتيب الأحرف العربية ، فترتيب الخليل غير ترتيب سيبويه ، وترتيب ابن جنى يختلف قليلا عن ترتيب سيبويه (٣) •

(ب) أن دراسة الهندى للأصوات قد تميزت بوضع مقاييس محددة للأصوات اللين ، وتحديد وظيفة التجويف الحنجري ، ودور الارتداد الصوتية فى إحداث الجهر والهمس • كما تميزت بدراسة المقطع ومراضع النبر • ولا نجد لهذا نظيرا عند اللغويين العرب •

(١) العين ٥٢/١ •

(٢) المعجم العربية لدرويش ص ٧٤ •

(٣) العين ٥٢/١ ، سر صناعة الاعراب لابن جنى ٥٠/١ ، ٥١ •

(ج) أن الهنود كانوا ينظرون الى الدراسة الصوتية على أنها فرع مستقل من فروع علم اللغة في حين أن اللغويين العرب اعتبروها دراسة تابعة • وأول مؤلف مستقل في الأصوات عند العرب لم يظهر إلا على يد ابن جنى في القرن الرابع الهجرى •

كما لا يصح أن يقلل من جهد الخليل في معجمه العين • فعلى فرض أخذه الأساس الصوتى عن الهنود فله فضل تطبيقه في لغة أخرى ، كما أن أصالته تظهر فيما يأتى :

(أ) جمعه المادة اللغوية بالطريقة الإحصائية التى سبق ذكرها ، مع حرصه على الشمول •

(ب) التقسيم الكمى الذى اتبعه وتفريقه بين الصحاح والعلل •
(ج) شرحه الكلمات شرحاً دقيقاً والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر •

ثم إن عملية الترتيب الهجائى فى حد ذاتها لم تكن شيئاً جديداً على العقلية العربية ، فقد كان العرب يستخدمون الترتيب الأبجدى : أبجد هوز الى أن استخدموا الترتيب الألفبائى الذى وضعه نصر بن عاصم ورتب الحروف فيه ترتيباً جديداً اقتضاه وضع الحروف المتشابهة فى الصورة متجاورة ، والبدء بالثلاثيات ثم الثنائيات ثم المفردات التى لا أشباه لها ، وتركت الهمزة أولاً كما كانت فى النظام القديم •

أما فى مجال النحو فهناك تشابه فى بعض الجزئيات بين الهنود والعرب مثل :

(أ) تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف •

(ب) التمييز بين الحروف الأصلية (الجذر أو الأصل) والحروف الزيدة •

(ج) الاهتداء الى نوع من الأسماء يجمع خصائص الاسم والفعل وتسميته « اسم الفعل » .

(د) الاختلاف حول الحروف وهل لها معنى في ذاتها أو في غيرها (١) . ولكن أمثال هذه الجزئيات موجودة في لغات كثيرة ، وبعضها تفرضه طبيعة اللغة موضوع الدراسة .

أما ما يحاول الدكتور أيوب إثباته من وجود تأثير هندي في المنهج والتبويب على كتاب سيبويه ، وأن ذلك يتمثل في العناية بدراسة الأصوات ومخارجها ، وعدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية (٢) — فمن الممكن مناقشته بما يأتي :

(أ) أن هذه الدعوى مبنية على أساس وجود مدرسة نحوية هندية واحدة ، أو اتجاه نحوي هندي واحد ، وهذا خلاف الواقع . فالمدارس النحوية الهندية متعددة ، ومناهجها مختلفة . وقد أحصينا نحو عشر مدارس هندية في الفترة التي سبقت أو عاصرت نشأة الدراسة اللغوية عند العرب في مؤلفنا « البحث اللغوي عند الهنود » فارجع إليها .

(ب) وحتى إذا كان الدكتور أيوب حين تحدث عن مميزات الدراسة النحوية الهندية يعنى خصائص المدرسة البانيندية التي كتبت لها الشهرة على سائر المدارس الهندية ، فليس هناك وجه شبه بين منهج هذه المدرسة ومنهج سيبويه في الكتاب ، أو منهج أي نحوي عربي جاء بعد سيبويه حتى يومنا الحاضر . وأما كتاب بانيني المشهور المسمى Ashtadhyayi ينطق بذلك :

(١) تفصيل ذلك عند الهنود في بحثنا بعنوان « البحث اللغوي عند الهنود » نضلى علم النحو وعلم الاشتقاق .

(٢) راجع محاضراته على طالبة اليسانس بكلية دار العلوم ، عام

١ — فالكتاب مقسم الى ثمانية أقسام ، وكل قسم الى أربعة فصول ،
وقدم الكتاب في شكل قواعد مختصرة ، أو قوانين موجزة يبلغ مجموعها
أربعة آلاف قاعدة •

٢ — يقدم القسم الأول من الكتاب تعريفات عامة وقواعد للشرح كما
يعالج مشكلات صوتية متنوعة • أما القسم الثانى فيعالج موضوع الإبدال
وهدف التصريف ، وقواعد الجنس gender والعدد • ويتناول القسم الثالث
موضوع اللواحق الأساسية • أما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان
للواحق التى يمكن إضافتها للأصل غير الفعلى مكونة جذرا غير أساسى
ولواحق نصريفية • ويتناول القسمان السادس والسابع بحثا صرفية صوتية
morphophonemic أما القسم الثامن فيتناول موضوعات متعددة •

٣ — لاقى الجانب الصوتى اهتماما من بانينى حتى صدر به كتابه •
نفى الفصل الأول من القسم الأول (ص ٣ — ٦٨) يعالج أطوال الأصوات
— الأصوات الأنفية — أنفية أصوات العلة اذا تسرب الهواء من الأنف
— مخارج الأصوات فى الفم — كيفية إحداث الصوت عن طريق الاتصال
الكامل لأعضاء النطق أو الاتصال البسيط ، أو للفتح الكامل أو للفتح
البسيط — تقسيم الأصوات باعتبارات مختلفة — أشكال العلة وحصرها فى
١٨ صوتا — العلة المركبة — المقارنة بين العلل والسواكن — الإبدال
وشروطه •

وهذا ما نفتقده فى كتاب سيويه •

(ج) أن النحو الهندى لم يتخلص من سلطان الفلسفة كما صرح
الدكتور أيرب ، واعتبر ذلك فرقا أساسيا بين الهند واليونانيين • يقول
Chakravarti : « إن النحو السنسكريتى يعتبر نظاما قائما يعتمد الى
حد كبير على المبادئ الفلسفية » • ويقول عن Bhartrhari إنه كان لديه
« المقدرة على شرح النحو من نقطة فلسفية محضة • وعلى يديه أصبح
النحو يعالج على أنه نظام مطرد من الفلسفة » • ويقول : « يعد بانتجالي

وبهارتر هارى من أعظم النحاة الهنود • ويستحقان احترامنا باعتبارهما مؤسسى فرع (فلسفة النحو) إن ما فعلاه يعد أهم مما قام به أفلاطون وأرسطو لعلم الفلسفة الخاص » (١) •

ولا أفهم كيف يظن ظانّ خلو النحو الهندى من تأثير المنطق ، ويفترض أن الصبغة المنطقية فى نحو المتأخرين جاءت عن طريق الإغريق ؟ إن المنطق — كما يقال — علم كل العلوم Science of all Sciences وللمنطق قضاياها المسلمة التى لا تخص علم المنطق وحده ، وإنما تصلح للتطبيق كذلك فى فروع أخرى من العلم ، لما لها من قيمة لا تقبل الجدل •

ومن يرجع الى بعض المناقشات النحوية عند الهنود يجدها فلسفة صرفاً ، كخلافهم حول ما اذا كان هناك ما يمكن أن يسمى بالزمن الحاضر • كما أن من يرجع الى آرائهم حول أنواع الدلالات للكلمة يرى بوضوح سلطان الفلسفة والمنطق عليهم •

(د) ولست أخيراً مع الدكتور أيرب فى قوله إن كتاب سيبويه يخالف المتأخرين من ناحية عدم تأثره بالمنطق ، وعدم اهتمامه بالنظريات والتقسيمات العقلية ؟ ماذا يبقى فى أى كتاب للنحو إذن لو جردناه من النظريات ، ونحينا جانباً ما فيه من تقسيمات عقلية ؟ أليس المنطق هو المسئول عن إعراب الخليل وسيبويه الفعل المضارع بعد فاء السببية وواو المعينة منصوباً بأن مضمرة ؟ ألم يكن الخليل يثير كثيراً من المناقشات اللفظية ويطبق قواعده على أمثلة لم ترد عن العرب ؟ أليس منع سيبويه العطف على معمولى عاملين مختلفين من آثار الفلسفة ، ونتيجة لتخرجه من القول بتسلط عاملين مختلفين على معمول واحد ، لئلا يلزم أن يكون المعمول منصوباً مرفوعاً مثلاً ، مع أنه لا يجتمع الضدان فى محل ؟ أو

ليس رفض سيبويه العبارة « قام ومضى المحمودون » مع ورودها عن العرب — حتى لا يكون الفاعل الواحد فاعلا لفعلين — تغليبا للقاعدة الفلسفية التي تمنع اجتماع مؤثرين على أثر واحد ؟

اليونان :

ليس هناك مجال للقول بتأثير يونانى على العرب فى مجال الأصوات والمعجم • وما يقال عن تأثير يونانى مقصور على مجال النحو فقط •

وتتلخص الآراء حول هذه القضية فيما يأتى :

- ١ — وجود تأثير يونانى مباشر على النحو العربى منذ نشأته •
- ٢ — وجود تأثير يونانى غير مباشر — عن طريق السريان — على النحو العربى منذ نشأته •
- ٣ — وجود تأثير يونانى — سواء كان مباشرا أو غير مباشر — على النحو العربى فى مرحلة متأخرة لا تشمل مرحلة النشأة •
- ٤ — نفى التأثير اليونانى كلية •

وقد لخص ليتمان معظم هذه الآراء فى قوله : « اختلف العلماء الأورباويون فى أصل هذا العلم ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون نبت فى أرض العرب •• ورأينا مذهب وسط ، وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء ، وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والمذنب تقدمه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان •• تعلموا استنباط النحو » (١) •

ولم يتحدث أحد من الباحثين قبل Versteegh بصورة علمية عن التأثير اليونانى فى مرحلة النشأة • ويتلخص رأيه فى وجود تأثير يونانى مباشر على العرب فى الفترة المبكرة يتمثل فى النحو اليونانى السائد والفكر الرواقى نتيجة الاتصال المباشر بالثقافة الهيلينية • كما قال بوجود ارتباط بين أصول النحو العربى وأصول الطب اليونانى العلاجى (١) •

وأغلب الباحثين يذهبون الى القول بتأثير يونانى فى فترة متأخرة من فترات النحو العربى سواء كان التأثير مباشرا أو غير مباشر ، وسواء كان التأثير عن طريق النحو اليونانى أو المنطق اليونانى •

ويعد من أشد المتحمسين لاثبات التأثير اليونانى بشقيه النحوى والفلسفى الدكتور ابراهيم بيومى مذكور الذى نشر بحثا بمجلة الأزهر بعنوان « منطق أرسطو والنحو العربى » (٢) ، ذهب فيه الى تأثر النحو « بالمنطق الأرسطى من جانبين أحدهما موضوعى والآخر منهجى » ويمثل للموضوعى بتقسيم أرسطو الكلمة فى مقدمة كتاب « العبارة » الى اسم وفعل ، وإشارته فى كتاب آخر له الى قسم ثالث هو الأداة • وإذا انتقلنا الى كتاب سيبويه نجده يبدأ بتقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها تعريفاً يحاكى من بعض النواحي التعريف الأرسطى •

أما التأثير المنهجى فقد رآه فى اهتمام العرب بالقياس النحوى ، ومحاولة فلسفته والبحث عن أركانه وتحديد شرائطه • كما رآه فى مبدأ العلة الذى كان له شأن فى النحو العربى ، وفى المنطق الأرسطى ، وفى نظرية العامل النحوية التى هى وليدة مبدأ العلية الفلسفى •

(١) انظر : Greek Elements وبخاصة الفصول الأولى الى الرابع . وانظر مرضاً لهذا الكتاب فى مجلة الحصاد ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ، العدد الأول .

(٢) المجلد ٢٣ ، الجزء التاسع والعاشر ، رمضان وشوال ١٣٧١ هـ .

ونحن وإن كنا نسلم بتأثير المنطق والفلسفة (بوجه عام ولا نقصرهما على اليونانيين ، فقد كان للهنود كذلك منطق وفلسفة وكان لغير الهود منطق وفلسفة) على النحو العربى ، فإننا نتردد كثيراً فى قبول الرأى القائل بوقوع النحو العربى تحت سيطرة الفلسفة اليونانية • ومجرد التشابه فى تقسيم أو أدثر ، أو فى بعض المصطلحات لا ينعض دليلاً لاثبات مثل هذه الدعوى العريضة • وقد سبق أن رأينا مثلاً أن أقسام السلام موجودة كذلك عند الهنود ، ولاشك أنها موجودة أيضاً عند شعوب أخرى • والأمر قد لا يخرج عن مجرد التشابه بطريق المصادفة ، أو عن التأثير الجزئى ابتداء من أواخر القرن الثالث حيث ظهرت الترجمات الأولى للأعمال الفلسفية اليونانية • ولا يصح أن نغفل فى هذا المقام التأثير المعتزلى على المذاهب النحوية العربية وبخاصة على نظرية العامل (١) •

وتبقى قضية التأثير اليونانى عن طريق السريان ، وهى ما سنبحثها فى الفقرة التالية :

السريان :

يثبت الكثيرون وجود تأثير سريانى على النحو العربى ، سواء بطريق غير مباشر عن طريق الترجمات اليونانية التى تمت باللغة السريانية ، أو عن طريق الكتب النحوية التى وضعها السريان للغتهم •

(١) لمزيد بيان عن قضية التأثير اليونانى راجع : الى جانب ما سبق ذكره — الدكتور مهدى المخزومى فى كتابه « الخليل بن أحمد الفراهيدى » ، والدكتور مازن المبارك فى كتابه « النحو العربى » ، ودائرة المعارف الاسلامية — مادة نحو ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، الجزء الثانى ، وتاريخ الفلسفة فى الاسلام نأليف دى بور وترجمة أبو ريده ، ومدرسة البصرة النحوية للدكتور عبد الرحمن السيد • وانظر كذلك كتاب Versteegh السابق ذكره وبخاصة فى الفصل السادس (نفوذ المنطق اليونانى) والسابع (استخدام المنطق فى النحو) والثامن الذى خصصه للمعتزلة وأثرهم على الفكر النحوى •

وقد سبق في الفصل الثاني من الباب الأول أن عرضنا أهم جهود السريان اللغوية ، فليرجع القارئ إليها ليكون على ذكر بها .

وممن يثبت التأثير السرياني الدكتور ابراهيم مذكور في مقاله السابق الإشارة اليه وفيه يقول : « من الثابت أن كتيب أرسطو المنطقية .. كانت معروفة لدى السريان ، وقد ترجمت الى لغتهم قبل الإسلام . والمهم أنها ترجمت الى اللغة العربية منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري .. فهي إذن ثروة جديدة نقلت الى العالم العربي . ولا بد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير إن من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية .. على أن هناك عملا مشابها تم على مقربة من نحاة العرب الأول وهو وضع النحو السرياني .. في القرن السادس الميلادي ولا شك في أن هذا النحو قد تأثر بالنحو اليوناني ومنطق أرسطو . ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشروا معهم . فيعقوب الرهاوي له شأنه في وضع النحو السرياني ، وهو معروف في الأوساط العربية ، وحنين بن إسحاق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه .. ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل .. مع الخليل بعض القواعد النحوية » (١) .

ويرى جورجى زيدان نفس الرأى إذ يقول : « العرب يغلب على ظننا أنهم نسجوا في تبويب النحو على متوال السريان لأن السريان دونوا نحوهم ، وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس الميلادي على يد يعقوب الرهاوي .. ويؤيد ذلك أن العرب بدعوا في وضع النحو وهم بالعراق بين السريان والكلدان . وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية » (٢) .

(١) المجلد ٢٣ من مجلة الأزهر ، ص ٤٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢٥١/١ .

وعلى الرغم من وجود هذا الاحتمال بتأثير سريانى على النحو العربى ، فلا يكفى — فى نظرنا — أن يتخذ مجرد السبق الزمنى ، أو التجاور المكاني ، أو التشابه الجزئى دليلا على وجود تأثير وتأثر • ويبدو أن أولئك المولعين برد كل ما هو عربى الى أصل أجنبى هم من تلك الفئة من الباحثين التى تستكثر على العقلية العربية الاستقلال الفكرى ، وتتفى عنها الأصالة العلمية ، ويبدو أيضاً أن أولئك الباحثين قد ظنوا أن النحو العربى قد ولد ناضجا • لأنه جاءنا ناضجا ، فاتخذوا من ذلك دليلا على نقله من نحو أمة أخرى •

وقد سبق أن رأينا أن النحو العربى قد مر بمراحل تطويرية كثيرة قبل أن يصل الى مرحلة النضج ، وأن الفترة الزمنية بين نشأة النحو وكتاب سيبويه تزيد على المائة عام • وهى كافية جدا لخلق نحو عربى ناضج منطور بدون النقل الحرفى من نحو آخر •

وإذا كنا قد ترددنا فى إثبات الأثر السريانى على النحو العربى فيبدو أن هناك نقطتين لا مجال للإنكار أثر السريان فيهما على العرب وهما :

١ — أقدم مثل لتأثير السريانية على العربية هو الأبجدية النبطية التى استعارها العرب لكتابتهم • والخط النبطى مشتق من الآرامى • والإملاء العربى القديم قريب من الإملاء الآرامى ، ويظهر ذلك فى الخط الكوفى •

٢ — نشأة الحركات الأعرابية فى فجر الإسلام ، التى ينسب وضعها الى أبى الأسود الدؤلى ، وهى فى الحقيقة مأخوذة عن السريان • فقد استخدم أبو الأسود طريقة الشكل بالنقط وكانت إحدى طرق الشكل عند السريان ، وهى الطريقة التى اتبعها النساطرة (١) •

(١) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ •

العبرانيون :

المجال الوحيد لاحتفال التأثير العبرى على العرب في مجال الدراسات اللغوية هو الترتيب المعجمى بحسب الثقافية أو المباب والفصل • وقد سبق أن ذكرنا أن سعيدا الفيومى (ولد عام ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ وتوفى عام ٩٤٢ م = ٣٣١ هـ) قد وضع عملا معجميا أسماه Agron رتبه أو رتب قسما منه — إذا أردنا الدقة — على الأواخر • وأول من عرفناه من المعجميين العرب يرتب على الأواخر هو أبو بشر اليمان بن أبى اليمان (٢٠٠ — ٢٨٤ هـ) ثم أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابى (المتوفى ٣٥٠ او ٣٧٠ هـ) • فهل استفاد الفارابى من سعيد الفيومى ؟ أو هل ألف كل منهما معجمه بدون اتصال بالآخر ، وخصوصا أنها قد تعاصرا لفترة طويلة ؟ أو هل هما متأثران بمعجم اليمان أو بمعجم أقدم منهما لم يصلنا أو تصلنا معلومات عنه ؟ احتمالات ليس فى إمكاننا ترجيح أحدها على الآخر (١) •

(١) يبقى الصينيون وقد قال فى ذلك Haywood : « لا نظن أن الصينيين كان لهم تأثير على العرب » (ص ٦ — ٧) •

الفصل الثاني

احتمالات التأثير العربي

كما أن العرب قد تأثروا بغيرهم ممن سبقهم ، ذقد أثروا في غيرهم بعد أن تمثلوا الثقافات الأجنبية المتنوعة • وقد امتد تأثيرهم — أو احتمالات تأثيرهم على الأقل — الى شعوب كانت أسبق منهم في الدرس اللغوى مثل الهنود ، والسريان ، والمصريين •

وهناك جانبان بارزان أثر فيهما العرب على غيرهم وهما : للنحو والمعجم •

أولا — النحو

يبدو أثر العرب واضحاً في الدراسات النحوية الآتية :

١ — النحو السريانى :

بعد أن اتصل السريان بالعرب عندما دخل العرب بلادهم فاتحين ، وعدت اللغة العربية على لغتهم أثر ذلك على السريان فوضعوا نحوهم على نمط النحو العربى ، لأنه أقرب الى لغتهم من النحو اليونانى • وكان النحاة السريان في القرن الثانى عشر وما بعده يعكسون مناهج المدارس العربية الشهيرة في البصرة والكوفة • وقد وضع ابن العبرى (ولد ١٢٢٦ م وتوفى ١٢٨٦ م) كتاباً كبيراً في النحو سماه « كتاب الألسنة » على غرار كتاب المفصل للزمخشري (توفى عام ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م) • ويلاحظ أن ابن العبرى في كتابه كان يتبع تقسيمات النحاة العرب (١) •

(١) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ، ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

٢ — النحو القبطى :

تأثر النحاة الأقباط فى كتبهم النحوية بمجهودات العرب فى ذلك وأنت تخرج بهذه النتيجة بعد تصفحك لكتب النحو القبطية المتقدمة ، حيث تجد تشابها عجيبا بين المنهجين * فالكلمة عند « ابن كاتب قيصر » تنقسم الى اسم وفعل وحرف * والاسم هو الذى يخبر به أو يخبر عنه ، وهو ما دخله أحد (١) أدوات التعريف أو التذكير أو التذكير أو التأنيث أو الجمع أو ما أشبه ذلك .. والحرف ما دل على معنى فى غيره ولم يستقل بنفسه ولا يخبر به ولا يخبر عنه .. ومنها الحروف التى تدخل على المبتدأ والخبر وهى إن وأخواتها ... إلخ * فهل تصدق أنك تقرأ فى كتاب يعالج نحر اللغة القبطية ؟

ولم يكن هذا سبيل ابن كاتب قيصر وحده بل كان سبيل النحاة جميعا حتى ضاق بهم مؤلف قبطى آخر اسمه الشيخ الرجيه القليوبى فقال فى مقدمة كتابهسمى « الكفاية » : « وقد وضع فى ذلك (النحو القبطى) مقدمات ، إلا أن المفسرين لغلبة أحكام تصريف اللغة العربية عليهم قاسوا أكثر أحكام القبطى عليها * وليس الأمر كذلك ، بل من شرط المخرج من لغة الى أخرى أن يجرد ذهنه عن اللغة الغالبة ، ويذهل عنها ثم يذوق اللغة المخرجة ويستحضر جميع أجزائها ، ويستقرى مواضع استعمال أدواتها » (٢) .

٣ — النحو العبرى :

نشير فى هذا المقام الى ما سبق أن ذكرناه فى الفصل الثانى من الباب الأول وملخصه :
(١) ازدهار الدراسات اللغوية العبرية بعد ظهور الإسلام ، وكان النموذج العربى هو الذى احتذاه العبرانيون ثم طوروه .

(١) (كذا) وصحتها احدى .

(٢) تاريخ اللغة العربية فى مصر للمؤلف ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(ب) وجود شواهد مؤكدة أن النفوذ العربى كان موجودا حتى منذ اللحظة الأولى للنشاط اللغوى العبرى ، ويبدو ذلك فى أسماء الحركات الثلاث .

(ج) ظهور الثقافة العربية فى مؤلفات أبو يوسف القرقسانى النحوية الذى تتلمذ على مدارس بغداد .

(د) تأثير الثقافة العربية على مؤلفات يهرذا بن حيوج النحوية .

(هـ) تأليف أبو الوليد بن جناح لكتاب نحوى عبرى أسماه « اللمع » يسير على النمط العربى .

ثانيا - المعجم

١ - الهنود :

بالنسبة للهنود نشير الى ما سبق أن ذكرناه (١) من أن العرب يحتلون مكان المركز سواء فى الزمان أو المكان ، بالنسبة للعالمين القديم والحديث ، وبالنسبة للشرق والغرب . وما ذكرناه من أن فترة النشاط المعجمى الكبير فى الهند لم توجد إلا فى القرن الثانى عشر بعد إنتاج بعض المعاجم العربية العظيمة .

٢ - الترك :

هناك نوعان من التأثير يدخلان تحت هذا العنوان هما :

١ - ترجمة بعض المعاجم العربية الى التركية مثل ترجمة « الصحاح » التى قام بها قره بىرى المتوفى عام ٨٨٦ هـ أو ٨٦٦ هـ والتى سماها « الترجمان » ومثل ترجمة المولى محمد بن مصطفى الكررانى المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ (٢) .

(١) صفحة ٣٤٤ .

(٢) مقدمة الصحاح ص ٢٠٨ .

٢ — تأليف بعض المعاجم التركية على نمط المعاجم العربية ،
وأكتفى بأن أمثل بما يأتى :

(أ) ديوان لغات الترك : للكاشغرى الذى سار على نمط ديوان
الأدب للفارابى • ومؤلفه هو محمود بن الحسين بن محمد الكاشغرى من
أهل كاشغر على حدود الصين ، وقد ترقى عام ٤٦٦ هـ (١) • والكتاب
معجم يشرح الألفاظ التركية بعبارات عربية • ووجه الشبه واضح كل
الموضوح بينه وبين ديوان الأدب سواء فى المقدمة أو ترتيب المادة ،
وإن لم يشر الكاشغرى الى ذلك ، ولم يذكر اسم الفارابى • والموازنة
التالية تكشف عن مدى التشابه بين الكتابين :

المقدمة

ديوان الأدب

قال الفارابي : رتب كل كلمة فجعلتها أولى بموضعها مما يقدمها أو يتبعها ليجدها المرتاد لها في بقعة بعينها رابضة من غير نص مطية أو إدا ب نفس •

قال الفارابي : جعلت كل كتاب من هذه الكتب شطرين أسماء وأفعالا وقدمت الأسماء في أمثلتها وأبوابها على الأفعال ثم تلوتها بالأفعال مبوبة على مراقبها ومدارجها مقدما الأحق فالأحق منها •

نبتدىء بالأسماء التي في أواخرها البناء ثم نتجاوزها الى ما بعدها حتى نأثى على حروف المعجم •

لم نذهب في ذلك مذهب الخليل ابن أحمد ولم نرتب ترتبيه ميلا الى الأشهر لقرب متناوله وسهولة مأخذه على الخاصة والعامة •

قال الفارابي : مشتملا على تأليف لم أسبق إليه وسابقا بتصنيف لم أراحم عليه •

ديوان لغات الترك

قال الكاشغري : أنخت كل كلمة في محلها ، وأنهضتها من عدوائها ليصادفها في مبركها طالبها ، ويرصدها في مسلكها راغبها •

وقال الكاشغري : جعلت كل كتاب من هذه الكتب شريحين أسماء وأفعالا ، وقدمت الأسماء على الأفعال ، ثم قفوتها بالأفعال مبوية على مراتبها الأولى فالأولى •

وضعته مرتبا على ولاء حروف المعجم •

ولقد تخالجت في صدرى أن أبنى الكتاب كما بنى الخليل بن أحمد كتاب العين وأذكر المستعمل والمهمل •• إلا أن هذا البناء أصيب لأن مأخذه أقرب •

قال الكاشغري : برزت بتصنيف لم أسبق إليه وتأليف لم يوقف عليه •

ديوان لغات الترك

وقال الكاشغري : القول في تقديم الحروف بعضها على بعض : نبتدىء بالأسماء التى فى أعجازها الباء ثم نمسر الى ما بعدها حتى نستوفى حروف المعجم كلها اقتداء بأئمة الأدب ، وتشبيها فى البناء بلغات العرب •

قال الكاشغري ، قول آخر فيما ذكر فى الكتاب أو لم يذكر : ما كان من أسماء الجبال والمهامه والأودية والمياه ... ذكرت التى فى بلاد الإسلام •

ديوان الأدب

قال الفارابى : القول فى تقديم الحروف بعضها على بعض : نبتدىء بالأسماء التى فى آخرها الباء ثم نتجاوزها الى ما بعدها حتى نأتى على حروف المعجم •

قال الفارابى : قول آخر فيما ذكر فى الكتاب وفيما لم يذكر غير ذلك مما لا غنى عنه : كل ما كان من أسماء البلدان والأودية والجبال ...

وكما نلاحظ هذا التشابه — الذى يدل على التأثير — فى مقدمتى المعجمين نلاحظه فى نظامهما • وجزء من هذا النظام قد شرحته المقدمة ونضيف الى ذلك :

(أ) تقسيم الفارابى معجمه الى ستة كتب هى السالم والمضاعف والمثال ، وذوات الثلاثة وذوات الأربعة والمهموز • وقد تبع الكاشغري الفارابى فى التقسيم ، وفى استخدام المصطلحات حتى ذوات الثلاثة وذوات الأربعة ، وإن زاد عليه كتاب الغنة وكتاب الجمع بين الساكنين وهى زيادة اقتضتها طبيعة اللغة التركية •

(ب) التقسيم لكل كتاب الى شطرين ، شطر للأسماء وشطر للأفعال الموجود فى كلا المعجمين •

(ج) تقسيم كل شطر بحسب التجرد والزيادة موجود فى كلا المعجمين •

(د) تذييل بعض الأبواب بأحكام تصريفية نجده عند الفارابى
وعند الكاشغرى كذلك •

وعلى الرغم من أن الكاشغرى أهمل ذكر الفارابى فقد تنبه بروكلمان
الى التشابه بين العاملين وكانت إثباته هى السبب فى عقدنا هذه
المقارنة (١) •

(ب) قاموس الأروام فى نظام الكلام : مؤلفه شيخ الإسلام
ملا صالح أفندى من علماء القرن الحادى عشر • وقد سار فيه على نظام
المصاح وجمع فيه الألفاظ التركىة وفسرها بالعربية (٢) •

٣ — الفرس :

قام الفرس بترجمة بعض المعاجم العربية ووضع معاجم فارسىة
عربية على نمط بعض آخر •

١ — فمن المعاجم العربية المترجمة : « الصراح من الصحاح » وهو
ترجمة لصاح الجوهري مع إبقاء الآيات والأحاديث والشعر والأمثال
باللغة العربية ، وقام بهذه الترجمة أبو الفضل محمد بن خالد القرشى
عام ٦٨١ هـ •

٢ — أما المعاجم العربية التى نسج على منوالها فأشهرها معجما
المصاح وديوان الأدب •

(أ) فقد ألف هندوشاه بن سنجر الكيزانى (كان حيا سنة ٧٣٠ هـ)

(١) يقول بروكلمان : « كان ديوان الادب مثالا للكتاب الذى ألفه
الكاشغرى وسماه ديوان لغات الترك » . (s, 1, 195)
(٢) مقدمة المصاح ، ص ٢١٠ ، ٢١١ •

« صحاح العجم » على ترتيب صحاح الجوهري وقال : « سميته بهذا الاسم لكونه على أسلوب صحاح العربية » (١) .

(ب) مصادر الزوزنى وهو معجم للمصادر مرتبة بحسب أبواب أفعالها ألفه القاضى أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ هـ وهو معجم عربى فارسى بدأ بمقدمة موجزة تحدث فيها المؤلف عن منهجه وذكر أنه تأثر « بديوان الأدب » .

(ج) تاج المصادر لبو جعفر المتوفى عام ٥٤٤ هـ . وهو معجم عربى فارسى يبدأ بذكر المصدر العربى ثم يذكر معناه باللغة الفارسية . والمصادر فيه مرتبة على أبواب أفعالها على النحو الذى فعله ديران الأدب (٢) .



وأخيرا يجب ألا ننسى جانبين آخرين يظهر فيهما التأثير العربى بوضوح وهما :

١ — جانب الكتابة أو الحروف الهجائية العربية التى استعارتها كثير من الشعوب التى دخلت فى حكم الإسلام مثل الفرس والأتراك . وما يزال الفرس يكتبون بها لغتهم ، أما الأتراك فقد تركوها على يد مصطفى كمال أتاتورك واستبدلوا بها الحروف اللاتينية .

٢ — جانب العروض أو موسيقى الشعر وقوالبه . وقد ظهر التأثير العربى بوضوح فى الشعر الفارسى والسريانى يقول الدكتور على الشاذلى :

(١) المرجع ص ٢٠٧ ، ٢١٠ .

(٢) راجع « الفارابى اللغوى » ، رسالة ماجستير للمؤلفة ص ٣٤٥ وما بعدها .

« نشأ الشعر الفارسي متأثراً بالشعر العربي شكلاً وموضوعاً » ويقول عن « منو جهري » الشاعر الفارسي الغنائي « كان للقصيدة العربية بمفهومها الفني أثر واضح في نشأة القصيدة الفارسية ... » ، ويقول بعد أن عرض نماذج لشعره : « إنها تعتبر أنموذجاً حياً للقصيدة الفارسية من حيث تأثرها بالقصيدة العربية شكلاً وموضوعاً » (١) .

أما تأثر السريان فقد تمثل في شكل محاكاتهم للعرب في القوافي . وأول من أدخلها في شعرهم يوحنا بن خلدون في القرن الحادي عشر للميلادى (٢) .

(١) الأدب الفارسي في العصر الغزنوي ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدي ص ٢٦٨ — ٢٧٠ .

المراجع

أولا : المراجع العربية

- ١ — الآداب السامية لمحمد عطية الإبراشي — ط أولى ١٩٤٦ .
 - ٢ — ابن الطيب الفاسي وأثره في المعجم العربي — رسالة دكتوراه اعداد على حسين البواب (مخطوطة) ١٩٧٨ .
 - ٣ — ابنية الأسماء والمصادر لابن القطاع — مصورة دار الكتب المصرية ٦١١١ هـ .
 - ٤ — أبو بكر الزبيدي وآثاره في النحو واللغة — نعمة رحيم العزاوي — بغداد ١٩٧٥ .
 - ٥ — أبو علي الفارسي للدكتور عبد الفتاح شلبي — رسالة دكتوراه بمكتبة كلية دار العلوم .
 - ٦ — الاتقان في علوم القرآن للسيوطي — مصر ١٣٠٦ .
 - ٧ — احصاءات جذور معجم لسان العرب — د . علي حلمي موسى — جامعة الكويت .
 - ٨ — احياء النحو لابراهيم مصطفى — مصر ١٩٥١ .
 - ٩ — اخبار النحويين البصريين للسيرافي — نشر كرينكو .
 - ١٠ — الأدب الفارسي في العصر الفزنوي للدكتور علي الشابي — تونس ١٩٦٥ .
 - ١١ — أساس البلاغة للزمخشري .
 - ١٢ — أسباب حدوث الحروف لابن سينا تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مسير علم — دمشق ١٩٨٣ .
 - ١٣ — الاستدراك على سيبويه للزبيدي — روما ١٨٩٠ .
 - ١٤ — اسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه — للدكتور رمضان عبد التواب — مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٢ م ٤٩ .
 - ١٥ — الأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس — ط الثالثة .
- (م ٢٤ — البحث اللغوي)

- ١٦ — اصوات اللغة عند ابن سينا للدكتور ابراهيم أنيس — مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٧ يناير ١٩٦٣ .
- ١٧ — اضاءة الراموس للفاسي — مخطوطة دار الكتب المصرية ٥٠٠ لغة .
- ١٨ — الأضداد للأصمعي — بيروت ١٩١٣ .
- ١٩ — الأضداد لابن السكيت ولأبى حاتم — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٣٢ لغة تيهور .
- ٢٠ — اعجاز القرآن للبائلازي — تحقيق السيد أحمد صقر — دار المعارف .
- ٢١ — اعراب القرآن للنحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية ٤٨ تفسير ، وتحقيق الدكتور زهير غازی .
- ٢٢ — الانصاح في فقه اللغة لعبد الفتاح الصعیدی وحسن يوسف موسى — ط ثانية .
- ٢٣ — الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي — حيدر آباد ١٣١٠ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية .
- ٢٤ — اقرب الموارد في فصح العربية والشوارد للشرتوني .
- ٢٥ — انباه الرواة للقطبي — تحقيق أبو الفضل .
- ٢٦ — الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري .
- ٢٧ — الانتصار لسيبويه من المبرد — مخطوط ٦٠٥ نحو تيمور بدار الكتب المصرية .
- ٢٨ — الانتصار لسيبويه من المبرد — مقال للدكتور أحمد مختار عمر بمجلة كلية المعلمين — الجامعة الليبية — العدد الاول .
- ٢٩ — البارع في اللغة لأبى على الغالي — تحقيق هاشم الطعان — بيروت ١٩٧٥ .
- ٣٠ — البحث اللغوي عند الهنود — للدكتور أحمد مختار عمر — دار الثقافة ببيروت .

- ٣١ — البحر المحيط لأبى حيان — القاهرة ١٣٢٨ .
- ٣٢ — البديع فى الشواذ لابن خالويه — القاهرة ١٩٣٤ .
- ٣٣ — البرهان فى علوم القرآن للزركشى — تحقيق أبو الفضل إبراهيم .
- ٣٤ — البستان لعبد الله البستانى .
- ٣٥ — بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ — مازن الوعر — مجلة المعرفة الدمشقية العدد ٢٣٤ — أغسطس ١٩٨١ .
- ٣٦ — بغية الوعاة للسيوطى .
- ٣٧ — بقايا اللهجات العربية — انولتمان — مجلة كلية الآداب — مايو ١٩٤٨ .
- ٣٨ — البيان والتبيين للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون .
- ٣٩ — تاج المصادر لبو جعفر — الهند ١٣٢٠ .
- ٤٠ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان — الهلال ١٩٥٧ .
- ٤١ — تاريخ الادب العربى لبروكلمان — ترجمة عبد الحليم النجار ، الى جانب الاصل الالمانى .
- ٤٢ — تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية لمحمد اسماعيل الندوى — بيروت — ط أولى .
- ٤٣ — تاريخ اللغة السريانية — د . زاكى رشدى — مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .
- ٤٤ — تاريخ اللغة العربية فى مصر — د. أحمد مختار عمر — القاهرة ١٩٧٠ .
- ٤٥ — تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب لأبى حيان — تحقيق د . أحمد مطلوب وخديجة الحديثى — العراق ١٩٧٧ .
- ٤٦ — التذييل والتكميل فى شرح التسهيل لأبى حيان — مخطوطة دار الكتب المصرية ٦٠١٧ هـ .
- ٤٧ — ترتيب القاموس المحيط للأشيخ الطاهر أحمد الزاوى .
- ٤٨ — التطور النحوى للغة العربية لبرجستراسر — القاهرة ١٩٨١ .

- ٤٩ — تعليق الفرائد لابن الدماميني — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٠٠٩
نحو .
- ٥٠ — التناحاة في النحو لأبى جعفر النحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية
٦٨٠٢ هـ .
- ٥١ — التفكير الصوتى عند العرب لهنرى فليش — ترجمة د . عبد الصبور
شاهين — مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٦٨ .
- ٥٢ — التقنية في اللغة لأبى بشر اليمان بن أبى اليمان — تحقيق د . خليل
العطية — العراق ١٩٧٦ .
- ٥٣ — التكملة والذيل والصلة للزبيدي تحقيق مصطفى حجازى —
القاهرة ١٩٨٦ .
- ٥٤ — التكملة والذيل والصلة للصفائى تحقيق مجموعة من الأساتذة —
مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- ٥٥ — تكملة المعاجم العربية — رينهارت دوزى — ترجمة محمد سليم النعيسى —
العراق ١٩٧٨ .
- ٥٦ — تنقيح الالباب في شرح غوامض الكتاب لابن خروف — مخطوطة
دار الكتب المصرية ٥٣٠ نحو تيمور .
- ٥٧ — تهذيب الصحاح للزنجاني — تحقيق عبد السلام هارون وأحمد
عبد الغفور العطار .
- ٥٨ — تهذيب اللغة للأزهري — تحقيق مجموعة من العلماء — ط القاهرة .
- ٥٩ — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجاني —
دار المعارف .
- ٦٠ — الجاسوس على القاموس لأحمد فارس الشدياق — القسطنطينية
١٢٩٩ .
- ٦١ — الجمهرة بن دريد ، نشر كركو وآخر — حيدر آباد .

- ٦٢ — جهود ابن سينا في اللغة والأصوات — د . أحمد مختار عمر — مجلة
البحث العلمي والذرائع — مكة ١٤٠٢ هـ .
- ٦٣ — حاشية ابن الدمايني على المغنى — مخطوطة دار الكتب المصرية
١٧٥٧ نحو .
- ٦٤ — الحجة لأبى على الفارسي — مصورة دار الكتب المصرية ١٩٦٢ قراءات .
- ٦٥ — الحجة لابن خالويه — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٩٥٢٣ ب .
- ٦٦ — حضارة العرب لغوستاف لوبون — ترجمة عادل زميتير — ١٩٦٤ .
- ٦٧ — حضارة الهند لغوستاف لوبون — ترجمة عادل زميتير ١٩٤٨ .
- ٦٨ — الحيوان للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون .
- ٦٩ — خزانة الادب للبغدادى — ط بولاق .
- ٧٠ — الخط العربى وتطوره لسهيلة الجبورى — بغداد ١٩٦٢ .
- ٧١ — الخليل بن أحمد للدكتور مهدى المخزومى — بغداد ١٩٦٠ .
- ٧٢ — دائرة المعارف الاسلامية — الأصل الانجليزى والترجمة العربية .
- ٧٣ — دار المعاجم بلكسنفورد — د . صفاء خلوصى — مجلة العربى —
مايو ١٩٧٩ .
- ٧٤ — الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري — د . فاضل السامرائى
— العراق ١٩٧١ .
- ٧٥ — دراسات فى القاموس المحيط — د . محمد مصطفى رضوان —
ليبيا ١٩٧٣ .
- ٧٦ — دراسة السمع والكلام — د . سعد مصلوح — عالم الكتب بالقاهرة
١٩٨٠ .
- ٧٧ — دروس فى علم اصوات العربية — جان كاتينيو — ترجمة صالح
القرمادى — تونس ١٩٦٦ .
- ٧٨ — دموات الاصلاح للنحو العربى قبل ابن مضاء للدكتور احمد مختار
عمر — مجلة الأزهر ، شعبان ١٣٨٧ .
- ٧٩ — دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم انيس .
- ٨٠ — ديوان الادب للفارابى (الأجزاء ١ — ٤) — تحقيق د . أحمد مختار
عمر — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

- ٨١ — ديوان لفات الترك للكاشغرى — دار الخلافة العلية ١٣٣٣ .
٨٢ — ديوان النابغة الذبياني — تحقيق د . شكرى فيصل — دار الفكر .
٨٣ — رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية للأستاذ عباس حسن .
٨٤ — الرد على النحاة لابن مضاء ، تحقيق د . شوقي ضيف ١٩٤٧ .
٨٥ — رسالة الفجران للمعري ، تحقيق د . بنت الشاطىء ١٩٥٠ .
٨٦ — رسالة الملائكة للمعري ، تحقيق سليم الجندي ، دمشق ١٩٤٤ .
٨٧ — سر صناعة الاعراب لابن جنى — تحقيق مصطفى السقا وآخرين ١٩٥٤ .

- ٨٨ — سر الليال فى القلب والابدال لاحمد فارس الشدياق .
٨٩ — سيبويه امام النحاة — على النجدي ناصف ١٩٥٣ .
٩٠ — الشافية لابن الحاجب .
٩١ — شذا العرف فى فن الصرف للصلوى .
٩٢ — شرح الاقتراح لابن علان ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٦٦٦ نحو تيمور .
٩٣ — شرح الالفية لابن عقيل .
٩٤ — شرح الالفية للأشمونى .
٩٥ — شرح ألفية ابن معطى لابن الخباز ، مصورة دار الكتب المصرية ١٨٢٣ نحو .
٩٦ — شرح الجمل لابن عصفور ، مخطوط دار الكتب المصرية ٣٣٢ نحو تيمور .
٩٧ — شرح الجمل لابن الضائع ، مخطوط دار الكتب المصرية ١٩ نحو .
٩٨ — شرح ديوان الحماسة للمعري ، مخطوط دار الكتب المصرية ٣٠٨ أدب .
٩٩ — شرح شذور الذهب لابن هشام ، بحاشية الأمير .
١٠٠ — شرح كفاية المتحفظ لابن الطيب الفاسى ، مخطوط دار الكتب المصرية ١٤ لغة ش .
١٠١ — شرح المعلقة لابى جعفر النحاس مخطوطة المتحف البريطانى .
١٠٢ — شرح مفصل الزمخشري لابن يعيش .

- ١٠٣ — الشفاء — فى النفس لابن سينا — لندن ١٩٥٩ .
- ١٠٤ — شمس العلوم لنشوان بن سعيد ، طبعتا ليدن والحبلى .
- ١٠٥ — الصحبى فى فقه اللغة لابن فارس ، القاهرة ١٩١٠ .
- ١٠٦ — صبح الاعشى للقلقشندى .
- ١٠٧ — الصحاح للجوهرى بطبعته .
- ١٠٨ — صحيح مسلم بشرح النووى — القاهرة ١٣٤٧ .
- ١٠٩ — ضحى الاسلام لاحمد امين ، ط سابعة .
- ١١٠ — الضرائر وما يجوز للشاعر دون الناثر اللالوسى ، السلفية ١٣٤١ .
- ١١١ — طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، تحقيق ابراهيم .
- ١١٢ — العباب الزاخر واللباب الفاخر للصفائى (حرف الغين) تحقيق محمد حسن آل ياسين — العراق ١٩٨٠ .
- ١١٣ — عبث الوليد للمعري ، دمشق ١٩٣٦ .
- ١١٤ — العربية ليوهان فك . ترجمة د . عبد الحليم النجار ، دار الكتاب العربى ١٩٥١ .
- ١١٥ — علم اللغة للدكتور محمود السمران ، دار المعارف ١٩٦٢ .
- ١١٦ — علم اللغة العام ، القسم الثانى : الأصوات للدكتور كمال بشر — دار المعارف ١٩٧٠ .
- ١١٧ — العمدة لابن رشيق ، القاهرة ١٣٤٤ .
- ١١٨ — العمدة فى الجراحة — يعقوب بن اسحاق المعروف بابن القف — حيدر آباد — الجزء الأول — ط أولى .
- ١١٩ — العين للخليل بن احمد ، تحقيق د . عبد الله درويش ط بغداد . وتحقيق د . مهدي الخزومى و د . ابراهيم السامرائى ط ثانية .
- ١٢٠ — الغريب المصنف لآبى عبيد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ١٢١ لغة .
- ١٢١ — الفارابى اللغوى وتحقيق مقدمة معجمه ديوان الادب للدكتور احمد مختار عمر ، مجلة معهد المخطوطات نوفمبر ١٩٦١ .
- ١٢٢ — الفهرست لابن النديم .

- ١٢٣ — في اصول النحو لسعيد الأفغاني ، بيروت ١٩٦٣ .
- ١٢٤ — في اللهجات العربية للدكتور ابراهيم انيس ، ط ثانية .
- ١٢٥ — القانون في الحب لابن سينا — ط روما .
- ١٢٦ — القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة ، ط اولى ١٩٤٨ .
- ١٢٧ — قصة الكتابة العربية لابراهيم جمعه — سلسلة اقرأ .
- ١٢٨ — القلب والابدال لابن السكيت ، بيروت ١٩٠٣ .
- ١٢٩ — القواعد النحوية مادتها وطريققتها لعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٤٦ .
- ١٣٠ — القياس في اللغة لمحمد الخضر حسين — السلفية ١٣٥٣ .
- ١٣١ — الكافية لابن الحاجب .
- ١٣٢ — كتاب التنبيه والايضاح لابن برى — الجزء الاول — تحقيق مصطفى حجازى — القاهرة ١٩٨٠ .
- ١٣٣ — كتاب الجيم لآبى عمرو الشيبانى — تحقيق مجموعة من العلماء — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- ١٣٤ — كتاب الجيم لآبى عمرو الشيبانى — فرنر ديم — الرياض ١٩٨٠ .
- ١٣٥ — الكتاب لسيبويه طبعة بولاق والطبعة التى حققها الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٣٦ — كتاب في اصول اللغة ، مجمع اللغة العربية في مصر ١٩٦٩ .
- ١٣٧ — كتاب ليس لابن خالويه — تحقيق العطار ، دار مصر للطباعة .
- ١٣٨ — كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية لابن بارون — تحقيق وتقديم وتعليق P K. Kokovtsov .
- ١٣٩ — كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة .
- ١٤٠ — كفاية المتحفظ لابن الاجدابى ، طبعات متعددة .
- ١٤١ — لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة للدكتور عبد العزيز مطر ١٩٦٦ .
- ١٤٢ — لسان العرب لابن منظور ، طبعتا بولاق وبيروت .

- ١٤٣ — اللسان العربى ، مجلة المكتب الدائم لتتسرق التعريب بالمغرب (حتى المجلد ١٧) .
- ١٤٤ — اللغة والنحو بين القديم والحديث للأستاذ عباس حسن ، القاهرة .
- ١٤٥ — اللغة والنحو للدكتور حسن عون — ط أولى ١٩٥٢ .
- ١٤٦ — متخير الالفاظ — ابن فارس — تحقيق هلال ناجى — طبعة الرباط .
- ١٤٧ — مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون — ط المعارف .
- ١٤٨ — مجلة مجمع اللغة العربية بمصر .
- ١٤٩ — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، مجلد ٣٢ جزء ١ عام ١٩٥٧ .
- ١٥٠ — مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما : ماضيه وحاضره ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٥١ — مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما : المجمعين ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٥٢ — مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما — د . شوقى ضيف — ١٩٨٤ .
- ١٥٣ — مجل اللغة لابن فارس — تحقيق هادى حسن حمودى — الكويت ١٩٨٥ .
- ١٥٤ — المحتسب فى تبين وجوه شواذ القراءات لابن جنى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢٥٢ قراءات .
- ١٥٥ — المحيط للصاحب بن عباد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٤٢ لغة ، والقسم الذى حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين (الجزء الاول والثانى) .
- ١٥٦ — مختار القاموس للزاوى .
- ١٥٧ — المختار من صحاح اللغة لمحمد محى الدين وآخر — القاهرة .
- ١٥٨ — المخصص لابن سيده — ط بولاق .
- ١٥٩ — المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف — ط المعارف .
- ١٦٠ — المدخل الى دراسة النحو العربى — عبد المجيد عابدين — ط أولى ١٩٥١ .
- ١٦١ — مدرسة البصرة النحوية — د . عبد الرحمن السيد — دكتوراه بدار العلوم .

- ١٦٢ — مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو للدكتور مهدي المخزومي .
- ١٦٣ — مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي .
- ١٦٤ — الزهر للسيوطي . تحقيق جاد المولى وآخرين .
- ١٦٥ — المسائل والاجوبة لابن قتيبة — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٣١ لغة تيمور .
- ١٦٦ — المساعد — الأب انتستاس داري الكرملی — بغداد ١٩٧٢ .
- ١٦٧ — المستشرقون لنجيب الحقيقي . دار المعارف ١٩٦٤ .
- ١٦٨ — المصادر للوزني . مخطوطة دار الكتب المصرية ٥٨ مجاميع .
- ١٦٩ — المعاجم العربية للدكتور عبد الله درويش — القاهرة ١٩٥٦ .
- ١٧٠ — المعاجم العربية للدكتور عبد السميع محمد أحمد — القاهرة ١٩٦٩ .
- ١٧١ — المعاجم اللغوية — دكتور محمد أحمد أبو الفرج — القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٧٢ — معاني القرآن للنحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٨٥ تفسير .
- ١٧٣ — معاني القرآن للفراء — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٠ تفسير ش .
- ١٧٤ — معجم الأدباء لياقوت الحموي .
- ١٧٥ — المعجم الانجليزي بين الماضي والحاضر — د . داود حلمي السيد — الكويت ١٩٧٨ .
- ١٧٦ — المعجم العربي بين الماضي والحاضر — د . عسدفان الخطيب ١٩٦٦ — ١٩٦٧ .
- ١٧٧ — المعجم العربي للدكتور محمد سالم الجرح (محاضرات غير مطبوعة) .
- ١٧٨ — المعجم العربي للدكتور حسين نصار — دار مصر بالعجالة .
- ١٧٩ — المعجم الكبير — مجمع اللغة العربية .
- ١٨٠ — المعجم اللغوي التاريخي لفيفر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٧ .
- ١٨١ — معجم مقاييس اللغة لابن فارس . تحقيق عبد السلام هارون .
- ١٨٢ — المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — ط أولى .
- ١٨٣ — المعجم الوسيط — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — ط أولى وثانية .

- ١٨٤ — المتنضب للبرد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٩٠٩ : نحو .
١٨٥ — مقدمة الأدب للزمخشري — مخطوطات دار الكتب المصرية .
١٨٦ — مقدمة الصحاح لأحمد عبد الغفور العطار .
١٨٧ — مقدمة في النحو لخلف الأحمر — دمشق ١٩٦١
١٨٨ — مناهج البحث في اللغة — د . تمام حسان .
١٨٩ — من اسرار اللغة — د . ابراهيم أنيس .
١٩٠ — من تاريخ النحو لسعيد الأمفاني — دار الفكر .
١٩١ — من قضايا اللغة والنحو للدكتور — أحمد مختار عمر — ط أولى —
القاهرة ١٩٧٤ .
١٩٢ — المنجد في اللغة للأب لويس معلوف .
١٩٣ — المنصف لابن جنى — تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين —
الخطبي — أولى .
١٩٤ — منطلق أرسطو والنحو العربي الدكتور ابراهيم مذكور — مجلة الأزهر
رمضان وشوال ١٣٧١
١٩٥ — منهج السالك لأبي حيان .
١٩٦ — المهرجان الألفى لأبي العلاء — المجمع العلمي العربي — دمشق ١٩٤٥
١٩٧ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للبرزباني .
١٩٨ — موطئة الفصيح لابن الطيب النفاسي — مخطوطة دار الكتب المصرية
١٧٩ لغة .
١٩٩ — النحو العربي للدكتور مازن المبارك — ط أولى ١٩٦٥ .
٢٠٠ — نشأة النحو لمحمد الطنطاوي .
٢٠١ — نشأة النحو عند السريان وتاريخ نحتهم للدكتورة زكية رشدي .
٢٠٢ — النشاط الثقافي في ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر — مطبعة دار الكتب
ببيروت ١٩٧١ .
٢٠٣ — النشر في القراءات العشر لابن الجزري .

- ٢٠٤ — نظرات في اللغة عند ابن حزم — سعيد الألفاى — بيروت ١٩٦١
- ٢٠٥ — نظرات في المعجم الوسيط — د . عدنان الخطيب مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٣ — ١٩٦٧ .
- ٢٠٦ — نظرة في النحو لطله الراوى .
- ٢٠٧ — نظرية الحقول الدلالية — مقال الدكتور أحمد مختار عمر — كلية الآداب — جامعة الكويت — العدد ١٣ .
- ٢٠٨ — همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى .
- ٢٠٩ — وغبات الأعيان لابن خلكان — تحقيق محبى الدين .
- ٢١٠ — يونس — د . حسين نصار — سلسلة اعلام العرب .

ثانيا : المراجع الأجنبية

1. A Grammar of the Classical Arabic, M. S. Howell Vol. 1, 1883
2. A Short History of Linguistics, R. H. Robias. 1967.
3. A Short History of Syriac Literature, W. Wright, London 1894.
4. Arabic Lexicography, J. A. Haywood, Leiden. 1960.
5. Arabic Linguistic Studies in Egypt, A. M. OMAR, Ph. D. Thesis, Cambridge.
6. Fragments of the Syriac Grammar, W. Wright, 1871.
7. General Linguistics, R. H. Robins, London. 1966.
8. Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking, C. H. Versteegh, 1977.
9. Greek Pioneers in philosophy and grammar, by Forber. The Classical Review, Vol. 47, 1933.
10. History of Indian Literature, M. Winternitz (English translation), Delhi, 1967.
11. Ibn Barun's Arabic Works on Hebrew Grammar and Lexicography, by P. Wechter, 1964.
12. Literary History of Hebrew Grammarians, H. Hirschfeld, London, 1926.
13. New Trends in Linguistics, B. Malmberg, Sweden, 1964.
14. On Language, from Plato to Von Humboldt, ed by P. H. Salus, 1969.
15. On the Indian and Arabian Division of the Zodiac, by Colebrooke, in Miscellaneous Essays, Vol. 2. 1873.
16. On the Origin of the Indian Brahman Alphabet, G. Buhler, Strassburg, 1898.
17. The Beginnings of Arabic Lexicography.
J. R. A. S. 1924. مقال للمستشرق كرنكو منشور بمجلة :
18. The Bloomfield School, C. C. Fries, in Trends in European and American Linguistics, 1963.

The Encyclopaedia Britannica.

The French School of Linguistics, A. Sommerfelt, Trends in European and American Linguistics.

The History of Indian Literature, a. Weber, 1878.

The Jewish Encyclopaedia.

Manual of lexicography. L. Zgusta, Mouton, 1971.

The Philosophy of Sanskrit Grammar, B. C. Chakravarti, Calcutta, 1930.

Tajwid as a Source in Phonetic Research, K. Semaan.

منشور فی :

Wiener Zeitschrift für die Kunde des morgenlandes, 1962.

كتب أخرى للمؤلف

- * تاريخ اللغة العربية في مصر — الهيئة العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧٠ .
- * النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الاسلامى حتى بداية العصر التركى — منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١ .
- * البحث اللغوى عند الهنود واثره على اللغويين العرب — دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢ .
- * اسس علم اللغة — ترجمة من الانجليزية — طبعتان ١٩٧٣ ، ١٩٨٣ — عالم الكتب بالقاهرة .
- * من قضايا اللغة والنحو — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ .
- * ديوان الادب للفارابى — تحقيق ودراسة — مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة — خمسة اجزاء ١٩٧٤ — ١٩٧٩ .
- * المنجد فى اللغة لكراع — تحقيق بالاشتراك — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .
- * دراسة الصوت اللغوى — ثلاث طبعات من ١٩٧٦ — ١٩٨٦ — عالم الكتب بالقاهرة .
- * العربية الصحيحة — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨١ .
- * اللغة واللون — دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢ .
- * علم الدلالة — دار العروبة بالكويت ١٩٨٢ .
- * معجم القراءات القرآنية — ثمانية اجزاء — تأليف بالاشتراك — جامعة الكويت ١٩٨٢ — ١٩٨٥ .
- * النحو الأساسى — تأليف بالاشتراك — ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ .
- * المعجم العربى الأساسى — تأليف بالاشتراك — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — تحت الطبع .

رقم الايداع ٧٧٣٦ لسنة ١٩٨٧

مطابع سجل العرب